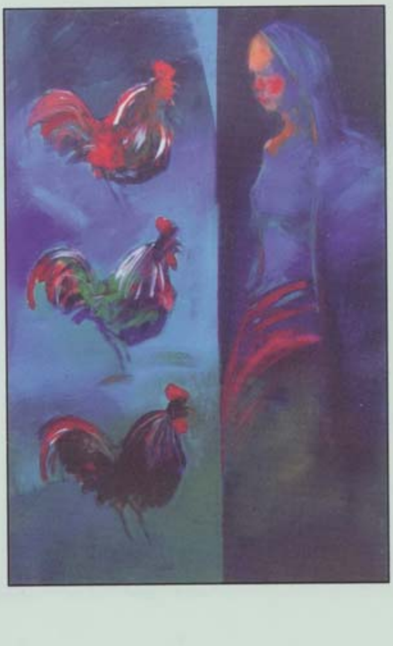
سمير نقاش

فُوَّة يا دم!

نوبيلا عراقية



منشورات الجمل

سمير نقاش

فُوَّة يا دم!

نوبيلا عراقية

منشورات الجمل

سمير نقاش، فُوَّة يا دم!، رواية

سمير نقّاش (١٩٣٨ في بغداد، البتاوين ٢٠٠٤ في إسرائيل) هُجّر عام ١٩٥١ من العراق إلى إسرائيل. تنقّل بين إسرائيل، الهند ، إيران وبريطانيا. نشر العديد من الروايات والقصص والمسرحيات، منها: **أنا وهؤلاء والفصام**، قصص عراقية ١٩٧٨؛ **نزولة وخيط الشيطان**، رواية عراقية، ١٩٨٦؛ **فوّة يا دم**، نوفيلا عراقية، ١٩٨٧؛ **الرجس**، رواية، ١٩٨٧؛ **المقرورون**، مسرحية، ١٩٩٠؛ صدر له عن منشورات الجمل: **عورة الملائكة**، رواية، ١٩٩١؛ **شلومو الكردي وأنا والزمن**، رواية، ٢٠٠٤.

سمير نقاش: **فُوّة يا دم!**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71637 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ملحوظة

إن جميع شخصيات هذه القصة، هي شخصيات من وحي الخيال، وإن كل تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، هو تشابه بمحض الصدفة فقط.

المؤلف

١

باعتداد روغاني الملمس والمنظر لكنه مغبر، كحذاء «معقوج»[١] لشخصية هامة، وهو يحاول توسيع خطواته الضيقة التي تسيرها ساقان قصيرتان مثقلتان بالغلطة وبجسد «مدَخْدَخْ» منضغط ومنتشر بالعرض، وأن يختصر الدرب بين ناصية الشارع الرفيع كخيط والطاولة الوحيدة المستديرة القذرة المنزوية في دكان خليف الچايچي. يقتصرها على هذه الخطوة الواحدة الكبيرة، هذه العملاقة التي غدا يوجس كلما خطاها، ومنذ الأمس فقط بأنها تنقله من عالم غيلان إلى عالم حور. ويخطو الأخرى والأخرى، فتضيع حساباته ولا يدري كيف أن الدنيا قد تكاثرت وأضحت «دنيات» متراصة كالرقّي[٢] في صدر علوة بالصيف، وكم سيواجه منها بين «أبو الَغْد» و «كوچة الأليانس»[٣]، وهو رغم هذا كله، ورغم جهله الأبله، بكل هذا، يريد وبقوة شديدة الدفع، كامنة كالغازات السامة في أحشائه، أو كقنطار بول محتبس بمثانته، أن ينجز هذه الخطوة، ليواجه في خاتمة مطافه «سَفَاني»،

---

(١) منكسر ومنطوٍ.

(٢) الرقي: البطيخ الأحمر.

(٣) الكوچة: الزقاق، اسمان لحيين ببغداد القديمة.

ويقول له، بذاك الامتداد الروغاني وبالصوت «العَقْروقي»[(٤)]، ما ظل يردّده في سره للعالم ولكل الدنيات المنتشرة، «أنا بابا لِيوي النِزّاح.. أكْبَغ نِزّاح اِبْغْداد»[(٥)] إلاّ أنه حين شاهد كف الدم الممتزج بخلايا الطاولة والمنفرجة أصابعها، حذو أبصاره، وكأنها بكل صفاقة «تطفّيه»[(٦)]، وَتَفْقِس عينيه «المقَرّدتين»[(٧)] الحمراوين الدامعتين الفاسدتين بروائح «اِلسْيانات»[(٨)]، حين رأى هذا جفل. فها بالدم كف تخضب روحه بالحناء وتسم عقله وتفضحه أمام الناس. كفّ دم!.. والأنامل تجري كحيّات في أعلى فخذين بيضاوين بضين.. قرون شياطين حمر تنمو جذوراً ضاربة في أعماق رغباته الشريرة والخيرة معاً.. الخوف!.. ملعونة رجينة بـ «شَقْصَتها»[(٩)] السوداء.. الهول!.. «أأنا عاقل أم مجنون؟».. إنزع عنك ثيابك وامسك بـ «سواد»[(١٠)] الثور وناغِ عليه!.. هناك، قرب البطة.. «سِوّتَكْ آدمي»[(١١)].. بل الدم وهو ينز كبالوعة ممتلئة ويفيض.. في البيعة.. الخاطر يتفتق.. «حَلُوم لُو أقْظَة؟»[(١٢)].. الابنة الملعونة.. وأنت قذر.. وسخ مثل حياتك.. مثل عملك «حَلوم لو أخْضَغ»[(١٣)] وأين

---

(٤) الضفدعي.

(٥) النزاح: منظف المجاري وحُفَر القاذورات.

(٦) أي يواجهه بأصابعه العشر ويتمنى له الانطفاء أي الموت.

(٧) العمشاوين.

(٨) المياه الآسنة والقاذورات.

(٩) عصابة رأسها.

(١٠) إحليل.

(١١) جعلتك إنساناً.

(١٢) حلم أم يقظة؟

(١٣) اخضغ تحريف يقظة.

سفاني؟!. . ولماذا في كل مكان يناغون «فُوّة يا طماطا»[14]، وأنا أمسك باليقطينة وأصرخ «فُوّة يا دم؟!». إن الدم ينحدر فوق جبينه وبداخل عقله. يصبغ عينيه الحمراوين الدامعتين أبداً من تأثير روائح مياهه الآسنة وقذارات البطن. . كلا بل لم يبقَ في كل دنياته غير ثقب يفضي إلى «زَرْزَمين» قد أمطره بنزيزة حمراء، وهو يسبح في البركة الدموية، ويحاول ثانية أن يصرخ ـ أنا بابا لِيوي النِّزْاح. . أنْكس نِزّاح بالعالم[15].

---

(١٤) من مناداة الباعة على الطماطم الحمراء.

(١٥) انكس: أقذر، ويعني: أسوأ وأشر.

٢

الثالثة بعد الظهر من يوم اثنين بارد كالح. متشابكة في سقف الدنيا سحب الأفكار، لكنها لا تمطر.. ولا «نَثّة»[(١٦)] صغيرة تخفف من رائحة البالوعات والدم المتكدسة في منخاره، وتجعلها رائحة تراب ورطوبة، هذا رغم أن «تِقّون»[(١٧)] المطر قد قُرِءَ في الكُنس منذ حين وأصبح الناس يرددون في الصلوات «نافخ الرياح ومنزل المطر». وكان بابا ليوي يحدق في ساعته «المزنجرة»[(١٨)] كل بضع ثوان.. من تحته يتخثر ماء الدم.. ساعة لا تجري أبداً.. بل تزحف زحفاً، وتهم بالسير ثم لا تلبث أن تندم. نصف دقيقة بالكاد، وكأن الدنيا تبيعه الوقت لا بالمثقال بل بالقيراط. نصف دقيقة؟!.. أين سَفاني «إبْنِ البولة؟!»[(١٩)] أينه، وقد وُلد الناس وشبّوا ثم شابوا وماتوا؟!.. نصف دقيقة يا ساعة الشؤم ولحظات حقيقة الحلم بالأيام؟! أينَ سفاني؟!..

---

(١٦) نثة، رذاذ المطر، رذة.

(١٧) تقّون المطر: صلاة خاصة تقرأ في الكُنُس في أواخر عيد المظلة إيذاناً بمقدم الشتاء.

(١٨) المتصدئة.

(١٩) سبة تعني ابن العاهرة.

.. في الساعة الثالثة ودقيقة، كان سفاني مشتولاً في منعطفات المجهول. والحاخام جدليا يربض بعمامته وقفطانه على تخت في إيوان داره. يتف لحيته الشيباء ويندب حظه. والحاج حمزة العاقول «أبو الجصّ»، يسهو عن موضعه من هذا العالم المذهل ويخاطب بأصابعه ذاته، والدم بدماغه وأمام عينيه، ومتّانه سْپير، الذي اكتشف الدنيا بالأمس وسط رهبة الحندس ويقين الأسطورة والغفلة بالأشياء وتيارات الدم، كان يحاول الإبقاء على آخر «برغي» في عقله وهو يناضل في معركة الكشف الدامية الشرسة ويمضي في مجاهلها السيّالة الحمراء قدماً رغماً عن أنفه.. وكان خْليف الچايچي مدقوقاً في «أوجار» مقهاه بمسمار، يلهو مع وسواسه، عن طلبات الرواد. يأكله الخوف الشره المجهول. ويتساءل «أين سفاني؟!»، ويتريث حتى سماع الهاجس ثم يقول لنفسه كالمجنون ـ وْلَكْ سَفاني.. اطْلَعْت نَفْطار اذا صِدِق سِوّيتا[٢٠].

يؤذن بها بالصوت الأخرس. بين صمم الأحياء. ينصهر عقله في بوتقة شك إبليسي أشبه بجنون الدنيا.. فهكذا يلقي سفاني به في حلق السبع.. هكذا تنقلب سحنة كل الأشياء المعهودة التي كان يعايشها بسلام، وتغرر به. «أصدق أم كذب؟!» وماذا سأقول لهم يا ابن المومِس، أمي، لو سألوني «وينو سفاني؟!»[٢١]، ولو سألوا عن كف الدم الملعونة.. «زين اضْطَبِغ عْلَيّي لَكان اذا ما اطلع مِنْ حقّك.. اشْحَطَك عالبلّوعة واشِقِّلَك وصل وصل واشْغَب مِنْ دَمّك.. كان لازم اضْغِبو للميز رَنْدَه قَبِل ما يِطْلع دمّك مِنْ

(٢٠) ويحك يا سفاني. لتمت إن كنت حقاً فعلتها.
(٢١) أين سفاني؟

حقي»[٢٢] أفأنا قاتلك أم انت قَتّالي.. أم أن كلينا يقتل الآخر، في هوس منافسة محمومة لفصد الدم؟!. هوس لم يبق سواه، يا سفاني، بين صراع الاخوة.. أفنيست أني أخوك رغماً عن أنفك؟!. بِالدم أخوك لا بالكلمات.. وأنت لم تعرف إلا الكلمات.. والثورة.. «كل الاوادِم اخوة» إلا أنت وأنا.. «لا أَعْغِفَكْ وْلا تِعْغِفْني»[٢٣] كنت تريد أن تفصم عروة الدم بإراقة هذا الدم، فانظر يابن ألـ.. التي ولدتني وولدتك، كف الدم!.. غدران الدم!.. بحار الدم!.. أهذه آخرتُها، وفوق ذلك تْوازيني وتْخلّيني أشْغَب مِنْ دَمّك؟!.. زِين مَ يْخالِف لَكان[٢٤] وبمجرد أن تمسك يداي بخوانيقك. بيد أن يداً ممتدة من تحت الأرض، لعلها يد طنطل أو يد الشيطان بذاته، كانت تمسك «زيق» الوقت وتمسمر الزمن في الساعة الثالثة ودقيقة ونصف تماماً. وكان بابا ليوي يحس بأن مستقبله قد زاغ من قدامه واختبأ وراء ظهره.. كان عمره كله، ما فات منه وما لم يأتِ بعد، يتوحد في أحداث كالسوط ويضرب ظهره.. وكان لا يدري بعد، أهو الكابوس أم الدنيا؟!.. وهل هو حي أم ميت؟!.. وهل حين يتبخر عقل الإنسان فإن عمره يتصلب وينشب في لحظة لا تعقبها لحظات أخرى أبداً، أم أن ذلك يحدث بالضبط حين يعود لِرأس المجنون صوابه؟!.. ثم إن هناك مسألة الأرواح الشريرة.. محتملة ومعقولة وكانت تنبري من أعماق

---

(٢٢) حسناً انتظر علي وسترى كيف أكون سبب حتفك. سأذبحك على فم البالوعة، وأقطعك إرباً وأشرب من دمك. كان يجب أن أكشط الطاولة برندة النجار (يعني الكف الدموية) قبل أن يكون دمك سبباً في موتي.

(٢٣) لا أعرفك ولا تعرفني، أي أني منك براء.

(٢٤) تضطرني لأن أشرب من دمك.. فانتظر إذن (يتوعده).

الرعب والدهشة والعجز عن فهم الظاهرة الملعونة هذه. ورغم أنهُ لم يسبق له أن فكر حتى في هذا، فإن العطل الطارئ على دولاب الوقت، المصحوب بتجارب عقلية وروحية غريبة لم يعثر عليها لا داخل مجاري القاذورات، ولا بالقرب من رجينة، ولا حتى وهو يواجه همسات ذاته المتهمة الملعونة، وليس بالطبع مع البطة الآثورية في المنزل الفخم قرب الدير، بالأمس أو في سالف الأيام، أو في «گلگوله»[٢٥] السابق، أو بعد مئات سنين، أو بمكيدة الشيطان الوهمية، أو بالحلم أو باليقظة، أو ـ ولأن البطة سبب جنوح العالَم وخروج العادة الكونية عن كل مألوف، وما يجري له مما لا يعرف له رأساً أو ذيلاً ـ فجائز جداً أن الروح الإبليسية قد دخلت فيه. إن التجربة الفذة تأتي بالتجربة الفذة.. أفأصبحت شيئاً آخر؟!.. يعني أن المسألة ليست بعد مسألة النوم والصحو، والعقل وذهاب العقل، والموت وخلاف الموت.. وهي بكل بساطة مسألة إنسان أو شيطان؟!.. وكف الدم أمامه. في رأسه. في قلبه. تحت الكرسي. في الهمس المسموم الأخرس. على أفخاذ البطة الآثورية. في الرعب الحاملة على بساطٍ طيارٍ أحمر، أو في الطوفان القاني المترامي إلى ما خلف مقر اللّه. وفي الساعة الثالثة ودقيقة ونصف دقيقة، وبالصوت العقروقي الساعة الثالثة المبحوح، ينق من تحت طبقات سيول عرمة من دماء حقائق منحورة كخراف يشهدها مِتّانَه شپير في روحاته للمسلخ كل فجر، ويضمّخ بها يده كي يحظى بصوف أنحارها الرطبة المنتوفة، كان بابا ليوي يتساءل:

---

(٢٥) گلگوله، أي تناسخه السابق.

ـ خليف؟.. غَخمَه على هَذاك الابّ الْكَشير، مَ تِقْلّي بيش الساعة؟![26]

وفي الساعة الثالثة ودقيقة ونصف، كان خليف في أوجار الچايخانَة[27]، متحجراً كصنم ولسانه طويل وعريض ورقيق كلسان الكلب.. راقص متموج، خارج فمه الصادي الجاف، يولغ في مستنقع من دم سفاني الخنزير. يلعقه في لحظة من لحظات غضب الإنسان المولود من فقدان قدراته البشرية إذ يكتشف أنه عاجز حتى عن تخمين ما يجري في بيته، أو في ناصية الشارع أو خلف الحائط. لا يدري حتى وهو يكترع من نزف سَفاني المنهال من بطنه المبقور كعين النبع، أين الآن سفاني...

اللعنة!.. فهو لا يعلم حتى بأن صوت الضفدع سوف يرفعه من قاع الكهف المغمور، بقوة ألف حصان ثم يشطره بأسنان منشار حادة، ويصرّ في أذنيه صرير الشك والموت والسخط، ولماذا؟!.. وصاح:

ـ مَ عِنْدك بيدك ساعة؟!.. يعني هَيّي أسهل، تْعاينا الساعِتَك لُو اتْطِلّعو لهذا الحِسّ الْبِنْغاذْلو سْلِنگ؟!.. قِلّي بابا إنته مَ تْخاف من اللّه.. قَتْغيد الساعة تِدْخِل بْدَرَكِيتي؟![28]

ورغم أن الشلل قد أدرك الوقت، فقد احتاج بابا ليوي النّزاح إلى عشر ثوان أخرى لكي يفهم. ورغم أن المستحيل حقق ذاته بمرور ثوان عشر في دنيا لم يبق فيها زمن، فهو محال أن يفهم. بل

---

(٢٦) رحم اللّه أباك الطاهر، هلا قلت لي كم الساعة؟.

(٢٧) أوجار الچايخانه، الوجار حيث عدة المقهى ومعداته.

(٢٨) لديك ساعة فأيهما أسهل أن تحدق بها أم تخرج صوتك هذا المحتاج لرافعة، أفلا تخشى اللّه؟.. أتريد الآن أن تعرضني لخطر الموت.

إنه يقسم بـ «العَشْغَة مال اللّه»[٢٩] على أن سحنة العالم ليست كعهدها بعد، فهي لا تبتسم أو تتغضن. لا ترنو بقسوة ولا تنظر بحنان. العالم بالتأكيد يلبس سحنة شيطان.. وهو، بروحه وبأعطافه يكمن هذا الشيطان.

ـ وَاشْ ساغ يعني؟!.. غِيغ قَدَسايلِ؟.. يعني الدِّنِي خَلْصِت إذا ويحد وَقفِتْ ساعتو وْسايل بيش الساعة؟![٣٠]

العالم لم ينتهِ، بالتأكيد. بل انقلب تلك الصخرة المأفونة وتراجع. الثالثة ودقيقة ونصف!.. ماذا مر إذن؟!.. في هذه الأعوام المغتسلة بالدم.. في ألف ليلة وليلة إبليس، وهو يتلوها كملحمة أيوب من دون نهاية، في بؤرة متأسّنة للدنيا تعلوها قشرة طحالب خضراء زنخة، وهو بمكانه ليس يحيد عنه، والحل عند سفاني وحده. كان بابا ليوي يستغرب حين الوقت كان يمضي كعهده بوتيرته الإيقاعية، فيعايشه في طلعاته وفي غدواته، وفي ملله وفي تعبه وشقائه، وفي ساعات لجوئه إلى هذه الچايخانة ليبدد في شرب اسْتيكان[٣١] الشاي بعض همومه، ويخدّر مع هذا الشاي المخدَّر[٣٢] بعناية بعض وسواسه وهمسات شيطانه اللامفهومة. سفاني هذا، عليه أن يصبح أستاذاً بالأسكول[٣٢أ]، فهو وحده من يفهم. ووحده من يقرأ ويكتب.. وحده من يسمع ويقول الرأي.. وحده من يدرك

---

(٢٩) أي الوصايا العشر.

(٣٠) وماذا جرى؟!.. إني أسأل وحسب.. فهل انتهى العالم فيما لو توقفت ساعة أحد الناس فسأل غيره كم الساعة؟!

(٣١) الاستيكان، قدح الشاي الصغير.

(٣٢) الشاي المخدر، المغلي على نار صغيرة هادئة بحيث ينضج رويداً رويداً.

(٣٢أ) الأسكول، المدرسة.

ألغاز العالم ثم بدون عسر ينفخ عليها ويمزقها. إنه يمتلك مفتاح طلاسم الكون.. فهو، بيقين، هادي المخلوقات الضالة والساحر المستحوذ على «عصا موسى» الجبارة.. «مَ جِيفِنْ هَيكِذ ويحد يشتَغِل چايْچي؟!»[٣٣].. ولكن أليس لِحكمة علوية جليلة لم يعمل أستاذاً في الأسكَول.. فمن كان سيسمعني ومن كان سيقول لي، مربط الفرس أين، إذا لم يكن ذلك سَفاني وحدَه؟!.. ومن ذا سيحرك هذا الوقت المشلول ويزجّيه أمامه، بعد أن غافله بغدر وخيانة لا ندّ لهما فتحول خلفه، ثم هناك راح لا ينفك عن إلهابه بالسوط؟!.. أين سفاني؟!.. وبصوته العقروقي نق يتساءل، وكانت الساعة تشارف الثالثة ودقيقتين.. بالكاد..

ـ أقول؟! أشو سَفاني مِنْ غيغ شَغْ ما هُو؟![٣٤]

عندئذ، في وجار المقهى الضيق، مات خليف موتاً غيبياً آخر مع موت الموجودات. وكفُ الدم تتلألأ باللون القاني فوق طاولة دكان الشاي اليتيمة، وبأصابعها المنفرجة الحمراء تلقي ظلها على كل حقائق الدنيا المضطربة المختلة.

---

(٣٣) أليس خسارة أن يعمل مثل هذا الإنسان بائع شاي؟!

(٣٤) أرى أن سفاني غير موجود، فلماذا، عسى ألا يكون السبب شراً.

٣

لا رد ينتشله من محنته السوداء، بل يزداد غطساً في هيئة حمزة العاقول ـ «أبو الجصْ» ـ اللّه بالخير حَجّي.

ولا بد أنه قد فقد السمع مع تمييزه، فالحاج أيضاً صامت، منسلخ عما يحدث كجلود خراف المسلخ بعد أن يحظى مِتّانَه سْپير بالصوف المنتوف من أنحارها المهيأة للذبح. في رأسه تتبختر لا شك «زِمْزومة»[٣٥] الأحزان بعد فجيعته الداهمة بشريكهِ وحبيبه «عِزّوري». التي انقضت عليه في «ساعة وْمِشْواغ»[٣٦] مثل نسر داهم.. وحديث أصابعه الصامت حين «يِعْمِلا هيكذ وِيْغِدّ يِعْغِجا هالشِّكِل»[٣٧] يشهد على أن مصيبة حمزة غير قابلة لعزاء. يوم الجمعة، بعد الظهر، كان عزوري مثل «الدِّيْو أَبو الِغْجاجات» ثم في أمسية اليوم ذاته وقع المحذور. «ذهبت إلى الصلاة، فوجدت الناس بسالفته»[٣٩].. مات عزوري أبو الجص. لقفه عزرائيل على غفلة واكترعه كشربة ماء.

---

(٣٥) الزمزومة: الحشد.

(٣٦) بسرعة وبغمضة عين.

(٣٧) أي أصابعه، يجعلها كهذا (يعوجها) ثم يعود يعوجها هكذا.

(٣٨) الديو: الجني أو حيوان خرافي يشبه الإنسان وله قوة خارقة.

(٣٩) بحكايته.

وكان سَفاني بمكانه لم يزل. وكان يعظ الخلق في الچايخانة، ويحدثهم عن بلد أسطوري يحيا الناس فيه سواسية كأسنان المشط.. «الدِّني حلوم»[٤٠]، ثم لأول مرة في الساعة الثالثة ودقيقتين تماماً، في دكان خْليف الچايچي، وسفاني غائب، وخليف يغطس تحت أرض الأوجار، وحمزة العاقول شريك عزوري الميت موت الغفلة يصمت وأصابعه تتحدث، كان بابا ليوي النزاح يحاول أن يضع الجملة هذه بعد أن ظل يسمعها طوال حياته ويرددها بلسان الببغاء، فوق مشرحة ثم يمسك بالمشرط كي يعمل فيها التقطيع «يعني أشْكون الدِّني حَلوم؟!» فهل رجينة المومس حلم.. إذ تغلق في وجهه باب الغرفة وتقول له «غُوح نام صُوب الأدَب. هَذا مْكانَك. أنا أعغِف ليش اللَّه صْبَغْني بْنِزّاح؟!»[٤١] حتى في ليلة السبت الفائت، بعد خروجه من الكنيس وعودته للبيت يحمل معه بشرى أيوب، ويستغرب ميتة عزوري أبو الجصّ اللامعقولة، بعد أن كان شكله في العصر ينبئ بأن أمامه عمراً أطول من عمر النسر، وحتى لو كان الصديقون الموتى قد نُشِروا وجاءوا من مراقدهم وشاهدوا عِزّوري لما استطاعوا أن يتنبأوا له بالميتة الخاطفة تلك. وهو ذاهل مستغرب واجم وحزين، لم تنس رجينة أن تدفعه للمرحاض ببجاحة من لا يدري أن الدنيا «مَ تِسْوى قِشغْ بَصْلَة»[٤٢]، وأن تقول له رغم أنه قد استحم بصابون الرقّي وفاحت منه رائحة دهن الزيت المنعشة الزكية، وتكشّه كما تكشّ دجاجتها الرقطاء كزهر الباقلاء.

---

(٤٠) الدنيا حلم.

(٤١) اذهب ونم قرب المرحاض فذاك مكانك أفأدري لماذا ابتلاني اللّه بنزاح.

(٤٢) لا قيمة لها.

ـ بيتك! . . بيتك![٤٣]

فيرد عليها بأساه المزمن من إذلال طيف اللّه اللاصق فيه بحكم كونه إنساناً، ولا يهم أنه إنسان يستخرج معاشه من فضلات سواه القذرة، ويرد عليها أيضاً بأساه هذا الآخر الطازج النابت في كل خلاياه ومساماته كقروح زرعتها في بدنه سكين الجزار الأكبر بعد أن غدرت بعزوري في سهوة، ويرد عليها بالصوت العقروقي الجاعر، وهو يعلم حق العلم أن هذا الصوت أكثر تنفيراً من رائحة مكروهة وهمية تفتريها عليه بمخيلتها الشاطّة الهائمة بين مراحيض الناس، زوجته هذه رجينة.

ـ وْلِكْ أشْلون وِيّاكي؟! . . مَ غْسَلْتو بْليفايي وصابون، وْحِكِّيتونو الجِّلْدي بْخجاغِة غِجِلْ وبِخجاغ سِكْغي هَمْزيدي. . وْلِكْ بَعَد اش فَضَل مْنِ الْغيحي. . أشو غيغِك مَ قالا؟![٤٤]

فتصفق الملعونة في وجهه ذاك الصوت الممهول بخرافة استحواذ الإنسان وبلعاب الخالق الطائق القادر على كل شيء.

ـ حِتّي لُو تِغْسِلو بْماي وَغْدْ، وِتْحِكّو بْكاغَد جام، هَمْ مَ تْغوح الْغيحي مِنَّكْ. أنا أعْغِفْ أشْ شاقْلِمْ مِنْ نِزّاح، جابوني وْلِطْشوني بينو؟![٤٥]

---

(٤٣) ما يُقال للدجاج حين يُراد دفعه إلى القن.

(٤٤) ما العمل معك؟ أفلم اغتسل بليفة وصابون وحككت جلدي بحجر الرجل (حجر أسود ذو ثقوب يستعمل لإزالة الأوساخ المتحجرة على القدم) وبمسحوق السوكري (مسحوق الآجر الأصفر كان يستعمل في جلي الصحون وتنظيف الأواني). فماذا بقي من الرائحة الكريهة. . ولماذا لم يقل هذا غيرك؟

(٤٥) حتى لو اغتسلت بماء الزهر وحككت جلدك بورق الزجاج فلن تزول الرائحة، ماذا أعجبهم بك فجاءوا بي وألصقوني بنزاح.

وبرضوخ، يحمل فراشه إلى ذاك الموضع. رجينة ليس فقط لا تحترم فيه الرجل والزوج والإنسان الحامل معه ظل اللّٰه، فهي أيضاً تستهزئ بحزنه وأساه، وتستهين بحقيقة أن عزرائيل واقف يتربص وبيده السكين. إن مأساة عزوري لا يمكن أن «تلوي راسها»[٤٦] ولا أن تلينه.. رجينة إذن ليست حلماً ما دامت تجعله يحس ويشعر، وبماذا تجعله يشعر إن لم يكن بتلك الدمامل «وِالزِّنيقِطْ»[٤٧] تشحنها في روحه ثم تفجرها بصديدها و «جراحتها»[٤٨] كي يسري فيه السم. أفهذا حلم أم كابوس؟!.. ثم «يْشَخْنِق»[٤٩] في سره ويتمتم في سره أيضاً، من أجل أن «يتنفه» لا غير، بمسبات لا يعرفها أحد غيره، ولا تظهر بأي قاموس غير قاموس عقله، وهو صغير ومبرح كعقول صراصير عازفة بجواره في «بيتِ الْكَبود»[٥٠]، يبعثها سراً مع هذه المخلوقات التافهة إذ تخرج إليه من المرحاض زرافات لتواسيه بمصابه، وهو الذي مسخته رجينة رغماً عن بشريته وظل اللّٰه الكامن فيه، هذه الحشرة العملاقة ذات السحنة الإنسانية وروائح القاذورات. ولا يلبث أن ينتفخ الكابوس ويستفحل، إذ تشرع أذناه بالتقاط فحيح يهمس تحت ثيابه، وتؤرقه آلام حادة تشكو منها أسنان روحه «الصانّة»[٥١] فيقوم، لا يدري إلى أين، لكنه كالسائر في نومه يتلمس دربه، بهداية فحيحِهِ ذاك، نحو الغرفة في حذر فطري ممهول

---

(٤٦) أي تلين دماغها وتثنيها عن عنادها.

(٤٧) الدمامل الصغيرة.

(٤٨) قيحها.

(٤٩) يسري عن نفسه.

(٥٠) المرحاض، والكبود الاحترام بالعبرية يورون بها احتشاماً.

(٥١) صنّ الضرس، نبض الماً في تيارات متتابعة.

برعب قاتل. وباب الغرفة مفتوح. ورجينة بالجسد الفيلي ملقاة فوق سرير مخلع، مفلقة الساقين، مغرورة حتى وهي تشخر وتتبختر في دنيا الأحلام. عجباً!.. كيف يكون الحلم والدنيا كابوس؟!.. في يقظته المنزوع عنها عنصر آدميتها، والمنبثة بثنايا المسخ الحشري المفروض عليه، وأوجاع أسنان الروح وهمسات إبليس هذه المنتشرة بين شعر رأسه وحتى ظفر إبهامه، الملقاة عليه بلغة عجماء لا يفقهها، ثم بعد أن صادف بالأمس البطة، أضحى يجرؤ على التخمين بأنها لغة الآثوريين.. أهذا هو الحلم؟!.. وهو يحملق في غلمة ثور أو غلمة إنسان أو غلمة أقوى من غلمة المخلوقات، بل ولعلّها غلمة الخالق، بأفخاذ من تدفعه إلى النوم بجوار المرحاض، إذ تفتحهما الآن لتلك المخلوقات اللامرئية، بعد أن كانت في زمن الخير الأول المتصرم يوم كانت رفيعة كحبل وصغيرة كالنملة، وهو يعتقد ساعة يحتضنها وينام أنه يحتضن كومة عظام، ويقرر سراً مع نفسه، أن عليه مضاعفة الجهد وأن يحظى بكل مراحيض بغداد، كي يتمكن من علف رجينة حتى تغدو كالهايشة(٥٢) ليحس حين ينام عليها بأن تحته لا توجد امرأة حسب، بل و «دوشَگ ومِخَدّة»(٥٣) ودثار من شحم يحميه ويدفئه بليالي كانون القارصة البرد. كانت تتكسر أمامه عن طيب خاطر وتدعوه ملفعة بغلالة من حياء الأنثى المداهن الماهر، وخلال تمطيها تقول له «اركبني».. أفهذا حلم؟!.. وأنظاره سرعان ما تنزلق عن تلك الأفخاذ الرافضة والرافسته عنها إلى أفخاذ صبيحة، ثمرة تلك الأيام الحلوة، وقد

(٥٢) الهايشة: البقرة.
(٥٣) الحشية والوسادة.

شبت عن الطوق وغدت قرة للعين. . بل هذا هو الكابوس. الشيطان الآتيهِ من المرحاض. يركبه وهو يقظٌ صاحٍ. وحده يتجول بين امرأتين ميتتين ليس بهما غير نفس، يطلع وينزل، وهذه القوة المحظورة المنطلقة من أفخاذهما تشحنه مع كل الهمسات التي لم يكن يدري أنها همسات آثورية. . كلا. . ليس هذا حلماً، بل حتى الكابوس يناوره ثم يقضي عليه. طوعاً، أو كرهاً يفلت منه ليعود إلى جوار مرحاضه. لا يفهم شيئاً. إلا كون الغد يوم عطلته الأسبوعية. السبت. يهفو إلى انطواء الساعات ليخرج ثانية «على باب اللّه»، حيث وجوده. هذا الكامن في أعماق بلاليع الناس، وبها يتحقق. باب اللّه هذا، سينفتح على مصراعيه يوم الأحد القادم، فتتفتق قدّامه حفر الماء الآسن وكل القاذورات. يشتاق بصبابة إليها، حتى وهو يجهل ما في الغيب ويعجز عن قراءة المخفي. لا يدري أبداً بالبطة وبأنه سيعثر، ربما، على أسرار همسات شيطانه الملحاحة، ويبان له، بما لا شك فيه إطلاقاً، بأن لغة الوسواس هذه هي لغة آثورية. . بيد أن الشك يعود ويطعن مسألة كنه هذا العلم. الحلم أم اليقظة أم هذا الكابوس؟!. . أعاقل هو أم مجنون؟!. . ولماذا انقلبت سحنة كل الأشياء؟!. . والوقت متحجر. وخُليف الچايچي لا يتزحزح عن أوجاره، ويفقد رشده بمجرد أن يسأله «بيش الساعة؟!»، وسَفاني، بغيته المنشودة، ومن «ماكو غيغو يْحِلاّ»(٥٤) يغيب في أقبح صدفة، وأبو الجص، حمزة العاقول، رغم كونه القادم من بعده، لا يقرأه سلام القادم كما جرت العادة، بل إنه لا يسمع رده حين يبادره بدوره بـ «اللّه بالخير». والساعة الثالثة ودقيقتين تماماً. . والحجّي ما زال

---

(٥٤) لا يوجد من يحل المشكلة سواه.

يخاطب ذاته بأصابعه «وْيغمِلا هيكِذْ وِيْغِدّ بِغْغِجا هَالشّكل». فما من شك في أن موت عزوري شريكه كالمطر الزعج(٥٥) في اليوم الصحو قد شَلَب(٥٦) من عقلَه تخته(٥٧) تماماً كما شَلَب من عقلي أنا تختات. أفحقاً الدنيا حلم؟!.. وقال الصوت العقروقي:

ـ هذي الدِّنيا حَجّي. مِنو چان ايْصَدگ؟!.. المرحوم چان عَزيز عَلينا كُلْنا. أدري هْوايا صَعْبَة، بَلاكِت لازم اتْسَكّنْ على روحك شْوية. موهَشْكِل ايْسَوّون. مَ دتْشوفْني آني شْلون صاير؟!.. أخاف عَليك بَغْدين يْروح عقلك مِثِل ما راح عقلي(٥٨).

بيد أن حمزة العاقول كان في الساعة الثالثة ودقيقتين يتحول، وبشهادة كل من وانته الفرصة ليرى وجهه، إلى حمزة الشيخ، أو حمزة الكركم. لا جدوى إذن، فهو منذ البارحة، منذ اختل نظام الكون، ساقط في دنّ يرقان، فضلاً عن انتقال لسانه بقدرة قادر إلى أنامله التي ما انفكت، ومنذ الأمس كذلك كرؤوس أفاع في أعلى كفيه، وكديدان تتلوى، ثم هذه الكف الدموية على طاولة المقهى.. إنها بالضبط تلك الكف الدموية الأخرى التي قلبت نظام هذا الكون منذ الأمس. إن بابا ليوي النزاح يصيب هذا الفتق الممتد على آماد حشاشة روحي.. هذه، طعنة إبليس النجلاء «وْلَك شْلون

---

(٥٥) المطر المزعج، الهتان والوابل.

(٥٦) شلب: نزع واقتلع.

(٥٧) التخته: اللوح، والمقصود: الطبقة والجزء.

(٥٨) هكذا الدنيا أيها الحاج. من كان يصدق؟.. كان المرحوم عزيزاً على الجميع. أعرف أن ما حدث صعب جداً ولكن يجب أن تهدئ من روعك قليلاً إذ ليس هذا ما ينبغي عمله. أفلا تراني كيف أصبحت؟ أني أخشى عليك لو استمررت على هذا الحال أن تفقد صوابك كما فقدته أنا.

تْوازيني؟!.. وْوينَه سَفاني.. تَرَى إذا ما أخْچيلا السَّفاني، هَسَّه اَشَگگِ بِهْدومي»[٥٩].

وتناهى صوت النزاح ينق من أغوار «طهاراته»:

ـ شَكو حَجّي.. مَ تِحْچي.. يعني قابل الصّار ويْاك مِثِل الصَّار ويايا؟![٦٠]

يزداد سقوطاً في مرقة اليرقان.. وأكيد أن الدنيا انكفأت على قفاها.. حجّي حمزة أبو الجص يبكي؟!.. وأنعقفت سبابته مترجمة دهشة عقله الضارب في بيداء أساطير لا عهد له بها «يَعْني قابل بابا لِيوي هَمْ شاف اللّي آني شِفته؟!»[٦١] وهل يعقل أن ملكوت الشيطان والدم تغزو العالم؟!.. واستغرب إذ أفلت لسانه الأصلي من محبسه المحكم داخل فمه، يتساءل:

ـ يعني مو بَسّ آني.. يعني إنْتَه يا بابا ليوي، هَمْ شِفِتْ الدَّم؟![٦٢]

فقال بحماس العاثر على ضالة مفقودة أو كنز ليس بالحسبان.

ـ خَليها القضية مَسْتورة.. آني دا أسْبَح بِيه سِبِح مْنِ الْبارْحَة.. وْعَبالي دا أحْلَم.. لَعَدْ صُدُگ الدِّنْيا صارَت طَهارَة مَلْيانة دَمْ وْدَتَطوِّفْ؟![٦٣]

---

(٥٩) ويحك. كيف تغريني وأين سفاني.. فلو لم أحك القصة لسفاني فسأجن وأمزق ثيابي؟

(٦٠) ما الأمر يا حاج؟.. تكلم.. أفيعقل أن ما حدث لي قد حدث لك أيضاً؟

(٦١) أفرأى بابا ليوي ما رأيته أنا؟

(٦٢) يعني ليس أنا فقط.. يعني أنت كذلك رأيت الدم.

(٦٣) دع المسألة في طي الكتمان فأنا منذ البارحة أسبح في هذا الدم وأعتقد بأني أحلم. الدنيا إذن غدت بالفعل بالوعة تفيض بالدم.

- يَغْني.. يعني.. الْمَيّتْ يِگدَرْ يِحْچي؟!.. مُمكِنْ تِسْمَع مَيِّتْ دَيْحْچي؟![64]

بس!.. وكان يتساءل بحدقات منفرجة كفوهة البالوعة.. ولكن، كم الساعة الآن؟!.. وتأكد. في الساعة الثالثة ودقيقتين وبضع ثوان، أدرك بابا ليوي أنه ليس عبثاً ساءل ذاته إنْ كان حياً أو ميتاً. كذلك تتحجر الدنيا وتفعل الأسطورة ما يحلو لها. وكان الرعب، الحاكم المطلق من حوله، ورجينة المأفونة حية تُرزق، والبطة الآثورية، لا يدري أصادفها وهو خامد الأنفاس أم لفظَ حياته بعد أن ضرَّجَ أفخاذَها بالدم.. ولكن كيف تلعلع ألسنة الموتى.. أفحقاً؟!

- يعني أكيد حَجّي؟!.. دَتْشوفْني آني ميّت هَسّه وْدا أحْچي وْياك؟![65]

اللعنة!.. وأصابعه الديدان اضطربت بالشحنة المعتوهة الجبارة.. «أشوغَذْ قَبِعْمِلَّه هِيكِذْ وِيْغِذّ بِعْغِجا هَالشّْكِل؟!»[66] أين سفاني؟!.. «وما هُو»[67] سَفاني. وهذا خْليف، هو القادم بنفسه، يحمل صينية الشاي ويترنَح، كمن صب في جوفه عشر بيقايات[68] عرق مِستكّي أصلي.. وسيشرب الموتى الشاي، حتى يبعثون أو يأتي سَفاني.. الشاي الأسود وهو يقترب في الصينية المهتزة. المصطكة كأسنان، تُذبذِبها رعدة هلع كاسح، ناجمة ربما عن.. يلله بَقَى.. يقترب منه ومن حجّي حمزة الشيخ.. حمزة اليرقان.. حمزة

---

(٦٤) افيعني أن الميت يستطيع النطق؟ أيمكن أن تسمع ميتاً يتكلم؟

(٦٥) ألنت متأكد؟ أتراني الآن ميتاً وأخاطبك؟

(٦٦) لماذا عاد يعوج أصابعه هكذا ويعود يعوجها هكذا؟

(٦٧) ما هو، غير موجود.

(٦٨) دنان الخمر.

ذي الألسن العشرة النابتة في كفيه تظل تلعلع في عالم أصم مسلوب العقل واللب، بأسرار عتهه.. يلله بقى.. غير أن ألسُن حمزة العشرة ما لبثت أن رجعت فجأة تحشو فمه كالكمامة، ثم وبفجأة كذلك ينطلق الصوت المسموع أجش غليظاً كالرعد القاصف، يسرق من طرف لسان بابا ليوي كلماته:

ـ لَعَد أشو سَفاني ماكو؟!..(٦٩)

عندئذ، في محض جزيئة من لحظة وانية نائمة في باحة الزمن المتخشب، هب الاثنان، كما في ومضة خاطفة تبرق ثم تخبو على صوت جلجلة هزة أرضية. وكان هذا صوت سقوط الصينية. وتحطم الأقداح، ساعة أَنّت الأرض القذرة من خدش شظايا زجاج ومن لسعة الشاي الحار، وهي تشربه رغماً عنها، فيهبط رغماً عنه في أحشاء شقوق الطابوق المسود. ويتراجع خْليف مذعوراً، ومردداً في سره:

ـ لَك إبْنِ الطَّبْلِتْ بِالِسْيانَة؟!.. مَ قَتْغيد اتْمِشّيها ابْفالا؟ يَغْني لازم تِجْبِرْني إلاّ أشْغَب مِنْ دَمَّك؟!..(٧٠)

ثم ثانية، يضيع في «زحمة الأوجار» بين القوريات ودلاّت القهوة واستيكانات الچاي(٧١)، يغرق في حوض الغيب المتروس(٧٢) بدماء سَفاني.

---

(٦٩) لماذا سفاني غير موجود؟

(٧٠) يابن من تطهرت بالقاذورات قبل أن تحبل بك، أفتصر على ألا تسير الأمور بمجاريها؟ أفترغمني إلا أن أشرب من دمك؟

(٧١) القوريات، أباريق الشاي الفخارية والدلات، أباريق القهوة النحاسية والاستكانات فناجين الشاي.

(٧٢) الممتلئ والمفعم.

٤

«نثَّة مطر يا رب»!..

بضارعة محتضرة تتداعى وتتوارد وتتقافز كجرادة في حقل عقول عاصفة متقصفة ناشفة ملفوحة برياح كبريتية حمراء. «نثة مطر»!.. يا رب!.. «نثة مطر!.. يا شيطان!.. «نثة مطر».. يا سفاني!.. صغيرة وتكتسح هذا الصدأ النهم الناخر بثنايا صوابي بالأسنان القارضة الفأرية.. ببرود يأكل عقل مخلوقاتك، نثة تزحزح العمر الجانح. الناشب في الطين.. السائب الجاذب للأعماق.. خَزْق.. خَرْم.. صَدْع.. ثغرة.. جحْر أو شق، وحلْق هوة تبتلعني ثم كالعادة، تتقيأني حماراً أو كلباً أو صرصاراً أو بشراً، هَوة أخرج منها لا أذهب فيها كما الآن، أذرف ظلي ويقيني في حومة مخاريق الشك الساحر، أو في خدعة وشعوذة الوسواس وهو «يخيِّل» على سمعي وبصري فيواري عني سفاني ويقذف بي بين أناس كانوا حتى ساعة فقداني دماغي، عقلاء، ثم وبالأمس، حين جنّ العالم، لم يبقَ من حولي غير «جوقَة مجانين» يتحكم بجنونها هذا الصمت الثائر، الناطق بطلاسم خرساء بيدَيْ حمزة العاقول وعلى طلعة خْليف المبهوتة وكفيه المنحلتين المسقطتين للأشياء!..

وتيقّن بابا ليوي، في الساعة الثالثة وثلاث دقائق إلاّ ست ثوانٍ

من أن سفاني كان العقل الوحيد المدبر في هذا الكون المعتوه، وأن غياب سفاني الغامض والرافض للكشف عن أسبابه أو أسراره هو بالتأكيد عِلّة ما حاق بالدنيا ومبرر كارثتها الماحقة كممحاة لعلامات هادية كانت منتشرة في مفترقات طرق النفس البشرية، وفي رأس الإنسان. كان بابا ليوي يسير على هَدْي إشارات تلك الأسهم دون عناء.. لا يسأل.. «مِنْ هون.. هذا طريقك يا بابا ليوي» سَفاني كان العقل الأوحد في هذا العالم.. «مِنْ نا.. هذا طريقك يا حَجّي» سفاني المرشد الممسك بزمام حمير الاثنين «مِتّانه.. هَمْ قَتْخَمّل نفسك قَتْعيش؟!»[٧٣].. يسحب رسن حمار متّانه سپير، ثم بقناعة، وبالثقة النظيفة من كل لوثة شك، يحاول ثني حمار مِتّانه هذا عن دربه، ليسير رغماً عن أنفه في عكس طريقه المرسومة.. حمير. معصوبة الأعين وتمضي أبداً نحو طريق تحفظ مسارها عن ظهر قلب. كان يقول سفاني «أترون هذا النهر؟!.. إنه لا ينفك ينحرف عن مساره.. إن تيار الماء، وهو عديم الحس والإدراك لا يرضى أن ينقاد لمصير زعموا أن اللّه قد اختطه له. فهو يغير من مجراه بإرادة لا ندركها نحن فيخط بدوره مصير الأرض ومن يحيا بجواره» هكذا قال سفاني. وكان يصرخ فيهم كدائن يطلب حقه من مدينيه.

ـ وْلَك اشْكون انْتِم؟!.. بَشَر لُو حَجَرْ؟!.. لَكْ الْحِجاغ احْسَن مِنْكِم. خَلّو حْجاغَه هوني صُوب الچايْخانه، وْتالو غدا، لِيش تِلْقوها بِمْكانا؟!.. لا واللّه مَ تِلْقوها غيغ ساغِت بالميدان..[٧٤]

---

(٧٣) أفتظن أنك تحيا حقاً؟!...

(٧٤) ماذا أنتم؟!.. إن الحجر لأحسن منكم. ضعوا حجراً هنا قرب المقهى وتعالوا بالغداة فهل ستجدونه حيثما وضعتموه؟!.. كلا.. بل ستجدونه وقد

كان سفاني يعطي كلاً منهم «نْقِيدو بِيدُو»[٧٥] ناراً ذاكية تكوي أدبار حمير.. وهذا حمار أحمر يقتحم «طُولَة»[٧٦] الأدراك المدفون في دمن ترتع فيه «زْلاَبيح»[٧٧] بيضاء اختلقت منه ومن بخره وعفونته الرطبة، ثم إليه عادت كي تتناوله وتترعرع بين أحضانه وتتخذ مأواها بين حقارته الأبدية. مِتّانه سپير، حمار آخر. في الساعة الثالثة وثلاث دقائق يدخل الچايخانة لينضم إلى زمرة حمير قامت يوماً من مراقدها، كالعادة، لكن مع إدراك داهم كقضاء، بأن جماجمها الفخمة العملاقة، خالية الأجواف، وأنّ هذا الشيء المدعو عقلاً، إن هو إلا جذوة نار ملتهبة مندسة في أدبارها وتحرقها، فترمح طالبة الماء كي تترطب فيه ولَكن.. أين سفاني؟!..

حمار آخر مِتّانَه سْپير، قالها حَجّي حمزة يوم سارت الأشياء على منوال معهود. يوم كان هو حمزة العاقول وليس حمزة الشيح. يوم كان لسانه في فمه لا في أطراف أصابعه العشر. وسَفاني حاضر، وخْليف في صدر الچايخانة كالإنسان ولا يختبئ في الأوجار كجرذ، لا يحمل صواني الشاي ولا يسقطها ولا يغضب حين يُسأل «بيش الساعة»؟. قالها الحجّي يوم كان حمزة العاقول، ويبدو كإنسان عاقل وحكيم.

ـ إحْنا كُلَياتْنا زْمايِل.. إنْتَه أغاتي مِنِ انْتا يا بابا ليوي زْمال أسْوَد.. وْمِتّانَه الْمِسكين زْمال أحمر، واني وعزوري شْريكي زْمايِل

انتقل إلى الميدان، والميدان منطقة فيها بيوت الدعارة وهي بعيدة عن مكان المقهى.

(٧٥) أعطاه: نقده يداً بيد، أي وفاه حقه خيراً أو شراً.

(٧٦) الطولة، الإصطبل.

(٧٧) الزلابيح: ديدان رفيعة بيضاء.

بيض.. يَغني شْيان وْدَم وْجِصْ..[٧٨].

وما زال بابا ليوي يذكر وقع تلك النكتة الجادة، أو كما سماها سَفاني، فلتة بادرة عفواً عن حمير في سيماء بشر. في ذلك اليوم المخدوع بأمان البركان الهامد وبأن لحياتهم المسكينة، رغم ضعتها وركودها ومناوشاتها الصغيرة المندلعة لهنيهة والخابية بهنيهة تعقبها، عقلاً تخفيه تحت يشامغها. وما كان أحد يعلم حتى ذلك الحين بأن ساعة هيجانها وإلقائها عنها هذا العقل مع اليَشْماغ، لتبان من ثَمّ صلعة الأقرع بدمامتها، هذه الساعة هي أقرب من فتحة المنخار الأيمن إلى فتحة المنخار الأيسر، فلقد كان وجه سفاني الغاضب أبداً، الثائر دون هوادة والعاصف كبحر قال الخالق له يوم براه «كن هائجاً حتى قيام الساعة»، ينبسط برصانة ويهتز فوق عنقه مقتنعاً لأول مرة بحياته، ولسانه ينطق بعبارته تلك، ونكتة الحجّي المنطلقة بمحض الصدفة وتشبه توبة كافر مجبول على الإلحاد، وتلائم ما في رأس قائلها وتطابق أيمانه، فيصر على أنها تحوي حقيقة تبحث عن تغيير، وإلاّ فإن الطامة الكبرى ستحيق بهذا الجمع بأسره، وأنه هو، بابا ليوي، كباقي أصحاب الحِرَف الحميرية، وأسوة بالحجّي، من ألقى بنكتته عرضاً ثم بادر بالموت منها ضحكاً، وكأنه يردد البركة ويرد على نفسه بـ «آمين»، قد جارى تلك الضحكة المتصلة وهي تتمادى مندلعة كتيارات السيل الفائض من دجلة ساعة تطفح وينكسر الماء مقتحماً البلدة، فلم يدر ما مصدر خيط مرارة كالحنظل كان يخترق فمه إلى صدره ثم نزولاً إلى كل أحشاء جوفه. ومتّانة سپير

---

(٧٨) كلنا حمير، فأنت يا سيدي بابا ليوي حمار أسود ومتانه حمار أحمر وأنا وعزوري حماران أبيضان، أعني الأسونة والدم والجص.

الآتي الآن بطلعة باكية القسمات، ابتسم ساعتئذ لكنه لم يضحك بالصوت، حتى قيل له بعتاب «وْلَك هاي شِنو مِتّانة. . مَ تَضْحك بَقى. . خوب انْتَه ما إيّوب. لَك حِتّي إيوب هَمْ ضَحك بِزْمانو»[٧٩]، أما عزوري، رحمة اللّه عليه، فكان وهو يهرش رأسه من تحت عرقچينه[٨٠]، يبدو ذاهل الوجه، والبسمة على محياه تحارب بمحاذاة حرب يده اللامنفكة عن «الجرد»[٨١]، فكرة ملحة تكاد تسرقها من بين شفتيه، فتبدو إذاك على وجهه مشتبكة ومختلطة كالسيلان وغاشي[٨٢] حتى ليخطر للمرء أن يمد أصبعه أو يخرج لسانه شهية كي يلطع لطعة من وجه عزوري، ثم في أوج الضحكة الهمجية، وهزة رأس سفاني المستحسنة، ورشح الحزن المزمن من وجه مِتّانة المكتئب اكتئاباً مستعضلاً كاستعضال حياته، ترجم عزوري فكرته اللامعة المختمرة، إلى كلمات متحمسة نابعة من حشاشة فؤاده فقال لشريكه الحجّي ـ شْلون فاتْتني هذي؟!. . نِگْدَرْ هَسَّه انْبيع نَفِسْنا بالمَزاد بْسوگ الْغَزِل، هَمْ نِقْبِضْ فلوس انْصَمّْها، وْهَمْ يْعِلْفونا ابَّلاش، ماكلين شاربين، وخلّي يْگَرْدون عَلينا. . بالگبور!. .[٨٣].

وازددت ضحكاً مع حجي حمزة، وأحتج سفَاني بالصوت الحاد

---

(٧٩) ما هذا؟ هيا أضحك. أفأنت أيوب؟ وحتى لو كنته فإن أيوب أيضاً ضحك بزمانه.

(٨٠) الطاقية.

(٨١) الهرش والحك.

(٨٢) الدبس والطحينة، يخلطان ويؤكلان.

(٨٣) كيف فاتني هذا؟ بوسعنا الآن أن نبيع أنفسنا بمزاد سوق الغزل، وهو سوق للحيوانات، فنربح من جهتين، نقوداً نوفرها، وطعاماً (علفاً) بالمجان. نأكل ونشرب، ولا يهم أن يستخدمونا بالأشغال الشاقة.

كضربة قامْچي[٨٤]، وانفتق في جوف متّانة الجالس الآن ملجوماً لا يلقي بتحية، ويظل يتلفت ويتململ وكأن حياتٍ وعقارب تلسعه من تحته، شيء صوتي كالإجهاشة فراح يعول من دون سبب، حتى قال سفاني:

ـ بَسْ الْحَقّ وِيّانو. عِزّوري!.. يِغْحَم والْديك خِلّيها ابْقَلْبَكْ، تَغَى هذا مَرَضِ الْمايِنْشال، وْمِنَّكْ يْأَسْتو مْنِ زْمان، لكن هَذولي الْقَتْعايِنِم. بَعَد بيهم أمل، فأرجوك خلّيني أنا وِيّاهِم أنْجاز، ومْا أغيد اتْخِغّبلي شِغِل بْهايي اللّغاوى الْجَيْفي مالك[٨٥].

سَفاني «رجل». سفاني يعرف الأشياء وكأن حجب الغيب مكشوفة أمامه. إنه ثائر أبداً وكأن هذه الدنيا لم تخلق له.

سفاني يكتشف السم في البلسم والشوك في الورد ويخاصم حتى ظل نفسه. أين سَفاني؟!.. أتراه الآن يترحم على عزّوري كما ترحم يومئذ على أموات عزوري؟!. أقسم قد كان عزوري فيما قاله يؤمن إيمان عبادة. كان كالحشف اليابس عِصّو مَيت، لَوْ تعصره عاماً فلن ينزل منه قطرة دهن.. ولا حتى رذاذة ماء[٨٦].

---

(٨٤) السوط.

(٨٥) الحق معه. اكتم الأمر في قلبك يا عزوري فهذا داء لا يحتمل وقد يئست منك منذ زمن لكن هؤلاء الذين تراهم أمامك ما زال في شفائهم أمل فدعني أتصرف معهم ولا تهدم لي جهودي معهم بهذيانك هذا المتن.

(٨٦) العصو الميت: البخيل. يقول إنه بخيل فلو اعتصرته فلن يرشح شيء منه لشدة بخله.

٥

كانت أزواج عيون جاحظة وكبيرة وحمر ومركبة في محاجر بوجوه بشرية، قد انبسطت فجأة للأمام وانسحبت ثم نمت نمواً ناتئاً وغريباً، ترنو بغباء وبلاهة إلى كف الدم. بشرية ومفتوحة على طاولة الچايخانة المتسخة. . تتناهى وحدها من دون هوية. . فظيعة ككف الموت، وتبث دمويتها في تلك الأعين المفغورة المسروقة، فتتطافح فيضانات الدم في كل مكان، وتعوم في أمواهها أسماك نارية الأجساد مجبولة من مارج الجان. وكان حجّي حمزة «أبو الجص» يعاتب إبليس أبا الجان بألسنته العشرة، ثم يتفجر سخطه مجنوناً، فيلقي عليه التبعة و «يخزّيه» ويسبه بالخنصر المائل الأيسر وبالوسطى المنتصبة اليمنى والإبهامين المعقوفين. مندهش مستغرب، ما زالت طبقات دماغه تتهاوى، بتتابع ظالم لأحداث لا يفهمها، ما انفكت تكتسح سدود المنطق مذ مات عزوري ميتته السهوية عصر الجمعة، فانفرد فيه ألف شيطان رجيم يغويه ويلقيه داخل الشرك الدموي. وغياب سفاني اللامتوقع يرفعه مع بابا ليوي النزاح على أجنحة غراب إلى أجواء ضياع. ها بالمتضادات تساوت ولم يبق للأشياء هوية، غير الوحشة الجبارة وهلع اللحم الإنساني من تلبيس إبليس. كان خْليف يقبع في أوجاره كالجرذ، وبخيط بصري متلصص يختلس النظرات

شزراً من عملائه المعتادين ومن كف الدم. . و «معاميله» يأتون تباعاً وبفارق خطوات. . الساعة، انضم متّانة سپير إلى «ربعه»(٨٧)، اكتملت الحلقة. . اكتمل الطوق حول رقبة خليف. ويمضي باللذة الشهدية يضيق عليه خناقه، ويختنق العقل كذلك في راحة الكف الحمراء المفتوحة. . لا تستعطي بل تقسم «واللّه لأفضحنّك يا خْليف، يا أخي». . «سفاني. . تْقيّيت دَمْ عَسالَك. .»(٨٧أ) دم؟!. . كم هو ساذج. . بخلاف ما حاول، وظل طوال حياته يعمل ويكافح كي يقنع ذاته وسَفاني أيضاً، بالعكس، ويصدق ويجعل الناس تصدق، إنه يقظ للأحداث حتى لأكثرها تمويهاً وخداعاً، ثم لا يلبث «مِجْلودِ الرقبة» سَفاني أن يثبت له، إنه وعلى رغم لسانه الذَرِب السيّال في القذف والشتم، لا أكثر من «ثور امْعَمَّمْ»(٨٨) لا يدري حتى ما يجري بين عينيه وتحت أنفه. كان يشيّد في الريح قصوراً ويزرع في دجلة حدائق غناء. وكان سفاني يهدم أحلامه ومفاهيمه في نفخة، وبكلمة حرونة يعرّيه ويلقيه بين الأنقاض. . «أهذه نهايتها؟!. . هِيكذ اتْعابيني؟!. . لو أربّي نَغِل ما أحسن؟»(٨٩).

ما الفائدة وهو يخاطب ثوراً هاج وانطلق يعدو بغياهب ظلمة وفي متاهات الغيب؟!. . كلا. . بل كان يراه أمامه. في كف الدم النامية على طاولة لا يوجد غيرها في المقهى. . سفاني يؤذيه حتى وهو غائب. . يعرّيه، حتى وهو متلفع بالمجهول، ويفضح بلهه المستعصي على الطب والسحر وإرادة اللّه. لماذا لم يغسل تلك

---

(٨٧) ربعه: أصحابه.

(٨٧أ) يدعو عليه بأن يتقيأ دماً.

(٨٨) الثور المعمم، تعبير عمن يدعي العلم وهو أبعد ما يكون عنه.

(٨٩) أهكذا تجازيني؟. . أفليس من الأفضل لو كنت ربّيت زنيماً جاحداً بالنعمة؟

الكف المشؤومة؟!.. تلك الشبهة؟!.. أفكان سيقول له «تخلص منها»؟!.. أم إنه بالخبث المتأصل فيه تحاشى ذلك، حين تلاشى عمداً، لكي يهدم ما لم يتهدم بعد من بيته وحياته؟!.. إنه في الغيب يتربع. في الغيب تَفْتَرّ شفاهه. في الغيب يتلذذ بسقوط عقل أخيه المتداعي وحياته. ماذا سأقول إذ أدخل عنوة في شدق أسد؟..

وترامى متّانة على الكرسي الثالث، وكان جهماً وحزيناً. أخرس، ليس عن وعي بشري أو إدراك بالأفعال، بل كحماره حين يشق طريقه كل «غبشة» إلى المسلخ في ظلمة الفجر الأول، تكفيه لكزة الساقين على أطراف بطنه كي يمضي أو تنتعش فيه ذاكرة غريزية كذاكرة طيور أو أسماك مهاجرة في زمن معلوم، فيواصل الدرب لا يخطئ فيه ولو عصبوا عينيه. كان مِتّانة سْپير تماماً كحماره.. أعجم لا ينطق. يسهو عن «ربعه» وهو يراهم من خلف غلالة حزن الكشف الرائع الفتّاك ينبلج في رأسه المعتم من خَلَل الغفلة ورماد السهو الغابر، عن أن اللّه قد سلّط أشياء على أشياء أخرى واستعبد إنساناً بيد إنسان آخر أعطاه بالصدفة العشواء، صفة الأب الشرس الظالم، مع ناب لا مرئي ومجوّف يمتص منه شخصية الابن التافه. حتى لم يبقَ منه غير قامة فارعة فارغة الجوف. نخلة منتصبة نخر الدود ما في داخلها. وهو يرى الدود في أعقاب الأسطورة الهولية، ثم تجتذب الكف القانية أبصاره بقوة مغناطيس، فيغرق مع ربعه في وحل دم خاثر، كان وما زال يخوض فيه كل صباح بين جثث الأكباش المذبوحة وصوف الأنحار المنتوف، يشم رائحة الأرواح المزهوقة والنتن.. ويهبط للأعماق. لا يدري لماذا جاء اليوم إلى الچايخانة، وهو لم يبدأ بعد عزاء السبعة أيام، حداداً على عمره الضائع.

كان ثمة حول الكف أجساد بشرية. صُحبة من سالف الأيام.

صَداقة «سَلام وُصَباح»[٩٠] وأحاديث يتهاوى كل منها في وادٍ، وكان سفاني يزعم أنها معاقرة كؤوس مطنبة بهواء. وتجمد الوقت وسفاني تبخر. والصحبة رغم اجتماعها انفرطت، متساقطة أجزاؤها في عزلة هائمة في وديان لا تشبه تلك الوديان. وأشارت عقارب ساعة بابا ليوي الأثرية إلى اكتمال نصف دقيقة أخرى، فنفخ نفخة ضيق وضجر وحك رأسه، ثم بقوة خارقة انتزع هذا الرأس من الأنشوطة، للمرة الألف، وأجال أنظاره بين فضاء دكان الشاي الضيق، وكان وبقوة لا تستسلم ما انفك يريد أن يعثر على سَفاني. لم يبق أمل غيره من بعد خراب العالم. ولم يكن ثمة سفاني. بيد أن متّانة سپير كان يجلس حذوه. وخاض بابا ليوي غمار فراغ يملأ رأسه مع ذرات الأشباح، فأدرك وبيقين لن يتوانى عن تعزيزه بالحلفان بالتوراة، أنه قد شاهد متانة قبل جولة الرأس هذه.. أين ومتى؟!.. منذ دهور. أم قبل لحظة؟!.. ومتى خيل له أن متانة قد فقد لسانه تماماً، لكنه بخلاف الحجّي لم يستبدله بألسنة عشرة ولم يضعه في أعلى كفيه؟!. كان كالحجر الصلد تماماً. ولا شيء ينبئ بأن في قامته الفارعة من أقصاها إلى أقصاها توجد خلجة صوتية أبداً. وكان بابا ليوي ممتلئاً دهشة ومستغرباً من تلقائه. غير أن الصوت العقروقي لم يدهم متانة لكنه حط على وجه حمزة العاقول كإكسير لليقظة:

ـ حَجّي. مَ تْكلّي اشْصَار؟!.. أَشو مِتّانة هَمْ اخْوالَه اليوم عَجيبة.. خِرَسْ للتّالي[٩١] انتبه الحجي. وكان في ذروة صحوة

(٩٠) السلام والصباح، هي صداقة سطحية تقتصر على المقهى أو ما أشبه، وتعني التحية من سلام عليكم وصباح الخير.

(٩١) هلا أخبرتني بما يحدث؟.. أرى أن متانة هو الآخر في حالة عجيبة اليوم وقد خرس تماماً.

المجنون. واستعار لبرهة، من ألسنته العشرة النشطة الخرساء، لساناً فرداً أودعه فاه، كي يتساءل بالصوت.

ـ گلي مِتّانة.. إنْتَه شِفِت ابْزَمانَك مَيِّتْ يِحْچي؟!..[٩٢].

وفي الساعة الثالثة وثلاث دقائق و٣٦ ثانية، سقطت كل تقديرات بابا ليوي النزاح في دَنّ دهشته الطافح. كان متانة شْپير ينتفض ويتنهد. كان يجهش. كان ينطق بالصوت المسموع.

ـ هَلْبَت حَجّي.. لَعَدْ إِشْعَبالَك؟[٩٣].

وانفغرت عينا الحجي مع كل قسمات وجهه وتساءل.

ـ لَعَد أكو هيچي شِي.. گلّي «اي» يا معود..[٩٤].

كان متانة يجهش وهو يشق غمار الحندس، في أرض مقطوعة تفضي لمصنع يمارس فيه الإنسان، بالشرع والقانون، قتل الحيوان. تتراكم ثم، طبقات من طين لزج خاثر قان، وهو بأمر أبيه ممتثل طيّع «قُوم.. ساغ الِوَقْت»[٩٥] وكالدمية الآلية يقوم. لا ظِلّ له. لا طيف. شبح الإنسان مسفوح مع أغنام المسلخ. والوقت يسخر منه. يعبث فيه عبث الجمرة. وهو، «على نيّته»[٩٦]، يطارد الجمرة في جوف ليل عامر بالجن والأهوال. أبوه يقذف به لمخاطر جمّة، وهو في أثرها يسعى ويصيح بحماره «وِلَكْ دِيخ»[٩٧] ويلكزه أيضاً في بطنه.. شرارة نار تغويه. الحي يقيناً لا يفعل هذا.. أبداً «لم يترك في رأسي

---

(٩٢) خبرني يا متانة.. أرأيت في حياتك ميتاً يتكلم؟

(٩٣) طبعاً. ماذا ظننت إذن؟

(٩٤) ثمة إذن شيء كهذا.. قل نعم أيها الشهم.

(٩٥) انهض. حان الوقت.

(٩٦) بحسن نية، وبسذاجة.

(٩٧) ديخ، كلمة يحثون بها الحمير على السير.

عقلاً أفكر به.. لقد أفرغني منه ومن كل الأشياء».. ثم تأتي الطامة الكبرى، ويصرخ من قاع هلع الكشف عن الأشياء.

ـ آني!.. إني حَجي!... ميت ابن ميت ابن ميت.. ميت لِيسابع ظَهِر.. وينَه سَفاني؟!.. هَسَّه أريد أوگَع على إيدَه وأبوسَه وَاريد أگله، لا بلَى حَلْگك.. اشْماگِلْت عَلَيّا صُدُگ.. آني وْحياتي چرُگ ابْچرُگ إبْچرگ[٩٨].

---

(٩٨) أنا ميت بسلالة تمتد حتى جدي السابع. أين سفاني؟ أريد الآن أن أسقط على يده وأقبلها وأقول له: لا فض فوك، فكل ما قلته لي كان حقيقة فأنا وحياتي زيف في زيف.

٦

يسمع خُليف الچايچي ويغور طبقة أخرى في جوف الأرض، وبين أدوات الشاي والعدّة يطالع وجهين دميمي الخلقه يكشران أمامه، فيذوب مثل السمن على النار، ويتحد الوجهان على هيئة غيب، يتقصاه حتى مبدئه في الآفاق النائية فيستشرف كثبان رمل أحمر تنصهر ذراتها في طيات زوبعة مكتسحة، وتجيئه، ويشاهد سيولاً دموية آتية من بُعد، حاملةً معها الموت له وحده. ويسمع صوت سَفاني. . . ليس بعدُ، صوتاً بشرياً، بل كالهاتف ينصب عليه من سابع سماء ينذره بالويل واللعنة. . سَفاني نبي السخط. . نبي اللعنة. . الشيطان. . هو الشيطان سفاني وليس غيره. . ورآه بمخيلته المبرحة المكدودة منجرفاً مع تيارات المجهول في بحار الدم. وينزف الاثنان. نبع الدم يفجره على كتفه، وعين النار تتفتق بمجرد أن يفتح فاه. وتلاشى قدامه المنظر الأحمر. غَرَق وحريق لي. . جزائي. . قد ربيتك وأطعمتك وعلمتك، وْهايي تالِيها. . تْوِقِّعْني تِسْعَة بأسْوَد[٩٩]. وماذا سأقول لو سألوني عنك هناك، في الجب الذي لا مخرج منه؟!. . وكالعادة شاهده. . حروناً، شرساً، يقذف فمه حمماً كالبركان.

---

(٩٩) وهكذا النتيجة؟ تلقي بي في داخية دهياء؟

ـ أتعَلَّم واشْتَغِل عِندَك بالچيخانَة. انا ما أوْقَع تَبَل على أحَدْ. ما اغيد غدا تْعِيِّغْني وِتْقِلّي أنا غِبيّتوك[١٠٠].

كان أخي الأصغَر. يتيماً من أمه وأبيه. وشقيقاته تزوجن من قبل أن يبلغن سن الرشد.

ـ لَكْ مِجنون انْتَه؟.. انا اخوك الِكْبيغ وْمِثِل أبوك.. قابِل افِرَّكْ بالدَّغْب؟[١٠١].

لم يرضه شيء أبداً. كان وكأن مصارينه أبداً تقتتل داخل جوفه. كان مخلوقاً في عالم لم يخلق له. كان ناراً في سيماء بشر، ويريد أن يحرق العالم:

ـ غَلَط.. غَلَط.. كِل شِي غَلَط.

ـ وانْتَه قَتْغيدِ اتْعِدّلا للدُّني؟

ـ الأوادِم عِمْيين وْلازِم يْفَتْحون.. لازِم يْعايْنون اَشَ اكو قِدّامِم[١٠٢].

ـ اسْمَع دَقِلّك.. وْلَك اسْمَع كِلْمِتي وِقْعِد بِالْبيت، كِلْ واشْغَب وِتْوَنَّس وِتْعَلَّمْ وْسيغ مُحامي.. لَكْ أنا قَدَغيد اشيل الْغاس بيك. على ويش قَتْغيد تِتْبَهْدَل بالچيخانة؟.. لَكْ هايي مَ مالَك[١٠٣].

سخر مني، ابن المومس:

---

(١٠٠) أتعلّم وأعمل عندك بالمقهى. أنا لا أرغب بأن أكون عالة على أحد، لا أريد أن تعيرني غداً بقولك لقد ربيتك.

(١٠١) أمجنون أنت؟ إني أخوك الأكبر وبمثابة أبيك أفيعقل أن ألقي بك إلى الشارع؟

(١٠٢) الناس عميان ويجب أن يبصروا.. لا بدَّ أن يروا ماذا يحدث حذو أعينهم.

(١٠٣) خذ بنصيحتي وامكث بالبيت، كل واشرب وتمتع وتعلم وأصبح محامياً فأنا أريد أن أرفع رأسي بك فلماذا تريد أن تبهدل نفسك هنا بالمقهى. هذا لا يلائمك.

ـ وِتْأمِن اتْخلِّيني ابَّحْدي ويّا دوريس؟[١٠٤]

شعرت بإهانة، بل بمسبة لكني تمالكت نفسي، وهتفت بتراخي الحائر في أمره، ألساقط بين البين.

ـ لَكِ الْجِمو وْلَتْلَغْوِص. . مَ عيب هذا الْحَكي؟. . غيغ مِثِل إخْتَك؟![١٠٥].

ظل يضحك. كان كمن حاول أن يشحنني بالشك. «مِنْ هَالْجِهَة كِنْتو امْأمِنْ بينو»[١٠٦]، فمثله لن يفعلها حتى لو قطعت أوصاله إرباً، كان شيطاناً عفيفاً ونبيلاً. كان حريقاً منصباً على كل ما في الكون. لم يقنع في حرق ذاته فحسب، كان يهفو إلى أن يضرم معه كل الأشياء. وأنا أزرع في دجلة بستان ورود، يبهج القلب ويشرح الصدر وتقر به الأعين.

قَلَب سفاني صفحةً، وأجّل الحسبة. رحمة قصيرة منَّ علي بها بالصمت المشبوب. العميان كثيرون. أجل إني أخوه وأقرب الناس إليه، لكنه كان يزعم ألاَ فرق في الإنسانية بين قريب وبعيد. نذل ويزيد إبليس أقّة. . عاصفة هوجاء لَتْخَلّي وْلاَ تْبَقّي. . . اليقظة!. . . ويحك. . دع الناس على نياتهم يرزقون!

ـ أشْلُون أخِلّيهم؟ مَ كِلْ ويحد بيهِم مِثِلْ طيغ الأعمى[١٠٧].

كلماته كالكاظم تشفي عيون العميان[١٠٨]. . خراب بيوت!. .

---

(١٠٤) أوتأمن أن تبقيني وحدي مع دوريس؟

(١٠٥) إخرس ولا تهذي أفلا تخجل من قولك هذا، أليست كشقيقتك؟

(١٠٦) بينو: به.

(١٠٧) كيف أتركهم وكل منهم أشبه بالطير الأعمى؟

(١٠٨) الإمام الكاظم زعموا يوماً أنه يشفي العميان فتهافت على ضريحه العميان زرافات، ولم يشف أحد منهم.

إنه يحمل فأسه ويهدم بعقول المخلوقات.. تاجر، رأسماله كلمات ملتهبة، ويستدرج الناس إلى الإقبال عليها وشرائها بالثمن الباهظ، ويدس فيها السم، ومع السم يلقي بالمعول.. ويزدحمون عليها كالحلوى، ثم يجدون أنفسهم بين الأنقاض.

- اقْعِد بِالْبيت احسن لَك.

- خير!.. لُو اَشْتغِل وِيّاك، لُو بَعَد ما تْعايِنّي[109]

سلس هذا التهديد على طرف لسانه.. ككل الكلمات.. «بَعَد مَ تْعاينّي!».. هذا «الصوت» في رأسك لم يهدأ حتى أطلقتَهُ، ونفذت وعيدك.. فهل ارتحت الآن يابن الألمانة؟[110] أفحسبت ماذا سيؤول إليه مصير أخيك.

- وْهايي اَش يْفِلَّه؟!.. إذا كِلْما مَ يِعْجِبَك شين تْهدِّدْني.. شِيل هَالْحَسْبة مِنْ مِخَّك.. وْاشْ مَ تْغيد اتْسَوّي، سَوّي.. بَلاكِتْ عاين قَدَاقِلّك.. ما اغيد تْسِوّيلي طْلايب ويَّا الِمْعامِيل. قَيّجون يْشِغْبون اسْتيكان چاي ويقومون يِوِلّون، بَقَى لا تْشِوِّشْلِم مِخّم بْهايي الِمْكِسْغات مالك وْتِشْعِلا للدِني[111].

كنت أعلم بأني أنفخ في قربة مخرومة.. لست بحاجة إلى عقله كي أدرك أني ألقي كلماتي في أذن سفاني الواحدة لتخرج من أذنه

---

(١٠٩) خير، أبداً.

(١١٠) الأرملة.

(١١١) وما نهاية هذا؟ إن كنت تهددني كلما لم يرق شيء لك، إنزع ذلك من رأسك وافعل ما تراه ولكن إسمع ما أقوله لك. لا أريد مشاكل مع الزبائن. إنهم يأتون لشرب قدح شاي وينصرفون فلا تربك لهم عقولهم بسفاسفك وتثير بها العالم.

الأخرى. . سفاني لِنْغاسو بْغَاسو(١١٢)، فكيف يلين هذا الرأس وهو أشد عناداً من رأس حمار الحجّي وحمار بابا ليوي وحمار متانة سْپِر مجتمعين؟ وبيديه هذا السيف الباتر من الوعيد، وما زال يلوّح به فلم يبرح حتى أسقَطه في ضربة قتّالة قطعت الرأس وأصابت عصفور الروح. إن الفتنة حلّت مع ابن الشيطان. أطلقت العيارات النارية كلماته المسعورة. كلمات من دنيا أخرى استوردها للدنيا هذه، التي اخطأت الأقدار فألقته بين ظهرانيها. وإذا بي أرى آذانهم الراقدة منتصبة مرهفة تتنصت. أعلم بأنها لن تبني مدينة. أخشى من يوم يأتي فيباغتها بالزلزال ويحيلها تل خراب. . إلاّ أن عقلي لا يدركها. . كيف سكت أولاء عليه؟. . كيف ظَلّ اينّوِلّمْ وْسيكْتين(١١٣)؟!. . كيف لم ينفد صبرهم يوماً فلم يجتمعوا عليه بالصفع والضرب والركل والتنديد؟!. لماذا لم يحتجوا يوماً عليه قائلين «لَتْدِوّْخنا بابا، خِلّينا نْعيش على نيّاتْنا» بل والأغرب من هذا، قد عشقوه، ولسوء حظي دخل أنفسهم وانعجن بضمائرهم فأحبوه حب عبادة. وَلم يبق أحد منهم إلا وتساءل «وينو سَفاني؟!».

حسناً إذن. سأشرب من دمك الرجس الأسود، بمجرد أن «أغْثى بيك»(١١٤).

---

(١١٢) أي عنيد لا يزحزح شيء ما في رأسه.

(١١٣) مكث يوحي لهم، وهم صامتون مستكينون.

(١١٤) أجدك واقتنصك.

٧

كانوا ينتظرونه وهو يخفي ذاته عن أعينهم بعناد لا تهاود فيه. هو ليس شيطاناً كما يدعوه أخوه، في السر. كان خْليف يكتم أسراراً، لكل منها شدق مفتوح، وبداخلها أخطار تتوعده بفتاء مبرم، ولو فتح فاه وجاهر بسر من تلك الأسرار، فإن الهوة ستبتلعه في الحال. ولو رفع صوته ونادى أن سفاني شيطان، للاقى مصرعه بعد أن ينقضوا عليه جميعاً في سورة غضب مندفع أهوج. فسفاني ملاك، وهم يريدونه فيريدون تميمة يهرب منها شيطانهم الآخر. وكان هذا شيطاناً فظاً يتلبس أرواح الأحياء ويقطن الأجساد المجبولة من الطين، وكان الحجّي حمزة العاقول، في شبه غيبوبته الإدراكية، يقتنص هذا الشيطان بمجاهل ذاته، وبشبه موت وعيه، يوجس بنبضة حياة محتضرة ما فتئت مختلجة بين جنبيه، إلاّ أن تلك الخلجة المحتضرة كانت تفعمه شكاً بالأشياء وتسمر عينيه، مع أعين صحبه، بالكف الدموية المفتوحة في قلب طاولة المقهى، فتتلبس فيها الكف الدموية الأخرى التي شاهدها ساعة التبس المنطق والتبس الوقت والتبس شبح إبليس، والتبس الميت والحي، فنطق الموت ووجم الحي وقال الميت الصِدْق وافترت على أنفسها حيوات تجلس بجواره ساهمة راكنة الرأس. أفيشك بحياته بابا ليوي ويجزم بموته مِتّانة

سپير، ويغيب سفاني في صمت مطبق يبتلع معه الصوت الصاخب في أحوَج ساعة لجلجلته التي تحسم بين ضوء الشمس وعتمة الليل؟!.. ويقوم عزوري من قبره ويتحدث بنبرات طنانة يخزي بها هذا الشيطان النذل الخائب وهو يسلط عليه النور ليبديه في عريه وعوراته؟!.. كان الحجّي الآن يراه بوضوح. يجلس ويطأطئ الرأس معه على طاولة دكان الشاي. وكان ينهال عليه بنعاله وهو يلعنه آلاف اللعنات ويدينه ويحمّله التبعة، وأصابعه مجتمعة ومنحنية ومعقوفة ترسم في أعماقه علامة سؤال كبرى خلف منعطفات حياته وخباياها ومجاهلها. أفحقا؟!.. وِشْلون ثْوازيني؟!.. ولماذا يعرف بابا ليوي نصف الأشياء ومتانة سپير لا يدري شيئاً أبداً حين لا يجد إلاّ الموت فيلصقه بقامته هذه الفارعة كتوثيّة[١١٥] هائلة تحجب كل الدنيا؟!.. إني ألطّ[١١٦] الشيطان بنعالي.. أريد أطَلِّع كل سَمّي بِيه. لَكن إفادة؟![١١٧] فأَنا أدرى بما أدريه.. أدري ما لو دراه العبد چان شَگ ثُوبَهْ[١١٨]. أدري ما يجعلني أجهل كل ما يدريه الناس..

«لَكِ شْلون ثْوازيني؟!..».

كانت تقديرات بابا ليوي تطيش مرة أخرى في فترة ربما لم تتخطَّ الثانيتين. فالزمن المتجمد الثابت، القابع في بؤرة سقوط أقنعة المنطق كان يسيل في «دورة دموية» لا يعرف عنها بابا ليوي شيئاً لكنها رغماً عنه تتواتر في أدمغة من يعرفهم ومن لا يعرفهم من خلق اللَّه.. دورة زمنية تتحرك في فوضى.. صعوداً وهبوطاً، ولأمام

---

(١١٥) التوثية، شجرة التوت.

(١١٦) لط: ضرب، وهي فصحى.

(١١٧) أريد أن أفرغ غلي فيه ولكن ما الفائدة؟

(١١٨) جزء من مثل، يقول لو درى العبد بما هو خافٍ لشق ثيابه جزعاً ودهشة.

ووراء، وتمضي نحو الماضي بصواريخ مخروطية وهمية، مختلفة الأهداف والسرعة، تحتضن الأيام وتحط حيث تشاء، وتقفز كالجندب قفزات غير متسقة، طويلة وقصيرة، ويساراً ويميناً، لا يردعها حاجز، لا تتقيد بنظام، تمخر أعماق أبحر الدهشة، تبحر نحو منطلق همسات الشيطان، نحو مصدر الوسواس الخناس، نحو مأساة الإنسان، في حرية مارقة نحو الأكبال والعجز والمعجزة والحمق والحكمة والرغبة، نحو أحضان عِنّة الدنيا واللامدروك.

كان صاروخ الحاج حمزة الزمني الخاص يقتلعه من غمرة نزاعه وعراكه مع الشيطان ويلقيه في عصر يوم الجمعة الفائت فوق تخت في إيوان داره. ويجبره على أن يحيا تلك اللحظات ألف مرة ومليون مرة وهو ممتثل كحماره، ومن دون إرادة، ولعله بإرادة خفية وحديدية، يتعاون مع أبغض جزء من ماضيه الطازج، هذا الفخ الأوحد في نوعه، المشحون غرابة، الذي، طُعمه مصنوع من محض جنون، وجريمة متعددة الأوجه، ومضاعفة الأهداف وبأرجل كأرجل السبعة وسبعين، كل منها مدية ناشبة في روح من أرواح الأشياء. وهي كل حياته، ويعيشها في الحاضر والمستقبل بالإكراه، وبعذاب وصبابة العاشق الولهان، وبلهفة المجرم المستترة المشدودة إلى موضع ارتكاب الجرم. وهو الجاني وهو المجني عليه.. وهناك بِرَهاوَة(١١٩) فوق التخت بالليوان.. عصر الجمعة.. بعد الحمام.. منتعشاً متنفس الصعداء يرفل بصايته الجديدة الفخمة، وَعَرَقْچينه الأبيض المغسول، يتوج رأسه كعرف الديك. وكالعادة، ليس يراوده الشك فيما هو آت، لا يخشى المستقبل، لا يرهب وسواس

---

(١١٩) بحبوحة.

الشيطان، والاطمئنان قد أمسى عادة، فمحال أن يرقى لخلده أن دمه سوف يسفك وصوابه المسفوح من عقله سيكون هو حتفه، هيهات.. فأجراس السبت تدق، وما دام عزوري شريكه، فهو في نعمة.. فضلاً عن أن السبت سبات.. وحتى دكان الشاي مغلق. وما دام عزوري يحتبس في بيته حتى إشراقة صبح الأحد القادم، فقد اعتاد أن يفعل مثله، وتعود أيضاً، أن يقطع رجله عن مقهى كان قديماً يتسلى فيه، بل كف حتى عن أن يخرج للدرب، ليبدد فيها، وقد كان يطويها دون هدف، خمول أعضائه المعتادة على الحركة. ويوماً استنجد بشريكه ليسعفه بطريقة إمضاء عطلة السبت، هذه المديدة كعمر الإنسان. قال عزوري له:

ـ ليش اشْ عَبَالَك، الآدْمي مكينه؟!.. حَتّى الْمَكينَة هَم اتْبَطّلْ لِخاطِر ترتاح. جِرْلك نَفَس شْوية، واگْعُد وِيّا الجهّال وامْهُم. مَ يْكَفّي مَ دَتْشوفهُم طول الاسْبوع؟!..[120].

جرب، فاكتشف أن أم أولاده ترحب به في شغف لا عهد له به. وتهللت طلعتها العابسة طوال الأسبوع وبشّت، وتحلقه أبناؤه كالهالة، فكان يلاعبهم ويلاعبها، وهي لا تنفك تردد عصر كل جمعة وصباح كل سبت:

ـ خَلْفَ اللّه على الطَّلَّعْ هذا السَبِت، لُو ما هُوّه وْلُوما مْشارِك يْهودي لاچان شِفِتْنا ولا چان شِفْناك بالسَّنَه مرة[121].

يبتسم الحجي بسمة منتفشة حبلى بالمغزى. بقوة، وبطاقة

---

(١٢٠) أتظن الإنسان ماكنة بل حتى الماكنة تتوقف لتسترتيح. فالتقط أنفاسك وأمكث مع الأولاد وأمهم أفلا يكفي أنك لا تراهم الأسبوع بطوله؟

(١٢١) جزى اللّه من ابتدع السبت فلولاه ولولا شريكك لما رأيناك مرة بالعام.

غضة وطَرية يجدد يوم السبت عهد الزوجية، ويعيد أبوته شبه المنسية إلى ذاكرة الأولاد، ويحصي دخل الأسبوع فيراه يتزايد من جمعة لجمعة، ويقبّل ظاهر كفه وباطنها ويتمتم «الحمد للَّه والْشُكُرْ.. الحمد للَّه والشكر»، ويلقي بنظرته الراضية المرضية إلى الطّولة، إثر نهيق تناهى إليه منها وإذا بحميره تأكل وتبربع وتتحكك بالأرض وتتمرغ فيها بهناءة، فيقول لنفسه بهناءة تضاهي هناءة حميره «حَتى الزْمايل هَمْ دتجر نَفَس»(١٢٢) لكنه يتحسر فجأة «بَلاكِت ناقصْهُم زْمالة.. يعني بس احْنا أوادم واللَّه خالِقنا؟.. لَعَد هَذولَه المساكين مو اللَّه خالِقهم»؟!..(١٢٣). أجل.. الحمارة.. الحساوية البيضاء الحسناء!.. آه لو وافق شريكي عزوري.. «اللَّه لا يْواخْذَه.. بس لو ما مَيّتِ گبور، چان يْكون ذهب طاهر. لكن اشْ بيدَه. اللَّه مِبْتِليه بْهالِمَرض المالَه كُل چارَهِ»(١٢٤) في يوم الجمعة الفائت، في العصر، وهو يتربع فوق التخت في الإيوان، مستحم منتعش ومزوق، ويحس بأنه ملك يجلس فوق العرش، قانع وسعيد لكن جزءاً من عقله مسروق منه ويحَسّب عالْزْمالة. هاج وماج العالم. الدنيا فجأة ضربت المسمار في رأسه. ضج عقله الرائق الصافي، وعلى غير توقع، بأصداء صراخ وعياط تنبئ، بيقين، بموت ميت.. كانت قادمة من آخر الدربونة.. قريبة. كش لها بدن الحجّي وانتصب بعد أن قفز من فوق التخت. زاغت عيناه وخواطره

---

(١٢٢) حتى الحمير تلتقط أنفاسها.

(١٢٣) إنما تنقصهم أنثى أفنحن فقط بشر خلقهم اللّه إذ من خلق هؤلاء المساكين غيره؟

(١٢٤) لو لم يكن بخيلاً فقط لكان كالذهب الخالص ولكن ما حيلته وقد ابتلاه اللّه بهذا المرض العضال؟

نحو مهب ريح أصوات المأتم. هناك بنهاية الزقاق بيت شريكه، ولأول مرة في عمره هبط لسانه من فمه وتقمص أصابعه العشر، ولأول مرة أيضاً لعلعت سبابته وأصبعه الوسطى بتساؤل «منذا؟!.. أويعقل أن الأصوات قادمة من بيت عزوري؟!.. لم تمض ساعتان منذ كان معه وتحاسبا وِگلّي بِقَى عَلّيا دِرْهِم هَسّه انْطِيّاك يوم الأحَّد مْنِ الصُبُح.. يقيناً ليس هو الميت.. فمن إذن، أيعقل أنها امرأته أو أحد أبنائه؟!.. أشو لَعَد مَ گلِّي عِنْدي بالبيت واحد وَجْعان؟!»[125] وأصابعه أعوجت باستغراب وتلومه. إذ كيف يخطر ما يخطر له الآن، وأصوات الشؤم ما انفكت تضرب روحه كالزلزال، وكيف يجرؤ أن يقبل فكرة، أن أجراس الموت إنما تدق ببيت شريكه وحبيبه؟!.. وهناك في آخر الدربونة بيوت أخرى.. بيت الحفّافة.. ومنزل أبو الطابوق.. ودار السقاء المتقاعد.. وأخلاط بشرية أشْكال وألْوان يجمعه بها سلامُ وصَباح.. فلماذا إذن اختار بيت أقرب الناس إليه بعد زعاطيطه وحرمته؟.. لا.. لا لَتْطَوّخها المسائل[126]، فرجيم الشيطان ويحاول أن يلقي الروع في قلبك. أبداً لم يعتد الحجي أن يهبط في أعماق ذاته مثل هبوط بابا ليوي في أعماق الحفر الطافحة بالِسْيان. كان نقي الصفحة.. شفاف «ماء» النفس. وأحاسيسه من صنع مادة ذات خاصية عوامة ومحال أن ترسو في القاع. وكان هلعه، وهو يصيبه بالرعشة في أطرافه ويسمر شعره وينفث الثلج بقلبه ومصارينه، مع تناهي الصرخات، يوضح له أن ذاته ما عتمت ناصعة ونقية كسرواله الخام المغسول

---

(١٢٥) لماذا لم يقل لي إذن بأن ثمة مريضاً عندي بالبيت؟

(١٢٦) أي لا تضخم الأمور.

عشرة أقمام، وأن تحويم بومه الفكري حول حوش حبيبه وشريكه إن هو إلاّ بيّنة ساطعة كالضوء الكشاف المسلط على إخلاصه لعزوري، وإذن فليخسأ الشيطان. . أفلا يدري الشيطان أن الإنسان يخشى أول ما يخشاه على أصحابه وأحبائه؟! . . إن الشيطان يحوّر ويزوّر ويزيف النيّات «هَسّه الملعون دَيْريد ايلفْني بوسواسه والطاوَة مَخْروگه»[١٢٧] ولطمته صرخة يابو[١٢٨]، وهو يحاور نفسه، فانتهر ذاته في عنف «لَكِ تْحَرّك. لا توگف مِثْل الصَّنَم». . بيد أن جفوله كان أقوى من كل هتافات نفسه فيه، متخشب في موضعه قرب التخت، يستغرب كيف أن هذا الطول وهذا العرض ينهزمان في أول امتحان. كان جباناً وعديم الحيلة بإزاء المجهول، والبومة ماضية تنعق في وجهه فتتراخى لها رجولته الجبارة وتذوب خدعة العمر داخل رأسه كقطعة قَنْد[١٢٩] هشة في فنجان شاي تخوط فيه ملعقة صدئة دون هوادة. في هذه الورطة المستعضلة الجبارة ألفى الحاج حمزة العاقول ذاته في وضع لا يحسد عليه عدو. فجأة، في مستهل عطلته وراحته وصفائه، وهو مفتون بالاحساس الطاغي الغامره من رأسه حتى كعبه، الجاعلهُ ملكاً متربعاً على تخته ويحكم رعيته بالأمر والنهي، وهو ينحرف أحياناً عن نشوته منجذباً إلى نهقة حمار متحسرة تنعى الحرمان، فيشط بخياله في خط مستقيم إلى سوق الغَزِل، ويفكر بالحمارة الحسّاوية الفاتنة البيضاء، وإذا بالصوت المشؤوم يخترق كل ما اعتاده فيثقب أحشاءه غيب لم يحسب

---

(١٢٧) الآن يريد اللعين الشيطان أن يخدعني بوسواسه، حين احترقت المقلاة، وهذا تعبير عن وقوع حادث جلل.

(١٢٨) يابو، ما يصوتون به على الميت.

(١٢٩) القند، هو السكر المعقود، وتخوط، تحركه.

حسابه، ويحيل جوفه ميدان معركة قذرة يصطرع فيها الملك المختال مع رجل خنثى جزع ومرتعد الفرائص والأوصال ثم خلافاً لجميع نبواءت العقل والمنطق، ترجح كفة هذا الخنثى فيه، وحيث تقوم القيامة في آخر الحي، يتعرف الحجي على حقيقة نفسه. كان الآن مجرد واوٍ(١٣٠) لكنه في قن دجاج.. كان في بيته، وكان يتداعى في نهقات البوم، والغيب المعلن عن نفسه كالوباء الجارف، ينثر في بدنه خدراً كالموت، ويريد أن يهرب.. ويحاول أن يقدم.. عجباً ماذا حدث في بيت عزوري؟! ولماذا في بيت عزوري بالذات... وألسنته العشرة تلعلع حتى يكتشف أنه محصور بين أبناء عشرة يلتفّون من حوله، وعيون تقطر رعباً وتتعلق في أذياله طالبة المأوى الآمن.

قام برحلة عجولة مضطربة على مدار الحلقة. رحلة خاطفة حول العالم المجهول. في وسط العالم كانت ابنته «عَنّوده» رقيقة كقلبه في هذه الساعة، وفزعة من كل الأشياء، لكنها ترمقه برثاء غامض. وقال لعنّوده:

ـ بْنتي. اشو إنْتي هَمْ واگفة؟!.. يلله.. سَويّها طَفْرة لْبيت عِزّوري وشوفي شَكو. يلله حَبّابة.. أريد اتْجيبيلي القضية بأبْرتْها وِبْخيطْها(١٣١).

ولم يدر كيف ذهبت عنودة وعادت في غمضة عين. كان جنانه يصطفق تحت ضلوعه وعنودة تعدو إليه.. حافية مكشوفة الرأس..

---

(١٣٠) ابن آوى.

(١٣١) لماذا تقفين أنت كذلك؟.. سارعي لمنزل عزوري في قفزة واحدة وتبيني الأمر. أريدك أن تأتيني بالقضية بكل حذافيرها.

يسبق رأسها هذا، قدميها.. وصوتها يسبق قدميها ورأسها وكل ما بها من أشياء:

ـ يابْ!.. يابْ!.. يگولون عِزوري شْريكك انْطاك عِمْرَه[١٣٢].

همد العصفور في صدره برهة ثم عاد يخبط. كانت ألسنته العشرة تثرثر في كفيه وتعربد وتجادل بعضها بعضاً. طار الشك والوسواس والجبن والإقدام ولم يبق لسؤال معنى. حتى الدهشة تلاشت بسماء اللامفهوم. وألفى الحجي ذاته مربوطاً من عنقه بطوق متصل بزمام تسحبه عفوية ما لم يبق من أشياء. تلقائية الإنسان القهرية في كون لا جدوى فيه لوعي أو فكر أو إدراك. وكان الخيط يقوده، وبسرعة إلى بيت شريكه المغدور، لكنه وبومضة عقل منسلة إليه من خلف كل الأشياء الممسوحة وبشبه خرافة، حرن لحظة عند الباب، ليوصي من في البيت بالإسراع في كسر الحِبْ[١٣٣]، فالومضة العقلية الخاطفة الأسطورية تلك كانت كافية لرسم صورة عزرائيل بمخليته. ها قد قام الوغد الأعور بزيارة لا متوقعة وقصيرة للدربونة، ثم وهو يعود، غسل كالعادة سكينه الملطخة بدم عزوري، بماء الحب، ورغم غياب المنطق، فإن الحجي أيقن، بأن عزرائيل لا يغسل سكينه إلاّ في حِب أَقرب الناس لضحيته المغدورة، وهذا هو حجي حمزة العاقول بذاته...

كانت تسحبه الرَشّمَه[١٣٤] بيد مستترة فظة ممتنعة عن كل

---

(١٣٢) أبي.. يقولون إن عزوري قد أعطاك عمره، أي مات.

(١٣٣) الحب هو الزير الكبير.

(١٣٤) الرشمة، زمام البهيمة.

الأبصار. عن عين بابا ليوي الشرحاء، بل حتى عن عين صقر مجلية ذات قوة إبصار تعادل قوة ألف حصان.. تسحبه وهو عاثر مسلوب الحول ويردد «لا حول ولا قوة إلاّ باللّه»، تلقيه بذهوله في معمعة المأتم، مأتم مرفوض من أصله. لا معقول. ولولا أنه شرع يفقد عقله منذ اصطفق بدماغه أول أصوات الشؤم، وأنه ظل يفقده باستمرار وكأنه نزف من جرح مفتوح حتى فرغ منه تماماً، بعد يومين، حين ألفى نفسه فوق أعلى قمة كابوسيّة يلفعها الواقع المتبخر المتشكل جواداً وهمياً وجموحاً، أو يتقمص الوهم المحكم شكل حقيقة صلبة مقدودة من حَجَر يرسخ في عالم الجن والحن، لولا هذا لأقسم الحجي باللّه ثلاثاً ولحلف بالطلاق ثلاثاً على أنه كان محتفظاً بفتاة عقل خبأها في أقصى غياهبه النفسية، وتعلله بالأمل المنشود في أن يدخل دار شريكه فيراه كالعادة يجلس مثله على تخت بالإيوان، بزبونه الزري وعباءته الشعري والعرقچين المقصّب، وبالحياصة الفضّية[١٣٥]، والقندرة الصفراء الأفرنجية، بهذا كله وهو يتأهب للتوراة[١٣٦] قبل ساعات، ثم يظل يحث الساعة على أن تسرع حتى يفرغ صبره فيهاجمها باللعنات وبالكفر، فهو يستعجل أن يلتف الوقت ويلتم الناس في التوراة ليمضي إليهم في استعراض فخم يلفت الأنظار ويثير الإعجاب، ثم يعود متخماً بإشادة الخلق بكرمه، ويؤكد أن شفاه الناس انشغلت عن تسبيح الخالق، إذ عدلت إليه تطريه وتعدد مناقبه الجمة، وهي مبهورة بخلقه مسحورة بسخائه وليخسأ

---

(١٣٥) الزبون، الجلباب، والزر، نوع من القماش الفاخر المذهب؛ وكذلك الشعري، صوف فاخر، والعرقجين، الطاقية، والحياصة، نوع من الأحزمة، فيها جيب توضع فيه النقود.

(١٣٦) التوراة، الكنيس.

كل من قال عنه إنه، بخيل وشحيح.

بيد أن الحجي لم يحظ برؤية هذا المشهد. كان شريكه مسجى فوق المغيسل. جثة يدلكها الغسّالون، وتندبها العدادات، والنسوة تروح وتجيء، تلطم وتخمش الأوجه وتشق الأثواب وتزعق. والأطفال مثل كلاب وتولول، وفي البيت جلبة، وهو يقف في قلب الجلبة مشدوهاً.. مثل شمعة الفقر، فمه ملجم بلجام من فولاذ، وأعضاؤه مربوطة بحبال من صلب. منهوباً ومخبأ في عب مارد لص حذر وحريص.. لا يدري من ذا يسحبه من أزياقه، لا يعلم من أين يأتيه الصوت الصاعق المسحوب من حنجرة امرأة تنعى أمامه:

ـ تَعال حجّي.. تعال شوف شْريكك.. راح!.. اخْذوه العزّوري مِنّي.. فِدْوَة أروحْلَك حَجّي.. گبل نِص ساعة چان مِثْل الدّيوْ. گاعِد وْدَيْسولِف وْيضّحك.. اشو انْتچا وْذيچ التَجوَة.. فِدْوَة حجّي.. شْلون مْصيبة هاذي؟!.. لا بالبال ولا بالخيال.. هيچي يذبّ وِلده ويْخلّيني ويروح.. حَتى مَ يِنْطي خبر ولا يْوصّي.. آخِر مَ يْگول آني حرمة ومْا عِنْدي أحّد وْهذَولَه الولِد زَعاطيط، فِدْوَه اروحلك حجي.. لَعَد الدنيا هالشّكل؟.. إشْ راح اسَوّي.. دَبّرني انتَ أبو الْهَلّه والرَحَم[١٣٧].

كان يتململ داخل قيود الصلب ويحاول أن يقضم كمامة فمه الفولاذية، ويريد أن يشحن رأسه الخاوي، بالعقل. هو.. من كان

---

(١٣٧) .. جعلت فداؤك.. لم تمضِ نصف ساعة حين كان كالمارد، جالساً يتحدث ويضحك.. فإذا به يتكئ ولا يقوم من اتكائه ذاك.. أهكذا يترك أولاده ويتركني ويمضي بدون إنذار أو وصية. أفلا يقول لنفسه بأني حرمه لا أحد لي والأولاد صغار. أهكذا الدنيا إذن؟ ماذا سأفعل قل لي أنت يا صاحب المروءة والرحمة؟

في تلك الساعة بحاجة إلى من يأوي إليه ليعينه، حتى أحوج من أرملة الغفلة زوجة عزوري التعسة، بيد أن العون الإنساني بات ككل الأشياء خرافة، وحتى سفاني الذي كان يبدو وكأنه لا يستعصي عليه مشكل، لم يخطر في باله. كان من السخف على إنسان أن يبحث عن إنسان آخر من صنفه ونوعه ليستنجد به على اللّه وما كتب اللّه. اللهم لا حول ولا قوة إلا بك. لكن لا تؤاخذني.. تَرَى عِنْدك كل دَكّة مَ تْعادِلْها كل دَكّات لوتِيّة بغْدَاد وْهِتْلِيّتْها وسَخْتَچِيّتْها.. اتطَيّر العقل مِنْ الرّاس[١٣٨].

«لا تؤاخذني!».. صامت.. أخرس. يسمعها من جوف جمجمته المنخورة، وتطنّ في أذنيه ـ لا تْواخِذْني حَجّي.. لا تواخذني.. مَ ظَلّ عِدْنا رايْ.. وَاشْ وَكِتْ سوّاها؟!.. گبِل مَ يْخشّ السَبت بساعِتين. هَسّه دَنْريد إنْخَلِصْله شُغْلَه بِالْعَجَل گبِل مَا يْطُبّ السَبِت وْتْنِدِفِع الدَفْنه[١٣٩].

في صمته المطبق وخموده انقاد مع «رشْمَة» الأشياء المحروقة.. وكحماره الأبكم انساق بمهب الريح، مع زفة الأموات.. فوق الجدَث المحفور.. لَشّة[١٤٠] عزوري شقيق الروح تهبط إلى القبر.. تلتحف ألف لحاف من تربة الدنيا الفانية الملعونة.. عدّادات تختصر الندب، تستعجلها الساعات النزرة المتبقية على حلول السبت المُدخل للبهجة إلى صدور بعض عباد

---

(١٣٨) مقالبك لا تعادلها مقالب شطار بغداد ومحتاليها.

(١٣٩) لم يبقَ رأي برؤوسنا، ولم يمت إلاّ حين لم يبقَ على السبت غير ساعتين، والآن نسعى لأن ننتهي من طقوس دفنه قبل حلول السبت (حيث تحظر هذه الطقوس).

(١٤٠) اللشّة: الجثة والجسد.

اللّه، الذين كان عزوري أحدهم. تراتيل ترددها جوقة رجال، لا يفهم لها معنى إلاّ بكلمة «آمين» وكالنائم يرجع مع حشد دفن حبيبه ثم عاد نافض اليد منه.. تسحبه الرشمة.. وأصابعه العشر تلهج دون هوادة بكلام مبهم كتراتيل الجمع فوق قصر شريكه المتواضع، وهو يتخذ موضعه الثابت في بلدة الأموات.. قبل قليل.

في حاله هذه المكنوسة من كل خلجة حيوية، والمرشوشة بالبنج الصاعق، والمغمورة، رغم هذا كله، بقمامة الإحباط البشري الشالّ لكل إرادة، وجد ثانية نفسه في بيت عزوري، وعيونه الذاهلة تبحث عنه ولسانه المعقود يكاد يُحل ليسأل «لَعَدْ أشو عزوري ماكو؟!»(١٤١) إلاّ أنه مع التيار انطرح على كرسي تحت سقف الإيوان ضمن هرج ومرج حركة دائبة تتمحك بسباته وتدلّك وعيه بإثارة، فترد له رغم أنف الدنيا والأشياء، ربع يقظة، وبربع هذه اليقظة يوقن الحجي حمزة بأن عزوري قد سافر للآخرة محمولاً على أجنحة البرق الخاطف، وأنه في الأرجح قد رافقه في رحلته تلك من دون درايته، رغم جلوسه في هذا الإيوان المصطفة فيه تخوت وكراس، والمكتظ بشخوص بشرية. شاهد أيضاً أفواج رجال من حوله لا يعرفهم، وظل أخرس مثل متانة الجالس الآن بجواره، الغارق في دالْغَة(١٤٢) عميقة الغور، وهو يتقنع بجهامة كثيفة وبحزن يحتلب من عينيه دمعاً ينسل بهدوء وبسرية. وظل كذلك لا ينطق بعد أن أُحصي رجال المأتم، وتبين أن الجمع، وهو معه، قد استكمل عشرة رجال، وظل كذلك لا ينبس أيضاً حتى قدّم له أحدهم مصحف

---

(١٤١) لماذا عزوري غير موجود؟.

(١٤٢) الدالغة: الشرود في الأفكار إلى حد السهو.

الصلوات، فتناوله وفتحه، ومضى يحدق في كلماته العبرية، ويظن بذهوله المستفحل أن أبواب فك الخط قد انفتحت على مصراعيها أمامه، وأنه منذ الآن سيقرأ بطلاقة الكلمات من دون اكتراث بأشكال حروفها، فحتى الآن كانت جميع حروف الدنيا، عبرية ولاتينية وصينية وهندية، بل حتى العربية، سيان. وكاد الحِزّان أن يستهل الصلاة لولا أن زوجة عزوري أحصت الجمع، فما لبثت أن هتفت:

ـ غاح يذْخِل الشِبّات وْبَعَد مَ الْتَمّ عَشْغه. مَ تْشوفولْكِم ويحِدْ مْنِ الدَّغْب[١٤٣].

فقال من أعطى المصحف للحجّي:

ـ حَقْ وياكي. إذا بَعَد عَشْغِ غْجيل مَ قَتْعِغْفين تْحِسْبين.. اللَّه هِوّي يْساعِدِك ويجابِرِك[١٤٤] نسيت مصيبتها برهة في أحضان غضب عاصف، وبعصبية صرخت:

ـ يعني تْحيوَنْتو.. لُو غاح عَقْلي؟!.. مُوتي قَبِل إذا صِدِق بَعَد مَ قَدَعْغِف التِّسْعَة مْنِ الْعَشْغة[١٤٥].

فقال بإصرار:

ـ هَسّه ليش هَالِعْناد؟!.. اشو غِدّي حِسْبيهِم؟!.. تَكْميل عَشْغه.. يلله يا جماعة مَ ظل وَقْت. خَلّي نِسْتَبْدي[١٤٦].

---

(١٤٣) سيحل السبت ولم يجتمع عشرة رجال «وهو العدد المطلوب للصلاة» فابحثوا عن رجل في الطريق.

(١٤٤) الحق معك مصيبتك أعجزتك عن إحصاء عشرة رجال.

(١٤٥) أتعني أني فقدت صوابي؟ خير أن أموت إذن إن كنت حقاً لا أميّز التسعة من العشرة.

(١٤٦) لِمَ العناد؟ أحصيهم ثانية، عشرة بالضبط. لنبدأ الصلاة يا جماعة فقد أدركنا الوقت.

ولكي تتأكد، عادت وألقت نظرة.. ورغم ثلاثة أرباع سبات الحجّي، فإنه بربع يقظته الطارئة المفروضة، يمكنه أن يقسم على أن زوجة المرحوم كادت تضحك حين قالت ـ الحجّي مَ مِخسوب.
دِقومو شوفو ويحد بَقَى[١٤٧].

بيد أنه ظل يمسك بالمصحف ويفر صفحاته، ويشرب كلماته المربّعة اللامفهومة، ويرتع بين مراعيها الكامنة في دنيا خرافية دخلها ثم لم يخرج منها بعد. وظل كذلك والناس من حوله تقوم وتقعد وتضج ثم يعراها صمت الأجداث، ولا تلبث أن تعلو الأصوات ثم في لحظة تغدو همساً، حتى ارْفضّ الجمع من حوله، وهو خامد في موضعه ملتصقة مؤخرته على التخت بشريس[١٤٨] من نوع لا تشلعه قوة فانية بشرية. حقاً. إن ما زحزحه عن ذلك الموضع لم ينجم عن قوة إنسان.. فيقيناً كان الشيطان بجواره يتحين الفرصة ليغزوه.. الشيطان ينبص في كل زمان ومكان. أبداً لا تدري كيف ومتى ومن أين يظهر.. حتى في المأتم.. حتى والناس تلهج باسم اللّه.. حتى في الفجوة الكامنة بين هذا الجزء الأصغر من وعيه المستيقظ والجزء الأكبر من وعيه الغارق بسبات، وهو يعلم بأن زحزحة سباته أمر أشبه بإعادة عزوري لبيته وأرملته وأيتامه وإليه هو بالذات. كان الشيطان موجوداً يتربص. والحجي يطفو ثم يرسو في القيعان. تجذبه الرشمة إلى عالم لا هو بالدنيا ولا بالآخرة. عالم لم يرد ذكره في صحف اللّه المنزلة أو فيما سطره الإنسان ورآه بعين مخيلته الموغلة في الإبداع. وهو يشط بخياله والشيطان يتقرب.. كيف؟!.. بل هذه

---

(١٤٧) ليس الحجي في حساب العشرة، (المصلين) فقوموا وجِدوا أحداً.
(١٤٨) الشريس: الصمغ الذي يصنع من النخالة ومسحوق الزجاج.

الغفلة والسهوة، ملعونة الوالدين، تشيله وتحطه، من ثم في شدق هذا الشيطان.. في لحظة من لحظات الدنيا هذه.. بالأسواق، وببيع وشراء.. بالأخذ والرد واللقمة والدرهم.. وحمير مصبوغة بالجص الأبيض، ترتع في مربطها الآن قرب غرفة نومه، وتنهق نهقات غامضة متحسرة مشتاقة، وبأصوات مشنوقة رقيقة ومفجوعة هي لا ريب صاحبة تلك اليد المتشِلَتهُ من أرض العالم الضائع عن أوهام وأحلام الناس، والموقظة فيه جزءاً آخر من وعيه الغاطّ في نومه:

ـ فِدْوة حجّي.. أخاف لَيْكون تِطُلْبَه فْلوس.. گول.. تَرَى حَرام اتْظِل ابْرِگبْتَه[149].

ـ ها؟!...

لماذا يا ابنة الحلال، تأتين بطاري الدنيا هذه؟!.. في غرة من أمري.. وأنا مسروق.. أعزل، وعار من كل دفاع.. وهي تضعني رغماً عني في أحضان دنيا فاجرة تُنسي الإنسان أباه وأمه.. الدنيا.. هنيهة يمكن فيها أن يتهدم هذا الكون.. هنيهة قصيرة يتلقفني فيها الشيطان.. الموجود بيميني.. ويساري.. وأمامي.. يتحين الفرصة ليهاجم. وأردف مرتبكاً قبل أن يدركه إبليس الملعون:

ـ هذا وَگتْها يا بِتّ الحلال؟!.. بيش إحنا مشغولين هَسَّه؟[150].

فأصرت مدفوعة بإيحاء الرحمن، لا تدري إنها في الواقع تنصر الشيطان، وتغريه بي:

ـ هِيّه على مُودَه.. لُو چان بَعْدَهْ طَيِّبْ، مَ يْخالِف.. تِنْجازون

---

(149) فديتك، أخشى أنه مدين بنقود لك. فأخبرني، إذ حرام أن يبقى الدين في عنقه (بعد مماته).

انتَه ويّاه، بَلاكِت راح حجّي. . راح. . وْلازم كُل واحد ياخذ حَگه، حتى يْنام مِستِريح ابْگبْره[151].

وتراخى لكنه عاد يقول:

ـ دخَلّيها هَسّه. . خوب مو طارَتِ الدّنيا؟!. .[152].

آه لو كان يدري أنها بالفعل قد طارت وتلاشت. كيف أُلقِي في روعه، وهو لم يهبط على أرضها إلاّ منذ لحظة، أنها عادت كما الأول، ومنذا أغواه بحماقة هذا العمر؟!. . كان الرجيم ينشر شبكته. . بالهمس يبدأ، وهي، بإيحاء رباني صادق وعفيف تعين ذام الملعون:

ـ لا حجي. عَلِيك اللّه اذا مَ تْگول. . احْچي لو صُدُگ اتْعِزّه للمرحوم[153].

وارتبك. في نصف ثانية أخذته وطافت به في أرجاء الدنيا. من سوق الغزل، إلى چيخانة خْليف. وحميره تنهق بتوجع مذ صادف الحسناء الحسّاوية. . «خمسة دنانير يا عيني. . خمسة يا عزوري. . فالحمار سيموت بالحسرة. . لقد عشقها». . «لا حجي إنتَ مْخبَّل؟!. . هذه من رابع المستحيلات. أأنا أنفق خمسة دنانير على شراء حمارة، على مُود الِزْمال يتونَّسْ؟ شيلْها من دماغك». . شهر

---

(١٥٠) أوَهَذا وقت ملائم للبحث بالديون، فبماذا نحن منشغلون الآن؟.

(١٥١) إنما لأجله أفعل ذلك، فلو كان ما زال حياً، لهان الأمر ولكنتما تدبرتما الأمر بينكما لكنه رحل وعلى كل أن يأخذ حقه من أجل أن ينام هو مستريحاً بقبره.

(١٥٢) دعي الأمر الآن فالدنيا لم تطر بعد.

(١٥٣) أحلفك باللّه إلا تقول فتكلم إن كنت حقاً تحب المرحوم.

على هذا المنوال.. جدل ونقاش.. حتى في الچيخانة. سَفاني غضب وتدخل:

ـ لَتْخاف منّه حجي. لازم تشْتري الِزْمالة. بالگوة بِالمروَّة لازم تشتريها. وإذا احْتاج الأمر بُوگ مِن عزوري ياخر هِوّة مَ دَيْسْتَهْني بيها.. عَالأقل الِزْمال بِسْتَهْني. خَطيَّه. تُسَوّي ويّاه أكبر أجر(١٥٤).

من باب العدل والإنصاف، وليس من ثقب ينفخ منه إبليس وسواسه. سفاني يقتحم صروح الغش بقوة الحق الفوارة. ويدك أبراج الخطأ البشري في ثورة مكتسحة. ويقوِّم الأعوج في جرأة منزوع ما فيها من رغوة التروي. وعزوري حاضر. يسمع وهو صاغر. يسخر وهو غاضب. تصفعه الأشياء في وجهه، لا تأتيه غدرًا من خلفه.. والآن وهو غائب ميت.. لا يسمع.. لا ينظر.. لا يملك فرصة ليرد. وإبليس يتبجح ويعمل بطلاقة. حين سفاني يغيب، يظهر الشيطان!.. «إذا تِخْوِج بُوگ من عزوري.. ياخر مَ دَيْسْتَهْني منها» يتلقفها إبليس.. يدوّرها ويكوّرها ثم يشحنها طاقة لا تقهر ويدسها في رأسه.. قنبلة صوتية ضوئية.. تصرخ فيه.. «بالْگوة بالمروة».. تسلط حذوه أنوارًا معشية كشافة.. حمارة بيضاء فاتنة تقف ببراءة بين بهائم مصطفة في سوق الغزل.. وحمار يحمل الجص ويحرن فجأة.. وحوافره تدق الأرض. يضرب وحل السوق بجنون.. بعصبية ينهق.. صوت يصرخ «لو تِخْوج بوگ مِنّه».. هيا.. «وْلَك ديخ!».. يعشقها. «مجبور» فيها.. ومجبوراً يمضي.

---

(١٥٤) لا تخشه. يجب أن تشتري الحمارة، طوعاً أو كرهاً يجب أن تشتريها. وإذا تطلب الأمر فأسرق من عزوري، ففي كل الأحوال لا يهنأ عزوري بماله، فليهنأ الحمار على الأقل.. مسكين، ستكسب من ورائه أجراً كبيراً.

الأنوار الكشافة تومض.. وهو يرجع للبيت حزيناً مكتئباً.. حماره.. لا يأكل لا يشرب، بل ينهق وكأنه يعزف لحن جنّاز.. ويعدد كما العدّادات على عزوري.. نصف ثانية في الدنيا هذه.. في قبضة إبليس. ويفجرها.. في الرأس المشحون بعد فراغه.. عاد ممتلئاً بالدنيا.. بالبغلة.. بالرغبة المحظورة.. بلعاب الشيطان.. وعلى لسانه ينطق:

- يعني إلآ؟!.. مَ يْسيرلْها چارَه؟!.. تْحَلْفيني حتى تْجِبْريني اكَلِّج؟!؟!.. زين مَ بِخالِف. اليوم تْحاسَب ويايا المرحوم، وْبُقالي عندَه خَمِس دَنانير. بلاكِتْ واللّه العظيم ما امِدّ إيدي عليها لمّنْ تخلص عِدّة المرحوم[١٥٥].

من فمه خرجت. بعد أن قضمت أسنانه الكمامة وازدردها. كمسبّة خرجت.. مثل بصقة في وجه الخالق.. وحين شاهدها تصفرّ وتحمرّ وتمط شفتيها وتقلّب كفيها، أفلت من شرَك الشيطان، بيد أنه لم يملك شيئاً بعد أن وقع المحذور. ونصف الثانية الأرضية الشيطانية سقطت ثانيةً من بين يديه لكن رجس لسانه كان قد لطخ وجه الكون. تلك كانت لحظة الزلة. لحظة غاب فيها الرحمن فاستأثر أعدى أعدائه بقياد السلطة. لحظة الدنيا القذرة هذه، بيد أن الحجي لم يدر أنه منذئذ سيعود إلى ذاك العالم الذي لم يرد ذكر له أو وصف في أي مكان.. ويمعن في إيغاله فيه بجمجمة فارغة وبعشرة ألسن فوق كفيه ثرثارة وتعربد دون هوادة. منذئذ انطمست

---

(١٥٥) أفلا بد من ذلك؟!.. لا مناص منه؟!.. تحلفينني كي ترغميني على القول؟!.. حسناً لا بأس. اليوم تحاسبنا أنا والمرحوم وبقي لي عنده مبلغ خمسة دنانير، لكني أقسم ألا ألمسها قبل انقضاء عدته (أي مدة الحداد عليه وهي سبعة أيام).

قسمات الأضداد، مذ قالت زوجة المرحوم وهي تهرش رأسها بذهول وعصبية:

ـ خَمِس دَنانير؟!.. لَيْكون غلطان حجي.. ليش الدَخَل كُلّياتَه إش گدْ؟!..[156]

واتته فرصة ذهبية لتصحيح الأخطاء. بيد أن الأشياء كانت قد انطمست والشيطان وحده مَنْ يُحسن قنص الفرص الذهبية.. ويبقى الرجس على وجه الدنيا والأحياء:

ـ ها؟!.. آني مَ رِدِتْ اگول.. انتي اللّي حَلَّفْتيني.

فقالت مرتعدة بالصوت الخافت المخنوق:

ـ لَعَد يوم الأحَّد مَنِ الصِّبِح يِجي اخويا عِندَك وِيْدبِّرْها.

يدبرها؟!.. علامة سؤال في حجم الغيب المغرب المكشوف، رسمتها أصابعه العشر وهو مأخوذ في أعماق الكف الدموية فوق طاولة قذرة في دكان خليف الچايچي.. «هاي وين صار سَفاني؟!.. ترى راح اتْخبّل!..»[157]

وفي الصمت المطبق من حوله كان «يلط» باليمنى رقبة إبليس ويصرخ في وجهه:

ـ إي لَك شْلون تْوازيني؟!.. شْلون تْوازيني يا ابن الكلب؟

---

(١٥٦) لربما أخطأت.. فهل يبلغ دخل الأسبوع كله هذا المبلغ؟

(١٥٧) أين أضحى سفاني، سأجن (إذا لم أقابله أو أتحدث إليه).

٨

كم قال سفاني له «يا ضيعة هذا الطول والعتر. . فهيا اكْبرْ. . وقل كلمتك الذاتية. . قلها. . ودع أمرك بين يديك». لكن سفاني الذي أبحث الآن عنه لأقبّل فمه ويديه، عبثاً أبحث عنه ويخيل لي أنه مغموس في هذه الكف الدموية المبتلعة للطاولة العارية القذرة.

كان يلقي كلامه في جوف إذن مستترة تهفو إلى الإبقاء، بلا جدوى، على الكلمات ليضخها في أعماق النفس والعقل. كان ثمة دوماً، لص، هويته مجهولة، يسرق من تلك الكلمات قوتها ويلقيها بزوايا إدراكه كقشور اللب أو يلفظها من أذنيه كما يبصق متّانة من فمه قشور الحَبّ التكريتي، حين يكسره من دون وعي، وبدون إرادة يقضم لبابه بتتابع وعجلة وكأنه يتوخى أن يقضم مللاً يقطن روحه، ومرارة تسكن جوفه مذ كف عن السير على أربع وصار يمشي على اثنتين فقط. ثم في الأمس، بعد منتصف الليل، وبالغفلة، وفي ستر الليل، وهو يشق بحماره طيّات الحندس، ويلاحق، والسيجارة اللامشتعلة على طرف فمه، جمرة سيّارة قفّازة كالجندب، اكتشف أنه لم يمشِ يوماً على اثنتين. كان ما زال يحبو، كان شاذاً يتغذى بالعمر ويبتلع ثلاثين عاماً، ويربي في بدنه اللحم. والقامة تسمق، لكنه لا يكبر. أو لعله كبر ولكن كما كبر أكباش المسلخ. فليس ببعيد، أن

أباه الذي عايش تلك الأكباش ورآها قبل وبعد أن تُنحَر، قرر يوم غشي زوجته ليبذره فيها أن يصنعه على شاكلة وبطبيعة هذه الأكباش، كي يذبحه كل يوم مرة وهو مثلها صاغر لا يعرف أن يفلت من حد السكين، بل لا يملك حتى أن يحتج عليها، حتى منتصف الليل الماضي، بعد منتصف الليل الماضي بقليل.. إذ عاد مخذولاً للبيت، والجمرة أمامه ما زالت، وتغرر بعقل الطفل أو الكبش المصبوب في رأسه، وتسد بوجهه كل منافذ الدنيا.. وهو يكتشف الدنيا، وتسقط براغي عقله الواحد في إثر الآخر، حتى انتابه الهلع الأرضي القاتل المولود من الهلع اللاأرضي المهلك.. «مِتّانة تْحرك».. يتحرك.. «قوم متانة».. فيقوم.. «اغْلِفو لِلزْمال» يعلفه.. «غوح لِلْمَصلخ» يذهب.. «بَعَد شوية تِفْجِغ»[١٥٨].. إحساس أبيه يصدق وعقارب ساعته الملعونة تكذب.. كلمات سفاني تخشخش كالبعر اليابس في تباطين دماغه، وهي خامدة الروح. و«خاتون» ابنة النزل، ترقد في غرفة مجاورة، لا يدري إنْ كانت تزعجها طلعته في أحلام الليل أم تغمرها بهجة. لا يعرف أن كان طيفه «يشض»[١٥٩] على مخيلتها أحياناً كما يشض طيفها على أفكاره المرتبكة في أغلب الأحيان.. يجهل إن كان كانت خاتون جميلة أو بشعة أو مقبولة الشكل لكنه بغريزة الطفل المتميّز بمقاسات خارقة وعجيبة، ويبتلع الأعوام، أو بغريزة الحيوان، كبشاً كان أو حماراً، يحن إليها.. وجن حنينه هذا مذ وقعت عيناه عليها صدفة في الصيف، على السطح، في آخر ليل مقمر، وسريرها من دون

---

(١٥٨) سيطلع الفجر عما قليل.

(١٥٩) يشض: يمر مروراً خاطفاً.

«كلّه»، وهو يمضي على أطراف أصابع قدميه كي ينزل للحوش ويفك رباط حماره، ويمضي وإياه للمسلخ.. ويمر بحكم سير طريقه بسرير خاتون، وهي تستلقي عليه وتنام ببراءة، وبعفافه أو ربما وجله، أو بحيائه الطفولي، أو رعب غريزته الأعجم، بشيء من ذلك، أو بكل تلك الأشياء مجتمعة يلقي أنظاره في الأرض ويسمع تلك الأشياء تقول له «مَ يْسيغ تْعايِن»(١٦٠)، وبدون توقع، ومن غير تضرع أبداً لم يخطر على باله أن يهمس للّه به أو للغيب أو يطلقه كالناس جميعاً في وجه اللاشيء، كي يحدث بجواره شيء ما، سمع صوت صرير متواصل ممتزجاً بأنين متواصل، تَبعَتْ ذلك طقة ضربت رأسه أعقبها حمحمة وتبلع ريق.. وبمحض الصدفة رفع رأسه ورأى خاتون تنقلب فوق سريرها تحت ضوء القمر الفضي الفجري. هي تتقلّب ودشداشتها المتقصفة الحائلة الألوان ترتفع بالأشبار حتى تتقمط عند سرتها. وتجمد.. رغم جيوش الرعب الغازية لكل أعطافه، تجمد، رغم أعين البشرية جمعاء، المحملقة فيه باستغراب، وأبرزها عين أبيه الشرهة الهمجية، يراها مصوبة الفوّهة إليه، ويخيّل له، إنها تمطره قذائف نارية، لم يتزحزح، وكيف يتزحزح وقد ربطه رغماً عنه سير حديد بساقي خاتون؟!.. النائمة مكشوفة حتى سرتها تحت ضوء لجين بدر فجري.. نائمة ولباسها أحمر وصغير وتفيض من أطرافه شعيرات كالزغب ليست سوداء، بل في لون هذا الوقت من الليل الممزوج بخيوط الفجر الأولى. نائمة خاتون ولباسها أحمر.. نائمة، بيد أن يدها تتحرك في جوف النوم وتمتد نحو لباسها هذا الأحمر ثم تدخل فيه وتحك بداخله شيئاً.. شيئاً ما.. وتئن بتواصل.. وتبتلع

---

(١٦٠) محظور عليك أن تنظر.

الريق. نائمة وهو يقظ كالعادة في موعد ذبح الأغنام. موعد فيه يتدفق الدم. يقظ. أكثر مما اعتاده في هذا الموعد. وتحاصره أعين خفية ساخطة وتسيل لعاباً من نار. يقطن أعماقه رعبان. يتبلع ريقاً فر من حلقه فجأة.. في اليقظة لا في النوم. ويد خاتون النائمة تهرش ما عتمت، شيئاً داخل لباس رث أحمر حائل وصغير.. وهو يحس بشيء يختلج داخل لباسه القطني الأبيض الفضفاض.. «مَ ظَلْ وَقْت» ستذبح الأغنام والصوف يضيع. ماذا سيقول لأبيه لو عاد من غير الصوف؟!.. «يلله بقى اتْزَحْزَح» لكنه لم يتزحزح حتى استحضر غضبة والده ونقمته الجبارة عليه، واذاك فقط كان في مقدوره أن يقطع كل حبال الدنيا، سواء صنعت من جلد أو قنب أو صُلب، إلا حبلاً فرداً مصنوعاً من جوهر الروح.. ربطه منذ تلك الساعة بخاتون.

«وينو سفاني؟!».. هل ليقبّل فمه ويديه يريده؟!.. أم كي يسأله، بعد أن يروي له رحلة ليلته الأزلية الكشفية، إن كان حقاً يملك عقلاً في رأسه، وإن كان لا يملك هذا العقل، فلماذا تسقط براغي (عقله) بتتابع؟!.. ولماذا يحاول، وبكل ما أُوتي جسمه الفارع من جبروت أن يُبقي على البرغي الأوحد الباقي هناك؟! ولماذا وهو يحن لخاتون، يفكِّر أن يفعل شيئاً يظهره أمام عينيها بمظهر الإنسان لا الحيوان؟!.. مثلاً أن ينضي عن بدنه هذا الزبون و«يَشْمُر»(١٦١) عن رأسه طاقيته ويلبس قميصاً إفرنجياً مع سترة وبنطلون، ويمشي مفرّع الرأس أو بالسيدارة؟!.. لماذا؟ لماذا؟!.. ولماذا أحياناً تدمع عيناه وتطرقه الحسرة؟ إذ يحلم بأن يكتب

(١٦١) يشمر: يلقي ويرمي.

للمحبوبة سطرين، فيبل القلم بريقه ويخربش سطراً كسلسلة جبلية وآخر كالوديان، لا يفهمهما قارئ في العالم غيره، أو حين تدعوه خاتون وتناوله ورقة وتقول له بسذاجة أو صدق أو ربما في مكر ساخر، لا يدري، «مِتّانة أقّاها لْهايي الوَقّة»[١٦٢] فيختطف منها القصاصة ويمضي بها «غْيون بْلا غْيون»[١٦٣] للمرحاض، ثم عوضاً عن أن يحزق من أسفل، يحزق من فوق. عقله يحزق. كل تقاطيع وجهه تحزق.. عيناه تحزقان، ولكنه رغم كل جهده المتفاني، «يقرأ الأبيض وِيِخَلّي الأسْود».. أين سفاني؟!.. حافظ سر كل مساكين الدنيا. عضد المظلومين المحرومين.. وأراه يوماً الورقة، فابتسم وهو يقول: «هايي اتْحِبّك، اتقللك امتى بقى؟!»[١٦٤] وظل إنساناً ساعة ثم عاد يقرض إنسانيته الشك والمنطق. فلم يدرِ أحقاً تهواه خاتون، أم أنها تسخر منه وتغرر به.. تجعله أضحوكة؟!..

كان يريد أن يتأكد من سفاني مرة أخرى. بعد رحلة استكشافه في دنيا الرعب والأشباح. بعد الوسمة النارية الحازة في مخه، التي عوضاً عن أن تمسح هذا المخ من بقايا الأشياء العالقة فيه، شحنته ثانية بكلام سفاني المأثور الممسوح عنه «إِنته آدمي.. بسْ لو عِندك شْوَية إرادة».. «لك أنا أعلمك تقه وتِكْتِب، حِتّي لُو أعْغِف أفرو الشّغْلي»[١٦٥] وكان يهش ويمتلئ إنسانية فياضة فوارة كأنهار الدم المتدفقة من أنحار الخراف المذبوحة، بل إنه فعلاً، وبالسر، تعلم أربعة حروف هجاء بأكملها حتى أمسكه أبوه يلهج بها ويرددها في

---

(١٦٢) إقرأ هذه القصاصة.

(١٦٣) أي بعجلة واضطراب.

(١٦٤) هذه (الفتاة) تحبك. إنها تقول لك.. متى سيتم الوصال؟

(١٦٥) سأتعلم القراءة والكتابة حتى لو اضطررت أن أترك عملي.

وله وصبابة، كصلاة، فانهال عليه بالصوت والقبضة، وكأن شفاهه كانت تنطق بالرجس.

- وْلَك هايي المْكِسْغات مْنِ أين لَك؟! لانْعَل أبوك لآبو القيدخِّل لك بْمِخّك، هذا المطْروس خرا.. لَكْ يلله على شِغْلك.. نحنا وِالقِّيّ كَجَا مَرْحَبا؟!.. لك اِحْنا أباً عن جِدْ نِشتغل بالصوف، وقتغيد إنْتَه السَاعَة تْسيغْلي افندي بِقّا وْيِكْتِب.. قَتْغيد تْبِهْدلا للغْشيغي. فوت.. قَبِل ما اقْطَعْلك غاسَكَ وغاسَو الْهذا القَيْدِخْلَك بْمِخّك هذا الجَيّف[١٦٦] أحقاً أن رأسه متعفن كزعم أبيه؟!..

حتى الأمس كانت تضيع حساباته برمتها.. ساعة يضع الأحجية الميتافيزيقية هذه حذو عينيه ويقلبها بين يديه، يغدو رأسه طبلاً أجوف. أو وتراً مسحوباً أو قربة مشحونة بدخان أسود متكاثف. إنه يؤمن بسفاني وكلام سفاني «أنت عاقل، لكن أباك يرغب في أن تصبح مجنوناً بالإكراه». نظرياً، يبدو هذا له كيقين راسخ. ثم عقلياً تفوخ كلمات سفاني مع إيمانه في أجواء واقعة الصخري الثابت. وسواء شاء، أو على مضض منه وكراهة، فعالمه المرسوم له بإرادة والده، قدَر لا مهرب منه. إنه يتحرك بالجبر وليس بإرادة ذاته. يضرب صفحاً عن رغباته الآنية، لكنها مثل نوبات ألم الضرس الحادة تعنّ عليه، رغم أنه يقنع ذاته بأن خاتون تعبث به، والسترة والبنطلون ليسا لائقين بآل سپير الذين قطعوا عهداً لا يُنكث مع وتيرة

---

(١٦٦) من أين لك بهذه الحماقات؟ على أبيك اللعنة وعلى من يوحي لك بهذا ويملأ رأسك المفعم بالقاذورات. أمضِ لعملك فما شأننا نحن والقراءة. نحن نعمل بالصوف خلفاً عن سلف أفتريد أن تصبح الآن أفندياً يقرأ ويكتب؟.. أتريد أن تجعل العشيرة أضحوكة. هيّا قبل أن أكسر رأسك ورأس من يملأ دماغك هذا العفن.

حياتية لها في أعماق الماضي جذور ضاربة ومتينة. . رغم أنه يؤمن بأن أباه يملك وحده، ما دام كلامه يُنفّذ كقدر، القول الفصل ويقين هذا العالم. ثم حين تَنْقِذْ[١٦٧] عليه الرغبات كآلام الضرس، يفزع ثانية لسفاني يستفتيه. ويُصعَق، إذ يلفى سفاني يوماً نافد الصبر ويصرخ فيه:

ـ لَك انْتَه قَيْبَيِّنْ مَ يْسيغ لَكَ چارَة. قَتْغيد مِن صِدِق تْسيغ آدمي لُو اغِسل إيدي مِنّك؟![١٦٨] انتحب كالعادة. الدنيا كانت ظلاماً في وضح النور، وهو وحيد في زحمة العالم، المكتظ. خاتون عنه بعيدة، بُعد الأحلام المتهافتة المخذولة. بعيد عنه فك الخط، والزي الأفرنجي، حتى السينما كلمة مدسوسة بحكايات عفاريت كانت تصحبه في رحلة كشفه بعد منتصف ليلة أمس، وهو لا يدري.

وكان في ذروة العقل وهو يجذف في نهر يخترق نفق حياته الأسود كسخام القدر. ويعاتب الله ويسائله «الله ليش خْلَقِتني؟!» في هذا اللحد المحفور في طرف من أطراف «راس الچول»[١٦٩]، من صلب أب مثل عزرائيل، جبار ومخيف ورهيب. في أسرة تنحدر لجدود كانوا مثله يلتقطون نتف الصوف المنزوعة من رقاب خراف تذبح. وتسامى على تلك القمة من عقله وهو يعود ويسأل اللّه «ومَ دام خْلقِتْني، ليش مَ خْلِقتني مِثِلْ سفاني؟!»

سفاني!. . إنه يريده باللهفة النارية المتقدة في روحه مذ طارد

---

(١٦٧) تحز.

(١٦٨) يبدو أن أمرك ميئوس منه، أفحقاً تريد أن تصبح آدمياً أم أن علي أن أنفض يدي منك؟

(١٦٩) رأس الچول، تعني مطلع القفر، وهي طرف ببغداد القديمة حيث كانت المقابر.

الجَمرة السيّارة القفّازة كجرادة، قبل فجر اليوم بساعات.. مذ اكتشف أنه إنسان حي. لكنه في الوقت نفسه إنسان ميت. ورآه في كف الدم المرسومة على طاولة المقهى.. أخرى وأخرى.. ضائعاً مثله بمتاهات الغيب.. لكنه يريده كي يستفتيه.. يريده ليقبّل فمه ويديه. وصاح فجأة محطماً كمامة فمه الفولاذية:

ـ بْدالَك خْليف.. وينو سَفاني؟..

٩

في بلبلة أدوات الچيخانة، بين قوريات غير مغسولة منذ الأمس، وفناجين قذرة، معظمها لم يُجلَ بعد، وتلال من أوراق الشاي المسلوقة، وصوان تتبعثر في كل مكان، وسماورات تدخن وتقرقر، ونوارجيل غير معمرة وتبغ غير مخمّر، مدفون في زواية نائية من أوجار الدكان. كان وجهه يبدو كسحنة عالمنا المزرق بالكدمات. . . منتفخة أوداجه، محتقن الدم المتفصد في عرقين منتفخين بصدغيه، وجنتاه قد نفرتا فجأة عن عظمي اللحيين وكانتا حتى الأمس ملتصقتين بهما بقوة طبيعية تبدو كهزال مزمن، ثم وبعد أن بلغ سفاني في ليلة هذا الأمس المشؤوم، ذروة شيطانيته الآثمة الشريرة، انحرفت الأرض عن مدارها ودخلت هذا الدرب من الفزع المتكاثف الملموس كأحجار ترجم بها روحه أيدي الجان اللامرئية. ويتضخم خداه، الجلدان اللصيقان بالعظم، ويحمران ويقسّبان فيصبحان كوجه رغيف من خبز گورگ[١٧٠]. . أو كالكف الدموية المستوفزة فوق الطاولة الملعونة، وتكاد تنطق بالأسرار المكتومة. فها بعيون بابا ليوي، وحمزة، ومتانة، غائرة فيها، تتساءل «أين

---

(١٧٠) الگورگ، أقراص الخبز المحمصة إلى حد الجفاف.

سفاني؟!» أفيعقل أن تتواطأ عليه حتى مطايا هذا العالم البكماء؟!.. لتلقيه في جب حيّات مسمومة وسباع بارزة الأنياب؟!.. حتى متانة.. الخروف المتلعثم، من كان يُطِقّ ريقه ألف طقة حتى تخرج من فمه كلمة «إي» أو «لا»، يغدو فصيحاً كالبلبل ويسأله عنه.. أبداً.. أنك لن تستر عين الشمس بغربال، فهناك موعد لا ريب يتناطره ويرنو إليه بتشف كي يلقي عنه ثيابه ويضعه في قلب الدنيا مكشوف الرأس حافي القدمين ظاهر العورة. ولكن من دون لسان. ماذا سأقول؟!.. كان يفحمه في روحاته وغدواته.. كان يحفر من تحت أساس حياته، ويهدم قواعد قصور شيّدها عقله في رأسه. سَفاني ابن الـ..!.. كم سبّ تلك الأم الطاهرة بسببه. الكلب الّلاش(١٧١) يجلب لذويه اللعنات. ولو لم يكن يعرف سيرة تلك الأم لقال إن سفاني نغل، قد علقته من نغل ماكر، أم هل غافل هذا الماكر المجهول أمه يوماً في غفوتها وبذر في رحمها سفاني وهي جاهلة لا تعرف شيئاً؟!.. محال أن سفاني ابن رجل عادي. هو، بحق كل قحاب الدنيا، وأولهن دوريس، الزوجة الطفلة الساذجة كحمامة، حتى أثبت لي سفاني بالرؤية وليس بالسمع، إنها داهية دهياء، بحقهن جميعاً، إنْ هو إلاّ ابن الشيطان.

«بَعَد مَ تْعايِنّي».. إستلها هذه المرة من أعماقه كالسيف الباتر، وعززها بالأليه الدموية، وبَصَم الكف على الطاولة، من حبر أحمر يتفجر من كتفه، ثم ضاع في المجهول.. وحدد الموعد المجهول.. ومسخ كل الأشياء إلى مجهول.. مجهول.. جهنم.. وسفاني يكشف ما لا بدَّ وأن يبقى مغطى، ويغطي ما يجب أن يبقى

---

(١٧١) اللاش: الرديء والدون.

من غير غطاء. «اللَّه!.. لا تِكْشِف اِلْمْغَطّى» كلا.. فاللَّه يستر السوءات وسفاني يفضحها.. اللَّه يضع على الدرب علاماته.. وسفاني يسرقها.. اللَّه يغفر الأخطاء وسفاني يخلقها.. سفاني عدو اللَّه.. عدو الستر.. نصير حقائق هدامة.. ويهدم أسس الوهم الباني.. نحن بالوهم نعيش وبالوهم تغدو حياتنا محتملة... نحن بغشاوة أعيننا نبصر الدنيا بجلاء، ونراها سلاماً ووداعة.. نعشقها أحياناً.. نقبلها.. وعدو اللَّه سفاني، لا يعرف إلاّ الرفض.. التدمير.. ما أخفته الحكمة العلوية.. سعادتنا نحن العميان.. قناعة المسبوتين.. فلماذا يا ابن المنـ..؟!.. تَمهل شربة الغافل بالعلقم وتطيح بأكواخ التعساء الراضين؟! وتعارض ما خط اللَّه؟ وتعابي[(١٧٢)] أخاك، من آواك وعلّمك وربّاك، بدمار رفضك وجنونك.. قلت له «يْكَفّي.. دِيغ بالَك على ذْروسك ومُسْتقبلك وبْس» كم وِذّنْتو[(١٧٣)] في أذنه وهو يجيبني بالرمقة ذات الأنياب.. يريد أن يأكلني.. كان يقول: «إني أنا الدنيا».. يقول «كيف ارتاح ما دمت أرى حيثما أرفع عيني عَمى وْظِلمين»؟[(١٧٤)]

بابا ليوي النزاح، يتمايل. ينظر في الساعة.. الحجي جن.. بأصابعه يحدث ذاته.. متانة الطلي[(١٧٥)] يسأل عنك يا ظالم.. الدنيا.. جوق المجانين هذا.. الدنيا الثملة السكرى كحزاقيل، حين يعربد.. لم يأتِ بعد ابن الحاخام جدليا. عافرِم غْليك حَزاقيل! أنت وحدك لم تترك لسفاني أن يسرق عقلك.. أنت المجنون، عاقل!..

---

(١٧٢) المعاباة: المجازاة.

(١٧٣) وذّن: أذّن، أي صاح ودعا.

(١٧٤) ظلمين: ظلام.

(١٧٥) الطلي: الخروف.

«الحالات الميئوس منها اتركها» كان سفاني يقول، فأتمتم لنفسي: «الكلب لا يأكل لحم الكلب»!..

كان سفاني يسمع همس القلب، فيجزم «ليس حزاقيل كلباً.. هذا عثة بحاجة إلى نفتالين» بل أنت العثة يابن أبي وأمي.. كنت وأنا الساذج الأبله أعلم بأن عقل حزاقيل مهدم من تلقائه.. وسفاني لا يضرب فأسه في الأطلال..

منتفخ الأوداج. يخفي ذاته في الأوجار.. يتعثر بين أنقاضه الكالحة الكأداء.. كانا شقيقين.. أأكل الكلب لحم أخيه الكلب؟!.. أفتذكر؟!.. الحجي سينتزع من عزوري حقه.. متانة سيعود رجلاً ويقول لأبيه «كلا»!.. باب ليوي لن يطريه بعد أسلوب حياته الصرصوري.. إنه سوف يغتصب عفة ابنته الملعونة في أحد الأيام..

إن الجائع سيعاف صحن الباقلاء ويطالب بالكبّة والپاچة والتنّوري[١٧٦].. لن تمتد في دمس الليل يد آثمة لتغتال السابل المسكين الماضي ببراءة إلى بيته.. نحن سنقطع تلك اليد، وسيبلغ السابل المظلوم داره بقدميه، وليس جثة محمولة على سَدْيَة[١٧٧] لن يبقى بعد «ديني ودينك».. فقير وثري.. جائع ومتخم. إن جدران السجن سوف تتهاوى.. ومشانقنا ننصبها لذئاب البشرية.. لن تبلغ مني غايتها، دوريس!...

كان يسبه. يطعنني في عرضي.. إني أخوك!.. «مَ قَتّغْغِف اشْ

---

(١٧٦) الپاچا، أكلة مؤلفة من الكراع وأحشاء الخروف أو البقرة، والتنوري، الدجاج المحشو بالرز، يطبخ محمراً بالطماطم والسمن.
(١٧٧) السدية: النقالة.

قَتْقول»[١٧٨].. الأشياء انقلبت. في البدء كان يسأل:

- مَ قَتُخاف على دوريس، قَتْخِلّيني ويّاها ابَّحِذْنا؟!..[١٧٩]

انقلبت الأشياء..

-.. افْتَحا الْعينَكْ مليح.. تَغَى مْغاتَك عينا الْبَغّه..[١٨٠]

كان يزرع في أمواج دجلة حدائق غناء.. وأخوه يغرف أشجار الورد وليس مياه النهر المنسابة جنوباً باستمرار..

- الْجمو بقى!.. زِيَّفْتا.. لَك لي إمْتى اظّل سِيكِت لَك؟!..[١٨١]

- مَ تْقِلّي طْلَع من بيتي، وِخِلِّصا الحَسْبة.. هِيّي الحقيقة مَ تِعْجِبِم للاودام.. وانْته أخوبي وْقَدَغيد اَوِعّيك[١٨٢].

تداعى، وتطافح في آن. لماذا كفه غير مطواعة؟!.. لماذا ليست معتادة على الصفع؟!..

- قَتْغيد تْوعّيني، لو قَتْغيد تِهْجمو الْبيتي؟!.. يا حيف انتَه اخوبي!..[١٨٣]

- واشْ ساغ يعني؟!.. إذا قَتْغيد بَعَد مَ تْعايِنّي.. أبسط ما يَكون.. هَسّه مَ تْعايِنّي بَعَد[١٨٤] أشهرها في وجهي.. الكلب!..

---

(١٧٨) لا تدري ما تقوله.. أي تهذي.

(١٧٩) ألا تخشى على دوريس فتتركنا معاً وحدنا؟

(١٨٠) افتح عينيك جيداً فعيون زوجتك تزوغ عنك إلى الخارج.

(١٨١) اخرس. لقد تماديت. حتى متى أسكت عنك؟

(١٨٢) قل لي، أخرج من بيتي وانهِ الأمر. إنما الحقيقة لا تروق للناس. وأنت أخي وبودي أن أفتح عينيك على ما يجري.

(١٨٣) أتريد أن تفتح عيني على ما يجري أم تخرب لي داري؟!.. واأسفاه على أنك أخي.

(١٨٤) لم يحدث شيء، فإن كنت لا تريد رؤيتي، فما أهون ذلك.. لن تراني بعد.

تصورته سائباً يتضور جوعاً في الطرقات.. قلبي، كيف يطاوعني؟!.. وهو شقيقي الأصغر، وأمانة في عنقي.. غل في هذه الرقبة المأفونة.. الصفعة انقلبت قبلة. ذليلة متضرعة تتوسل.. جثوت عند أقدام سفاني.. هذا المارق.. هذا العاق.. أستحلفه اللّه وأمي وأبي وقحاب الدنيا، إلاّ دوريس.. فما كنت لأصدق أنها واحدة منهن. عشت بالنية الحسنة.. وعلى نياتكم يرزقكم اللّه. اللّه ساتر العورات.. مودع الراحة في الغفلة.. والرحمة في الضربة، وبرد الجنة في حر جهنم.. ونثار الآس وزهر الرازقي في حقل الأشواك. وأنا أبني في عقلي قصوراً شامخة وتناطح النجم.. وهو يهدم ويجعلها أجداثاً.. يجعلها مقابر لسعادات متواضعة وصغيرة.. لحياتي.. لي ولدوريس معي:

ـ دوريس!..

ـ غِدّينا على دوريس؟.. مَ قلتولَك مَ عِنْدك شِغِل بِمْغاتي؟!.. إذا مَ قَتِعْجِبك اشْلِخا وْلا تْجيب اسْما(١٨٥).

ـ زْجَعتو من الكلّية هذاك اليوم قبلِ الظِهِغ، شِفْتوها أمْپوْشَه وْمَ اعْغِف وين قْتغوح(١٨٦).

ـ بَلكي غاحِت قَتِشْتَغي شِين؟!.. بلكي ضاجِتْ وغاحِت لْبيت الجّيغان؟!.. قابِل الدّني خَلْصِت؟!(١٨٧).

---

(١٨٥) أعدنا لدوريس؟ ألم أحذرك من ألا تتدخل بشأن زوجتي؟ إذا كانت لا تعجبك فدعها ولا تذكر اسمها.

(١٨٦) .. فرأيتها محجبة ولا أدري إلى أين تذهب.

(١٨٧) لعلها ذهبت لشراء حاجة أو شعرت بالملل فذهبت لبيت الجيران، هل انتهت الدنيا.

ـ إذا مَ تِغغِف، لَكان الدني خَلْصِت مْنِ زْمان[١٨٨].

ـ خِلصانة، خلصانة. تِثْكِل أهلا حَشَاك[١٨٩].

وثكلتني مع دوريس كذلك. جاء بعد أيام يتشفى بي.. ويعزيني بالنكتة.

ـ اللّه رَبّك!.. قَتّاكل مْخَلّط يا لوز.. مِنْ حَبّ قلبك واشْتَهى.. شْيوخ وبيگاوات وْوِزَرا.. وِحْماميل وِزْبابيل.. وْشِرْطة.. وْعَجَم وْعَرَب..[١٩٠]

ـ ولك انْچبّ.. لَتِلْغي!..[١٩١].

ـ تَال وِيّايي لَكان وشوف بْعينيك.

سرت معه وأنا مثل متانة.. خروف لا يدري أنه يمضي لحَينه. في ذلك اليوم الأسود.. «عِزّلنا الچايخانة»[١٩٢].. «عِزّلتو» حياتي. تناطرنا لدوريس في أول الشارع. خرج شبح امرأة متلفعة بعباءة سوداء.. تتلفت. الجيران، الباب لصق الباب، والبقال، بين دكانه والباب عشر خطوات.. اجتازت الجيران والبقال.. روحي تخطو على قلبي.. بلغت باب مناخيري.. قدماً يمضي الشيطان بي.. قدماً يضرب رأسي بفؤوسه.. بين المنعطفات الضيقة الملتوية، تُهضم روحي..

«لِوين قَتْغوح؟!» ضربة عاتية أخرى. «هَسّه تْعايِنْ بْعينك». أغمضت تلك العين..

---

(١٨٨) انتهت منذ زمن، إن كنت لا تدري.

(١٨٩) ليكن، فلتذهب للجحيم (الدنيا).

(١٩٠) ربك اللّه (تعني مرحى لك) فإنما أنت تأكل مما لذ وطاب.. (يلمح إلى أن زوجته تخالط شتى الأصناف من الناس دون علمه).

(١٩١) إخسأ.. ولا تسف بالكلام.

«سِدِّيتوها بْيازْمَه»[193].

ولِماذا أفتحها؟!.. لماذا أفتح هذا الجحر المفضي لحضيض يهبط فيه العالم كله؟!..

ـ تْفضل!

ـ وين اتْفضل؟!..

ـ بهذا البيت الْدَخْلِتْ بينو دوريس[194].

ـ ليش الِبْيوت مْسَيْبَة.. مَ لها صاحب؟!.. كِل مِنْ جا يِدخِل بيها؟!..[195]

ـ أخويي.. بْهذا الْبيت كِل مَنْ عِنْدو دِرْهِم، يِدْخِل[196].

كنت عاقلاً ثم على حين غرة جننت. ورفضت جنوني.. رفضت أن أسمع وأرى. كان الشيطان بذاته أرحم. وأخي وصديقي وصَفِي اللّه سفاني، غريمي وغريم دوريس واللّه والعالم. هل أحمل وزر دمه؟!.. في آخر لحظة تراجعت فهذا الشيطان بذاته أمسى صديقي.. وهو لن يغويني، بل إلى الحق ينبهني. إني عوض الواحدة سوف أغدو باثنتين.. جريمة معرفتي وجريمة تلطيخ يدي بدماء شقيقي الرجسة.. كنت سأقولها للدنيا وللجلاد.. قتلني فقتلته، وعاهرتي لن أطلّقها مهما فعل سفاني.. حتى وهو يقتلني عشر مرات في اليوم.. خادمة في بيتي؟!.. وقال بوقاحة «قِوّاد أبو گرْون رغماً عن أنفك». لا يفتأ يبصق في وجهي.. في وجه

---

(١٩٣) أغلقتها بعصابة.

(١٩٤) بينو: به.

(١٩٥) وهل البيوت متروكةٌ ولا أصحاب لها فيدخلها كل من هب ودب؟

(١٩٦) هذا بيت يدخله كل من يملك درهم، يعني بيت بغاء.

الكون.. في وجه جَفْقَةْ الِمْجانين هذه[١٩٧].. يغوط على رأسي ورؤوس الناس واشُو اشْ ما قَيْسَوّي بيهم.. إمْشِوْبِين غْلينو[١٩٨]... اللعنة!...

(١٩٧) أبو قرون: القواد أبو القرنين. والجفقة: الجوق.
(١٩٨) ومع ذلك فرغم كل ما يفعله بهم يهيمون به حباً وشوقاً.

١٠

نثة مطر يا رب!. ثم نظرة أخرى طويلة ساهية إلى الساعة. ولا النثة تأتي ولا الساعة تتزحزح.. ولا خْليف يرد.. ولا سفاني يظهرْ.. ولا الهَول ينفض.. ولا الحجي يعدل عن عقف أصابعه فيظل يِغمِله هيكِذْ ويِغِدّ يِغغِجا هالشُّكل.. ومتانة وجه البوم ينطق بالحق. ليس هو من بالحق ينطق بل من فم سفاني يأخذها.. هو ميت، وأنا أكثر موتاً.. أنا بابا ليوي النزاح.. أنجس نزاح في بغداد. أنا من شَاف وْما شافْ ولَمّنْ شاف انْدَهَش(١٩٩). دهشة لازقة في عقله ما زالت، وعلى وجه الأشياء.. «وينو سفاني؟» ولماذا الوقت لا يتكرم فيسير ويجري؟!.. الساعة الثالثة ودقائق أربع.. وخمس دقائق ما فننثت. الوقت.. عدوي وعدوك الأكبر. ماذا يهم؟!.. وسفاني كان يراه يتربع في قلب الكف الدموية، وهناك يرنو إليه برأفة وبود ويقول «إستفتني!».. والوقت لا قيمة بعد، له.. ماذا يهم؟!.. كانت كل حياة بابا ليوي تجثم خلفه.. حاضره غارق في بؤرة الدهشة بين عدم الأشياء. والماضي والمستقبل سيران مجدولان ويغدوان سوطاً يجلد حياته التي في ظهره، بفظاظة. كان

(١٩٩) يضرب للمحروم يرى الشيء فيندهش له، وما رآه سيأتي في السياق.

يحس لسعة هذا السوط الجبارة في فجوة وقته المتجمد وبين أعطاف الدنيا الفاقدة الحس. ويتبخر كيانه ويغدو دخاناً أسود يتخذ طريقه بمهب الريح العكسي.. وهو يلتقط همس هاجسه المتستر في بالوعة روحه الرجسة، باللغة الآثورية. قد صادف بالأمس البطة. في حلم وردي أو يقظة أغرب حتى من جنّة الصديقين، وتفتح في أرجائه ألف نبع ينهمر منه الرعب، فلماذا؟!.. لماذا الرعب وليس بالبهجة؟!.. ولماذا ليست بسعادة الإنسان الخارج من هيئته الصرصورية بعد صعوده من قاع مرحاض دنس ينفض عن بدنه قذارته اللاّصقة فيه؟!.. ولماذا عوضاً عن أن يعثر على بابا ليوي الانسي، يفقده بين لحمه وعظامه ويجدّ في البحث عنه، عبثاً. في الأرجاء المطموسة من بغداد؟!.. سفاني وحده من يعلم.. سفاني تنبأ له بمصيره كنبوءة أرميا بالأهوال.. رجينة والأبنة صبيحة.. حَرَمتاه حتى من نسمة عمره.. رجينة أجل، لكن صبيحة مِنْ صلبه.. ومحرّماته. هذا الحذر المبثوث في الهمسات العجماء، لم يدر ما كنهه حتى عرف اللغة الآثورية. كان سفاني يحذره من كنه تلك الهمسات «بِتّ الْبولة رجينة مَ قَتْخِلّيني أجي صوبا عَبالَك بِيّي عِقّ النجّيس»[٢٠٠]، هي من سيجعل الشريان الدنس ينبض «ديغ بالَك.. مَ يْسيغ تِچِفِت ابْطَنَك.. النسوان مْقَد الزِّبل.. مَ قَحَط.. كِلّشِ كلّش غوح للميدان»[٢٠١].

فيقول له «وْغيحِتي؟!.. هَسّه يِشْتِمّوها ويشِلْعون»[٢٠٢] كما

---

(٢٠٠) رجينة ابنة العاهرة تمنعني من غشيانها وكأن بي عرقاً دنساً.

(٢٠١) احذر. لا ينبغي أن تكتم في جوفك.. النساء كثير كالقمامة، فإذا بلغ بك الأمر مداه فيمكنك ارتياد الميدان، وهناك بيت بغاء.

(٢٠٢) ورائحتي؟ سوف يستنشقنها ويهربن.

تهرب الملعونة.. «أف!.. تنح عني!.. قبل أن يعميني نتنك».. كذب وهراء.. جعلتك تصدق.. ويحك.. فهل الرائحة صمغ يلتصق بالأعطاف؟!.. في أنفها حساسية أنف الكلب.. «كلا».. كان يقول له.. «حذاري من أن يخدعك الوهم.. إحذر من أن تمضي على هذه الدرب الوعرة الخطرة».. «أية درب؟!».. «الهمسات!».. ساعة عانق البطة اتضحت كلمات الهمسات.. آثورية.. آثورية.. لكن صبيحة ولعابه السيّال، حين يغادر مرقده قرب المرحاض، ويمضي على أطراف أصابع قدميه إلى باب الغرفة ويحدق برجينه وبها؟!.. في ذعر طاغ يحشر عينيه بين الأفخاذ «مَ لِّك هايي.. ليست لك».. «لكان قَدَطْمُص بالِسْيانة كل يوم عِشْغين دوغَة واغْلِفِم لِلِهْوايِش عالّبْلاش؟!»[٢٠٣] ولماذا تزوج؟!.. ألكي يمضي للماخور تزوج؟!.. وكانت تبرحه في أيام ثبات العقل مشكلة غيبية لا يفقه جواباً ينقذه منها، وتظل تلح عليه «هايي بتّ.. أشْلون قَتّضْمِخ؟!.. عَشْغه ثْناعِش سنة بلا غِجّال؟!»[٢٠٤] وحتى سفاني لم يحسم له هذا الأمر. مطّ شفتيه وقلب كفيه وأحتار مثله، لكن المشكلة لم تبرح صدره، بل ظلّت هناك تقطن وتوسوس. ويجتمع الوسواس بالوسواس ويطعن فيه، يثخن ذاته الصرصورية جراحاً. لقد كان يرحّب بحياته الحشرية ويحقق ذاته في أعماق مجاري القاذورات. كان يحقق فيها نصف وجوده، ثم حين يعود لبيته يفقد هذا النصف مع النصف الآخر، حتى أمسى يُؤمن بأن حياته

---

(٢٠٣) هذه ليست لك.. إذن، أأغوص كل يوم عشرين مرة بمياه القذارة لأطعمهن عبثاً؟!

(٢٠٤) لا أدري كيف بوسعها أن تصبر (على رجل).. عشر سنين، أو أكثر.

قد اكتسبت بالفعل خواص الصرصور الذي إن أُخرج من بيئته القذرة النتنة، فاضت روحه. إلا أن أغرب ما بالأمر، أن رجينة حين تداوي فيه هذه العلة وتقول له «غوح نام صُوب الأدَب» فإن مقاييس خواص المخلوقات تعود لطبيعتها. . «إِنْته آدمي، والشِغِل مَ عيب. هِيّي القَنْدِخَلّك بْمِخّك. . لَيْكون تصِدّقا»[٢٠٥]. . أبداًا. . فلو كان يصدق لما قام في جوف الليل مثل اللص، وسار وسط حفيف النوم والمخلوقات اللامرئية إلى غرفة النوم مدفوعاً بالهمسات «ثْناعِش سنة إش قَتْسَوّي؟. . قابل قتصلّي على ذيالا؟!»[٢٠٦]. . لا. . لا. . محال ما يفكِّر فيه. . فرجينة لا شك «انتفخت». . جسداً وغروراً انتفخت. . فيوم كانت رفيعة كالعود كانت أطوع له من إبهامه. . كان يحتار. . لا يدري أي هواتف ذاته يصدقه القول. . فمثله أبداً لا يهبط عليه الوحي الصادق. الوحي الصادق محفوظ لسفاني وحده، لكنه في ذلك اليوم شك بكل ما يعرف، تماماً كما يشك بعقله وبالدنيا منذ لقائه أمس بالبطة. كان الرجل الوافد أفندياً تخجل منه العين، غريباً حل فجأة قرب داره. . لا يدري من أين جاء. رآه حين رآه لأول مرة وهو يدرج كسمانة يحمل صحن القيمر[٢٠٧]، وقرطاس التمر الكرسي[٢٠٨] ورغيفي الخبز، وجيوبه مكوية بلا مكواة، بعد أن أفرغ ما فيها عند البقال من أجل أن تزداد رجينة بدانة، وليقوى قلبه الفارغ مثل جيبه، ولكي يخرج، من ثم، على باب اللّه، بالأمل

---

(٢٠٥) أنت إنسان، ولا عيب في العمل. . هي التي تدس في رأسك هذه الأمور فأحذر أن تصدقها.

(٢٠٦) ماذا تراها تفعل طوال ١٢ عاماً أيعقل أنها عفيفة لهذا الحد؟

(٢٠٧) القيمر: القشدة.

(٢٠٨) التمر الكرسي: هو التمر الزهدي الأصفر، المشمع والمكبوس.

الراسخ، فيقتحم بلاليع الناس بهمة وجسارة. كان يتلاحقه مذ غادر دكان البقال، ثم وهو يفكّر برجينة وبباب اللّه أدرك، وعلى حين غرة، أن ظلاً آخر له، في سيماء مرموقة. وسيماً وأنيقاً.. لا يشبهه أبداً، بشرياً وليس حشرياً ويجري وراءه، وعلى بعد مترين منه، ظله الآخر. ظل بشريته التي لم تكتب له؟!.. ويغيظه.. ويلتهم قناعته المدسوسة في نصف ربع القيمر وكيلو التمر الكرسي ورغيفي الخبز.. ظلّه الآخر دون شك. يسرع فيسرع مثله. يبطئ فيبطئ خلفه. يتوقف، يتوقف أيضاً، ثم عند الباب تماماً وهو يمسك بالداقوقة النحاسية، لا يلحق أن يطرقها فتتجمد يده اليمنى عليها وتتراخى ذراعه اليسرى فيكاد يسقط من قبضة كفها «ريوق»[٢٠٩] الصبح بأسره، وكذلك هذا التقدير المخطئ دوماً:

- إسْمع خوجا.. هَلْكان مْنِ الجوع وْما عِندي أكل.. انْطيني دِرْهِم خَلّيني اروح أتْرَيَّگ بيه[٢١٠].

نسي ذاته في الهمسة اللامعقولة. كانت حيرته الراهنة الغفلية أقوى من كل حيراته حين يخوض مشاكل فوق إدراك الإنسان.. أفهذا ظلّه الآخر حقاً؟!.. استعرض بذلة الرجل الفارع.. ساح بين الياقة الناصعة المكوية كجيبه، ومرّ بنهاية البايمباغ[٢١١] الأزرق، فحزام جلد الحية الأرقط، فالسروال الواقف حده كزاوية صرح شامخ، ثم توقف في الأرض عند حذاء كالعَرْموطة[٢١٢] أصفر روغاني مدهون لامع.. ولم يفهم.. ولم «يدخل في عقله».. ولو

(٢٠٩) طعام الفطور.

(٢١٠) أتضور جوعاً وليس عندي ما آكله فهلا أعطيتني خمسين فلساً أفطر بها.

(٢١١) ربطة العنق.

(٢١٢) كالكمثرى، صفة ينعت بها الحذاء الجيد.

أن رجينة ذاتها فتحت الباب له وهي معطرة ومزينة ومرتدية أحسن ما في أسلابها، ثم احتضنته بكل قوتها، حتى تزهق روحه، من فرط حبها وحرارتها، وقالت فوق كل هذا له، «يلّله بقى.. بَعَد مَ قَدَضمِخ.. فِرّ هذا الْبيدَك وامْشِي وِيّايي للچرْپاية»[٢١٣]، لهضمها عقله.. لكن هذا، كيف يهضمه؟!.. وقال له بنقيق الضفدع الهائج:

ـ بلّله مو عيب عَليك؟!.. كل هَالْكَشْخَة والعتر.. ليشوفَك تِسْتِحي عينه، مَ لْگيت غير واحِد مثلي نَزّاح امْخَلْقَن مَ يملك لَه شاهِيّة، تْجَدّي منه درهم؟.. دِروح دَوّرلك على فَدْ واحد غيري، دهين.. وْخلّيني بْدَرْدي»[٢١٤].

ثم أفرغ سَمّه في دقاقة الباب، لم يكن يدور في خلده أن الرجل الآخر هذا، الوسيم المتأنق، الذي كان يبدو، رغم أنه أطول منه وأرفع منه وأهيب وأجمل منه وأكثر بشرية منه، ظلّه الآخر، ويمثل كل هذا الأكثر منه الذي لم يخلقه فيه اللّه، ثم تبيّن بالبرهان القاطع، إن ظلّه هذا الآخر، رغم كل زياداته وإضافاته، لا يمكن أن يكون ظلّه، لأنه وهو الناقص والمعتاز وبمذلته وبقصر يده وبذاته الحشرية وروائحه المكروهة، وبكل بهدلته، لا يمكن أن يفتح يده للناس ويستجديهم حتى لو اشترطت رجينة عليه أن يفعل هذا لتنام معه كما في الأول. ولم يدر في خلده أن الرجل الآخر هذا، مع أنه ليس

---

(٢١٣) هيا، ما عدت أحتمل. إرم ما بيدك وهيا معي إلى السرير.

(٢١٤) بالله عليك أليس عيباً عليك وأنت بهذه الأناقة والضخامة والهيبة أن تمد يدك لنزاح مثلي خلق الثياب ولا يملك شاهية (نقد فارسي قديم صغير كان يستعمل ببغداد حتى مطلع القرن العشرين) وتستجدي منه درهماً. أبحث عن موسر غيري، واتركني لهمومي.

بظله الآخر، سيظل مشكوخاً[٢١٥] بجواره، عيناً مثل ظله الأصلي، وإن طرقته المسمومة على الباب قد طَرَقَتْ[٢١٦] رجينة وصبيحة المطيورتين[٢١٧]، فانطلقتا بالذعر إليه ولسان رجينة يلعلع كالمطرلوز وفمها يتفل على صدرها ثلاث تفلات، وهي تقول:

ـ اسْمَلله.. نِطْغَقْتو.. أشْ ساغ عِنْدك مِطْيوغ ومْطِيِّغِلْنا عِقْلنا.. ليش عَبالي أشْ لَعَب؟!.. عَبالي ساغِت فَطْرة[٢١٨].

ثم تسقط عيناها وعينا ابنتها الملعونة في دن العسل البشري. الواقف معه بكل وقاحة وبجاحة وكأنه يعرفه من «سَنة سابق»، لكنها بخلاف جميع تقديراته، تفحم فجأة «مخروشة»[٢١٩]، وابنتها. حيبتان بالتأكيد، من هذا البيگ الواقف في الباب. لا تعرفان ما الأمر، ولا تعلم رجينة بأن من خجلت منه وصانت لسانها بسببه، كان قبل لحظة يفتح يده ويستعطي منه.. هو.. بابا ليوي النزاح، زوجها الرجس، من تستخرقه وتتقيأ منه، وتشم فيه روائح لا تبلغ حتى خياشيم كلاب الشرطة، كما قال سفاني له.

ولم يدرِ كذلك، أنه بعد أن دخل الدار، ورد الباب وراءه، ووضع «الريوق» على «الميز»[٢٢٠]، سوف يظل وحده «يصلّي»[٢٢١]

---

(٢١٥) مغروزاً ومغروساً.

(٢١٦) طرقت: أجفلت وأصابت بالهلع.

(٢١٧) المطيور: المضطرب، السريع الخوف والفزع.

(٢١٨) فزعت.. ما بك مضطرب وتفقدنا صوابنا.. لم أدرِ ماذا حدث.. حسبت أن فترة قد وقعت (الفترة، هي الهرج والمرج، كان يقع فجأة يسببه الرعاع والغوغاء الذين يتوخون النهب).

(٢١٩) المخروشة: المندهشة والذاهلة.

(٢٢٠) الريوق: طعام الفطور؛ والميز، المائدة.

(٢٢١) يصلي على الطعام، مجازاً أي يتمعن فيه ولا يمد يده إليه.

على القيمر والتمر، لا ينقره، منتظراً زوجته وابنته الملكتين المتعاليتين عليه، والمحظور عليه بخلاف كل شرع في الدنيا أن يمد يده لطعام، قبلهما، حتى وهو صائم وعلى لحم بطنه، ومعكر الصفو، والوقت المتجمد الآن، منصهر منساب ومتدفق، ويستعجله بالخروج على باب اللّه المفضي لمجاري وبلاليع خلقه، الطافحة والمسدودة، فظل ينادي رجينة، والهوا يْوَدّي[٢٢٢]، وروحه تقفز وترفرف في صدره الضيق مثل خرم الإبرة.. وما من «حس ولا حسيس» لهما، حتى ألفى ذاته يبحث وينقب في أرجاء البيت، وشقوقه، وحيطانه، ولا أثر لرجينة وصبيحة. ولا يعقل أن الأرض قد انشقت في لحظة وابتلعت المارقتين، أو إنهما قد ذابتا كالسكر في فنجان شاي، فهما غير قابلتين للبلع، وهما بالطبع في طعم الصبر أو العلقم، وهو يدور ويصيح كالمجنون على رجينة «بِتّ الْبولة»، حتى أخيراً وجد الذئبة المفقودة ومعها الضبعة التائهة الأخرى.. الزوجة والابنة، وجدهما منحشرتين معاً في شباك الغرفة العلوية، تطلان على الدرب الضيق في أمعانة غارقة، مبتهجين، تراقبان بالعين والعقل والقلب حدثاً يجري في الخارج، لا يعرف شيئاً عنه، لكن منظرهما أوحى إليه بأنهما لا شك تشاهدان مجيء «المشياح»[٢٢٣] المنشود، منذ ألفي عام، وقيام أهل الأجداث.. وكيف يفوت مثل هذا المشهد؟!.. وكيف وقد فقدتا السمع والنطق والوعي، يمكنه كبح جماح فضوله؟! فضوله، العلامة التي تؤكد ما كان يؤكده سفاني

---

(٢٢٢) أي أن مناداته تذهب أدراج الريح.

(٢٢٣) المشياح، هو المخلص اليهودي، وهو بمثابة المهدي الذي يأتي ليملأ الأرض عدلاً وينقذ الأمة، وفي أعقابه تقوم القيامة.

باستمرار من أنه مهما كان فهو إنسان.. ويريد مشاهدة المشهد النادر، لا شك، الرائع بالتأكيد، الذي ولسوء طويتهما ولخبثهما المستعصي، عمدتا إلى الاستئثار برؤيته، لا تشركانه فيه، وبأقبح وأخبث قصد، تصران على حرمانه منه...

ـ أشو..؟[٢٢٤].

وانطلق متحدياً كل عراقيل الدنيا التي تضعانها في دربه، «يِقْلِب الجّل وْيِنْعَل الكِلّ»، ويتوسطهما ويشاهد.. وماذا يشاهد؟!.. أبداً لم يأتِ المشيّاح ولا قام الموتى.. ومع ذلك فالمشهد أغرب من هذا وذاك.. مذهل حقاً.. صاعق بالتأكيد.. يفقأ عينيه.. ويسخم وجهه.. ويلقي على قلبه ستاراً أسود.. فكيف إذن يشرح هذا صدر رجينة وصبيحة الفاجرتين؟!.. وكيف يضيء عيونهما، وكيف يُدخل في نفسيهما كل بهجة الدنيا؟!..

كان الرجل الآخر منتصباً تحت الشباك، بالبدلة والبايمباغ، وأزرار سرواله مفتوحة، وإحليله بين يديه، ضخم أسود كالباذنجانة، ولا يعقل أبداً أن صاحبه جائع وهو يسبح به رجينة وصبيحة.. مشياح أسود!.. مشهد في كامل الروعة ولكن.. بالمقلوب..

هكذا تكتظ الحبوس، وتمتلئ مستشفيات المجاذيب بخلق الخالق «لو هيكِذ لو هيكِذ»[٢٢٥] وهو يكاد يهوي بين هذا وذلك لولا ستر اللّه عليه وفضل رجينة عليه حين أذلته وطمسته تحت الأرض، فإذا هو الساعة، وغضبه وذهاب عقله يقيمانه، وترفعه النخوة والغيرة، فلا يبلغ إلاّ قامة إنسان عادي، ولا يملك إلا أن يجرجر

---

(٢٢٤) أشو، تعني دعوني وافسحوا لي الطريق.

(٢٢٥) أما هكذا أو هكذا.

زوجته وابنته ويدفع بهما وحسب، ونقيقه البرمائي أكثر بحة وجفافاً وكأنه يطلقه من وحل جرف المستنقع، لا من مائه.

ـ وْلَك اشْ عِنْدْكِم.. رواية الما يِنْهلّ بيها؟!.. مَ تِمْشون.. امْشو كِلو بَقى.. قَدَغيد أولّي.. اطلع على باب اللَّه[٢٢٦].

ومع من يتحدث وينفق رصيد صوته؟!.. فهل الحائط يسمع؟!.. ولأجل ماذا يستنفد قواه قبل خروجه على باب اللَّه، وهما لكأنهما جزء من هذا الشباك موصلتان بقضبانه برصاص، ومبنيتان معه بالإسمنت، مصبوبتان ومعقودتان بالحصو والشيلمان[٢٢٧]، ويلزمه قوة شمشون الجبار لتزحزحهما عن هذا الشباك اللعنة.. وكان بنخوته وغضبه والغيرة المتأججة فيه قد أضحى إنساناً، ويعلم بأن مجاذبة امرأة في مثل وضع كهذا دقيق ومعقد، وله أهمية قصوى، هي كمجاذبة الريح، فكيف بمجاذبة امرأتين مارقتين تحدجانه دوماً بعينين تصغّران الأشياء وتمسخانه حشرة، ثم إنه يدرك بإحساس صادق ويراوده الآن أن هذه الحشرة، التي هي هو، لا بدَّ تلاشت وضاعت في ثقب الباذنجانة الضخمة السوداء المنتصبة تحت الشباك، تسبّح مع خالقها، عرضه المهتوك.. إذن، لم يبقَ إلا أن تمضي الباذنجانة مع ما ظنه ظلّه الآخر الرجولي المالك لكل ما حرم هو منه في بيته والدنيا.. أجل، «يرد ويصد»[٢٢٨] ويشتهي هذا.. أن يتمحك بظلال الناس ويدّعيها لنفسه.. حتى برذائلها الفاضحة هذه.. فمن يدري.. لو كان يمتلك هذه الجرأة ويتبذّل كالرجل

---

(٢٢٦) ماذا لديكما؟!.. مشهد لا يفرط المرء به؟.. هيا.. هيا كلا، فإني أريد أن أولّي (أي أذهب بمعنى سلبي).

(٢٢٧) الشيلمان، قضبان الصلب والحديد المستعملة بالبناء.

(٢٢٨) أي، مهما فعل فيعود ويشتهي....

ذاك، ويستجدي من أرذل خلق اللّه، ويستعرض «عورته» الجبارة أمام أخف المخلوقات عقلاً..؟!.. أجل.. ظلّه الآخر!.. ظلّه وغريمه الأقوى منه، المنطلق من مكنونات الغيب، يغري قدامه عرضه من دون حياء، فكأنه ليس رجلاً بل ليس حتى ظلاً لمخلوق حي مهما كان جنسه.. كأنه لا أكثر من مدادة باب، أو خراعة زرع..

إنه بالقوة سيزيحه.. هذا الظل الذي ليس له، ويريده. وقال له يستحلب حزمه من فكرة قوة طارئة موهومة:

ـ بابا.. إمشي مِنْ نا احسَن لك.. ليش شَكو عِندَك، سِبحَة لُوْ سينما دَتْفرِّج عَليها حَريم الناس ابْلاش؟!.. يلّله امْشي..[229]

واستغرب جبنه، رغم توكيدات سفاني له، المشحونة بالهمة.. فقد كان يريد القول «يلله اتكَسَّح» فقال لسانه «يلله إمشي» وكان يريد أيضاً أن يستعرض ما في ذاته من غضب متقد وثورة عارمة مشبوبة، إلاّ أنه رغماً عنه ابتلع تهديداته، فلم يقل له «دُتِّمْشي لُو اكسِّرلَك راسَك» إلاّ بقرارة نفسه. كان في الواقع يرجوه. يدرك أن الورقة الرابحة ليست في يده بل في يد هذا الآخر، ما دام يمسك بالباذنجانة وبقوتها السحرية يخلب فكر وأبصار رجينة وصبيحة ويسمرهما فيها. كان عليه إذن أن يتفاوض باللين وبالرفق. وبالعيني وِالأغاتي[230]، من أجل أن ينهي هذه المشكلة الغيبية، أو يتلافاها بالأحرى. من قبل أن يُسفح دمه الحشري البارد في عقر داره. وقال الآخر:

---

(229) أذهب من هنا خير لك، إذ ماذا عندك؟!.. مسبحة أم سينما تفرج عليها حريم الناس مجاناً.. هيا امش.

(230) أي بالرفق بأن يقول له.. امض يا عيني ويا أغاتي، وهي سيدي بالفارسية.

ـ نْطيني ميةْ فِلِس، وامْشي.

فتساءل ذَاهلاً محتار العقل:

ـ صارَتْ ميةْ فِلِس؟!.. گبْلِ شْوَيِّه چانَت دِرْهِم، زين. أشوفْلَك الدِّرهم وْزيح مِنّاه[٢٣١].

ـ لا بابا. إني مَا أحبّ الْعِمْلة.. گلِتْلَك مِية فلس، يعني ميةْ فِلِس. وإذا تداهِرْني بَعَد، تْصير تْلَثْ دَراهم[٢٣٢]:

ساحت أبصاره بين الشباك المفعم بعيون زوجته وابنته، الشرهة، وبين الباذنجانة الضخمة السوداء الريانة، فسقط قلبه وقال: «اَشْ ما يِطْلِبْ بِسْتيهل»[٢٣٣]، وتمنى «بَسْ لُو مْغاتي بِتْ.. وْبِنتي يْزيحون مْنِ الشِّباك وْيخِلّونو...، كان أخذ دَغْبو وْغاح.. پارَه مَ كان حَصَّل مِنّي»[٢٣٤] لكن، بين أمنيته هذه والواقع بحار وجبال وسماوات.. وحتى لو انفتحت طاقة بين اللّه وبينه، وأضحى في غفلة من أمره صدّيقاً مستجاب الدعوة، وتمنى على الباري أن يتبادل وغريمه العارض هذا، الشخصيات، فمن المستبعد أن تتحقق أمنيته الأصلية تلك.. فقد خامره إحساس بأن الامرأتين ستشيحان عنه آنئذ، وستستقبلان عوضاً عنه بابا ليوي الآخر الزائف.. وتفتحان له الباب والسيقان..

---

(٢٣١) كانت قبل قليل درهماً وارتفعت الآن لمئة فلس. حسناً. سأجد لك الدرهم وانصرف من هنا.

(٢٣٢) كلا فأنا لا أحب المساومة. قلت مئة يعني مئة وإذا داورت وحاورت معي فستصبح ثلاثة دراهم أي ١٥٠ فلساً.

(٢٣٣) إنه يستحق كل ما يطلبه.

(٢٣٤) فقط لو أن زوجتي وابنتي تتركان النافذة، لكان ولى دون أن يحصل مني على پاره (وهي عملة عثمانية صغيرة جداً).

وكان الشك أعتى من كل ما يملأه من سلب ومن إيجاب. جزذياً يقرض في أعماق ذاته بقواطع مرهفة كالمنشار. وكلمات سفاني كانت تهديه إلى وجهة أخرى.. للثورة والنقمة.. ولنساء لسن بزوجته وابنته، وكأنه غسل يديه من هاتين العاهرتين.. وأخطأ إذ لم يستفته عما يتوجب صنعه في مثل هذه الورطة، لكنه لم يستطع الاطلاع على الغيب وقراءة المخفي.. إلا أنه أيقن بأن العثور على مئة فلس، فرض واجب الآن.. وعليه أن يجدها من تحت الأرض، ولماذا تحت الأرض وهناك البقال؟!.. أجل البقال.. لا بدَّ وأن يستنجد به.. لكن مشكلة أخرى عويصة شجرت قدام عينيه.. كان الوقت ساعتها بخلاف ما هو الآن عليه. كان يجري، لا يتخلف. الوقت عدو الإنسان في الحالين!.. وكان بينه وبين البقال مسافة لا بدَّ سيطوي معها الوقت. مسافة قصيرة، هذا صحيح، لكنها رغماً عنه أمست فجأة مشحونة بالأخطار. رقعة زمنية ومكانية يكمن فيها أعظم مخاطر حياته، ويُحدِق بعرضيه.. بل عرضيه يعرضانه لأبشع تجربة في عمره.. أفليس من الجائز، أن تقع، بين ذهابه وإيابه، الطامة الكبرى في بيته؟!.. وإذاك سيصبح كما قالوا: «لاَ حِظَتْ بِرْجيلْها وْلاَ خَذَتْ ملاّ علي»[٢٣٥]، فيفقد ماله، ويفقد عرضه أيضاً؟! وواتته فكرة براقة، فقال:

ـ تاخُذ الْگيمَرْ والتّمر والْخُبُزْ وِتْروح؟!.. يِسْوالْها يِجي رُبُع دينار!..[٢٣٦].

---

(٢٣٥) مَثَل يضرب لمن يفقد كِلا الأمرين وله قصة.

(٢٣٦) أتأخذ القشدة والتمر والخبز وتذهب؟!.. هذا تساوي قيمته ربع دينار (أي أكثر مما طلبه).

بيد أن الآخر، الأعلى، الأفضل، صاحب الورقة الغالبة والقول الفصل، صاح فيه يتبجح:

ـ گلتْلَك آني ما أتعامل. يا الْمِيةْ فِلِس يا أبقى هْناه..، ما أتحرك.. كِيفك عاد[٢٣٧].

لا جدوى.. والباذنجانة السوداء تمجد وتسبّح، وتنتفخ مع كل تسبيحة. ورجينة المومس، من تدفعه كل ليلة إلى صوب المرحاض، ينبت في وجهها الساعة ألف عين مفتوحة كفوهة بالوعة ضخمة، وتشرب «الباذنجانة» ألفاً وألفي مرة فلا تمتلئ ولا تحتاج إليه لينزحها. وصبيحة الأبنة البكر كذلك تُستغرق في أعظم شنيعة في التاريخ، وتخلق في أعماقه همساته المسعورة. ويعمي الكابوس وعيه قبل عينيه، فينق بصوت عقروق ضلّ هذه المرة طريق الماء الجاري وألقي في صحراء قائظة بلقع:

ـ زين، فوت ويايا آخُذ لك مية فِلِس مْنِ البَگال.

ـ لا أغاتي. مَ مِسْتعجل. راح أبقى هناه وْروح على كيفك جيب الِفْلوس وْتعال.

فقال وقد استسلم، استسلام بطل للموت القاهر:

ـ لَعد لِتِتْحرك. هَسّه أجي[٢٣٨].

وبطفرة صار عند البقال. وبطفرة عاد منه. والأولى كانت أزلاً. والثانية أبداً. واللعنة على الوقت. إنه أعدى أعداء الإنسان. تأكد من هذا لكنه لم يتأكد من أن الأبد والأزل، فسحة الوقت الممتدة من بيته

---

(٢٣٧) قلت لك إني لا أساوم. فإما المائة فلس، وإما أن أبقى هنا لا أتزحزح.. فأنت وما تراه إذن.

(٢٣٨) لا تتحرك من مكانك إذن.. سأعود فوراً.

للبقال ومن البقال لبيته، لم تقتل عرضيه.. أجل. ولّى الكابوس، بيد أن بصمته مكثت كآثار حروق في قلبه وضميره حمراء ككف الدم الغارق فيها الآن وهو يشك في كافة الأشياء.. البطة.. الهمسات.. الدنيا.. كل الأشياء راسية في جوف مرحاض أحمر.. يهبط فيه، كلحظة هبط من رحم أمه.. حوض عصير طماطم.. حوض من فُوّة.. وتسيل قرون الشيطان الدموية فوق أفخاذ البطة الآثورية.. وتترجم له «شفرة» الهمسات.. «وينو سفاني؟!.. وينو سفاني؟!».. إذا لم يأتِ سفاني فلن يبقى من تحته ومن فوقه.. ولا من خلفه وقدامه.. ولا من ماضيه ومستقبله، إلاّ هذا الطوفان الأحمر.. هذا النهر من الدم المكتسح الجارف كالطاعون...

١١

. . . «مَ قَيْطْلَع دَغْب . . يعني كم دوب اظَّلْ خِيتِل؟! . . وْمَني هذا يخْدِمِمْ للجماعة؟! . . وْمْنين أجيبو السَّفاني؟! . . قابِل اخْلِقو؟ قابل اطِلّعو مِنْ جَوّا الأَغْض؟! . . قوم بَقى قوم . . .»[٢٣٩] فقد سبق السيف العذل، وما عادت تجديني حسرة، أو ينفعني ندم. الآن أو بعد قليل، ستنفرج الستارة مشهد سيقف له شعر العالم. الموعد موقوت وجاهز في قبضة الوقت. في لحظة آتية ما، سيلقيه في وجهه. وهو، بخيانة ذاته له، بالسحنة الباكية المكمدة وبالقسمات المنتفضة رعباً وبأطرافه المرتعدة كلما خطر ذكر سفاني، يفضح نفسه ويقرب أجله وساعة حساب القبر، لا ينقذه من قنبلة ملك الوقت غير سيف ملك الموت، يبحث عنه ليسلمه ذاته قبل حلول مأساة مواجهة الواقع. أفأخطأ إذ فتح اليوم دكان الشاي؟! . . ولماذا شل إدراكه، وتربّطت يداه فلم يمسح كف الدم وتركها تنعق ملء حنجرتها المشنوقة على الطاولة، كي تودي به؟! . . وكيف يضلل هذه العصبة المتواطئة عليه تبغي وأده قبل أن يستكمل ما كتب اللّه له من عمر،

---

(٢٣٩) لا مناص . . فحتى متى أبقى مختبئاً؟ ومنذا سيقوم على خدمة الزبائن؟! . . ومن أين أجيء بسفاني؟! . . فهل أخلقه . . هل أخرجه من باطن الأرض . . هيا انهض . . انهض (لنفسه).

يقضي بعده بهدوء وسلام؟!.. واصطفق القوري بيده فأخطأت البلبولة[٢٤٠] قلب الفنجان وساح السائل الأحمر في الصينية.. ليت حزاقيل يأتي فيشغلهم عنه.. ثملاً سكران يريده.. شِيغِب قِرّابة وْديخل بالشّشّيم وْسيْيغ بُغيغ بازار[٢٤١].. جموحاً مجنوناً يأتي، يا ليته.. ثوراً مهتاجاً كالإعصار.. ويسب ويلعن.. ويكَسّر ويحطم ويدمر.. ويهدم دكان الشاي على رأسه ورؤوس العصبة المجنونة هذه.. يفدي مصيبته الكبرى الآتية، لا ريب، بدم عباد اللّٰه وبالكفر الأعظم الذي كان في الماضي يثقب طبلة أذنيه ويخدر جسمه ويثير نخوته على اللّٰه. وقال باب ليوي يتساءل «وينو سَفاني؟!» فقال خْليف «وينو عِزرائيل.. وينو حَزاقيل؟!».. هل مات حزاقيل؟!..

كان الحاخام جدليا يجلس في صحن داره ينتف لحيته الشيباء ويندب نفسه ويلعن ابنه.. عاق مارق وْمَ يْجوز إذا مَ يذْفِنّي[٢٤٢]. وكمحتضر يودع عمره باستعراض تفاصيل حياته، تمر أمامه أحداث صباه. كل يوم كشريط كدر يجري بمواجهة الدمعة الماسية المتلألئة في عينيه، ويتقلّب في تلافيف العمر منذ كفنه في مطلعه مع قماطه. وكان حزاقيل هناك في «ظهره» نطفة رجسة كخطيئة آدم، يحمله معه مذ غادر أربيل إلى بغداد سعياً خلف اللقمة وهو صبي ناعم الأظفار ومتقد الفكر. كان يحمله في صلبه كالجرثومة الفتاكة، ساعة آوته الأختان العانستان والطيبتان الممتلئتان مالاً وحسنات كالرمانة.. «طوبة» و«نوعَم» في سنوات خدمته للعانستين، بوفاء العبد الصالح،

---

(٢٤٠) البلبولة: فوهة الإبريق.

(٢٤١) شارب دن خمرة وغارق في ملكوت أخرى وفاقد صوابه.

(٢٤٢) لن يكف حتى يدفنني.

كان معه.. يتستر في جوفه.. وهو خفيف كالزبزب.. صدّيق وأمين.. ويشتعل رأسه حدة وذكاء، وروحه مشبوبة بالتقوى ومخافة اللّه وقلبه مفتوح للحكمة، لكنه لم تنكشف له حجب الغيب. ويجلس حاخام جدليا في صحن داره ويندب روحه. لولا طيبة قلب «طوبة» و«نوعم»، لكان الآن مجرد رجل كردي خادم ولمات ذكاؤه في رأسه أو لعله كان سيتحول إلى بدنه قوة هائلة جسدية، وهو الآن واهن خائر مسحوق جسده ومتداعية روحه، ليس بخادم كردي غير قميء كما الآن، وليس حليق هذه اللحية التي ينتفها له من خرج من ظهره، سخرية واستهزاء وهو بذاته ينتفها حزناً وحداداً. لولا «طوبة» و«نوعم».. لولا الطيبة والمال.. لولا هذه اللعنة المتوقدة في رأسه.. هذا العقل الثاقب، وصلاحه.. لولا ذلك، فيقيناً ما كانت في بيته ستقع الكارثة الكبرى.

وكان حزاقيل معه، يوم قالت «طوبه» لـ«نوعم»:

ـ أقِلّْ؟.. قَدَشوفو لْهذا الوَلَد شاطِـغْ وْفَهيم وابْنِ خْلال.. مَ حِيفِن غْلينو يِتمّ عَم آريص؟!.. وْيِخْدِم بِالِبْيوت؟!..(٢٤٣)

كان حزاقيل معه ساعة ردت على «طوبه» «نوعم»:

ـ إي وِنّابي. لا بَلَى حَلْقِك إختي.. مِنْ صِدِق حِيفِ غْلينو يِنْضاع هِيكِذ.. أقول لُو نُدِخّلو بالْمِدْراش يِتْعلّم تورا بَلْكَت صِدِق يِطْلع مِنّو شِين؟(٢٤٤).

---

(٢٤٣) أأقول شيئاً؟.. إني أتوسم بهذا الصبي مخايل الذكاء والفطنة والطيبة. أفليس مما يؤسف له أن يبقى جاهلاً (بالتوراة وأمور الدين)، وعوضاً عن ذلك يخدم بالبيوت؟

(٢٤٤) أجل بحق النبي. لا فض فوك يا أختاه.. حقاً خسارة أن يتبدد هكذا.. أرى لو أدخلناه المدرسة الدينية ليتعلم التوراة، فلعله يصبح حقاً شيئاً ما.

كان معه.. في لحمه. يصعد وإياه السلم. النطفة الرجسة في البدن الطاهر المشبع بالعلم وبالحكمة، المثقل بالطهر وبتقوى اللّه. كان هناك.. قطرة من دم فاسد تجري بعروقه مع تيارات دمه الصافي كمياه عيون شَقْلاوة وَسَرْسَنْگ[٢٤٥]، يتسلق معه قمم المعرفة اللاّهوتية.. يتربع معه بين «العشرة»[٢٤٦]، يقضي وإياه ويجادل بأمور تفضي حتماً للراحة القدسية ولسعادة الخلد المنشود.. الجمرة!.. وهج من نار لا تخبو في الدارين، لكنها لعنة آدم الأزلية.. و.. حزاقيل، رماد نار غير منطفئة. وانتحب الحاخام جدليا وهو يغمغم «الضّوْ يْخَلّفْ غْماد»!..[٢٤٧] الضّوْ يْخَلّف غْماد!.. وكان قدامه بخياله المصعوق المحروق، يتخايل بين سطور المِشْنا والجِمْارَة[٢٤٨] مع أقوال العلماء والصديقين.. قميئاً وخبيثاً كالجرذ، وكالعِرْق النجس المستخرج من اللحم الطاهر. ابنه.. سيف خطيئة ومسلّط على رقبته. قوة شريرة خرافية مشحونة في جسد أعجف وهزيل.. رذيلة منبثقة من قلب فضيلة، ولا يكفيها أن تسلك طريق المعصية، وتنحرف عن درب الخير وتحلل كل ما حرّمه الباري وتحرم كل حلال وفضيلة، فهي تتجاوز المحظور وتباري الشيطان فتزربه وتذله.. ثم تعلو عليه في غطرسة وشموخ.. فسيل نخلة يابسة ونحيلة لكنها تطوي في مكنونها السم الزعاف. ولده..

(٢٤٥) مصيفان عراقيان بالشمال.

(٢٤٦) العشرة، هم كبار الحاخامين الذين يملكون البت في أمور الدين.

(٢٤٧) النار تخلّف رماداً، أي الصالح يأتي من الصالح.

(٢٤٨) المشنا: فقه الدين، والتشريعات التي وضعها كبار الحاخامين في القرون الميلادية الأولى، والجمارا، هو اسم شامل لنصوص المشنا وما أعقبها من شروح وتعليقات عليها في التلمودين البابلي والأورشليمي.

هاتك ستره والباصق في وجهه في محفل خلق لا يحصى، وجماهير ترنو إليه بالسمع والأبصار ساعة «يذْرشْ»[(٢٤٩)] «بِصْلاةْ لِكْبيغي»[(٢٥٠)] في أيام السبت. ولده.. ومُذِلّه.. يخترق الحرم القدسي عليه ثملاً، فيعلو منصة الصلوات، يقرعها بيديه، ويسبه، ويسب اللّه، ويتبرأ من دين موسى، والناس تضج «نبال.. نَبال.. اطْلَعْ بَغّا»[(٢٥١)]، والناس تسأل عن هذا الكافر ابن الكافر، ومن يعلم يخبر من لا يعلم «ابْنو لِلْحاخام». ويخيم الليل في صحوة يوم السبت الأقدس.. واليرقان يصبغ وجه الدنيا.. أركان العرش تهتز.. ويميد الكرسي تحت سكينته، جل جلاله، ويكمد نورها فجأة. يموت الحاخام جدليا ميتة روحية وتقدده مدايا الاستنكار.. فتغلق أبواب الرحمة أمامه بمتاريس لعنة بشر لا يدرون أن عذاب تربية الأبناء تهون أمام تباريح لعنة بنوة هذا الابن المارق.. إنه سيودع شيبة الأب الورع الصالح في أعماق قبر مفتوح ينتظره بنفاد صبر..

كان يلطم رأسه ويخمش وجهه المزروع بشعور بيض ورمادية. كل شعاب الفكر تفضي إلى الكفر.. محال أن يرضى اللّه بهذا ومحال أن يحدث ما يحدث بدون رضاه. أحياناً، يتمنى ما حرّمه اللّه.. لو كان عقيماً.. لو جفت النطفة القذرة الرجسة في صلبه.. لو اختفت في برك دم ندّة[(٢٥٢)] دنسة في رحم زوجته؟!.. لو كان حرم النسل ولم يعقب.. هذا حرام أيضاً.. ولكن أليس حراماً أن

---

(٢٤٩) يعظ بالأمثال والحكايات والشرح.

(٢٥٠) الكنيس الكبير، من كنس بغداد الموغلة في القدم، يُقال إنه أنشئ بعد الجالوت البابلي.

(٢٥١) نبال: كافر ونذل، يقولون له: أخرج من هنا يا كافر.

(٢٥٢) الدم الندّه، هو دم الحيض الذي يعتبر نجساً في الدين اليهودي.

ينجب من ينتصر لإبليس ويُهين الرحمن في الصبح والمغرب وما بينهما؟! خطايا متصلة تحتضن هذا الكون عمقاً وبالطول وبالعرض. وهو موجدها بفريضة إنجاب الذرية.. إنه لا شك يورط عقله.. يدخل مع خالقه بمحاجة يثيره ظاهرها، لكنه لا يعرف مغزاها ولا حكمتها.. يقتحم الدراية الربانية، متخطياً الهالة المحظورة.. حتى هنا وكفى!.. «تيقو».. «تيقو»[٢٥٣].. للّه سبحانه في خلقه شؤون لا يدركها العبد.. ولكن، أحقاً أن الخالق مازوشي؟ «تيقو».. «تيقو».. ولماذا خلق تبارك وتعالى الشر في الإنسان، ثم حرمه على الإنسان؟! «تيقو»!.. ولماذا نفخ الروح في هذا الفأر المتقفع، وشحن روحه بالسم؟!.. «تيقو».. «تيقو»!.. وأسدل على قلبه غشاءً أسود، وجعل لسانه ذرباً بكلام الفحشاء، ليسبه ويهينه ويُقَطِّع في فروته النورانية اللامدروكة؟!.. «تيقو.. تيقو».. فكل شعاب الفكر تؤدي إلى الكفر. وأغمض عينيه المنتحبتين. قاسية التجربة ومريعة.. يبكي كي يغتسل من آثامه القهرية.. يختبره.. بالنار يحرق في أعماقه آثار جرم آدم وخطيئته الأزلية.. وحزاقيل يمرح برحاب وديان مغروسة بالأشواك، تقطنها حيات وعقارب.. يجلس في ميخانة[٢٥٤] وينتظر مسعوداً الشرطي. وخليف ينتظره كي يدفع بهياجه وعربدة سكره الأجل المحتوم، كي يرجئ الموعد.. وليكسر وليدلق وليفن الدنيا، فلعل أولئك ينسون سفاني...

---

(٢٥٣) تيقو. كلمة يستعملها رجال الدين حين يريدون الامتناع عن الرد على مسألة قد تؤدي إلى الكفر أو تتجاوز حدود ما هو مباح للإنسان أن يسأله في أسرار الكون، وتعتبر محاجة وجدالاً مع الخالق.

(٢٥٤) خمارة.

ويتحشرج الوقت.. وحزاقيل ظمآن للخمرة. يلتهب الكرسي تحت مؤخرته.. يترقب، وهو على نار حامية، عودة الشرطي كي يشرب خمرة الكون، ويغرق بملذات الدنيا، ويرى الأشياء كما خلقها من يتهدج قلب والده الأحمق له، وتخشع روحه وتذوب فيه. إن المتعة، إن كانت من صنع الشيطان فالشيطان الأقوى، وأنا أعبد من يفتح بوجهي مسرات هذا العالم.. إني لم آت الدنيا كي أحرم نفسي من أكل الثمرات المحظورة.. وأبي المأفون يقول «إن الثمرة المحظورة كانت بالجنة، وأن الأرض هي اللعنة المكتوبة على آدم.. زين يا دَماغ سِزّ، إذا صُدُگ اللَّه طردْ آدم مْنِ الجنَّه چيف اكل التفاحة،. يعني هنايا يگدر ياكل كُل شِي.. وإذا مَ يْصير هْنايا ياكُل كُل شي، وْدَيّاكُل، مَ خَلّي يطِرْدَه مَرْة اللّخ وِيْوَدّيه للجنة[٢٥٥].

مخيفة فكرة عودة الإنسان هذه للجنة، فجحيم إبليس أحلى.. الأرض جنة الشيطان، لعنة آدم العذبة.. وِين صار ابْنِ الموِمس هذا؟!.. وين صار مَسعود؟!.. يعني أبويا يگدر مَ يِنْطيه الْعَشر دَنانير؟!.. معقولة يِقبل أتْشَمَّد؟!..[٢٥٦] قسماً ببنات الضابط وصَدَيقه المُلاّية وبالقوادات جميعاً، لئن لم يعطه، فسأسلم هذه المرة.. حقيقة وليس كذباً، وأمرغ لحيته القذرة بتراب طولة الحجي حمزة أبو الجص...

---

(٢٥٥) حسناً أيها الغبي، لو كان اللَّه حقاً قد طرد آدم من الجنة لأنه أكل التفاحة، فمعنى ذلك أن بوسع آدم أن يأكل هنا ما طاب له، فإذاً كان محظوراً عليه ذلك، ومع ذلك يفعل المحظور فليطرده اللَّه ثانية، ويعيده للجنة.

(٢٥٦) أفيعقل أن أبي يستطيع أن لا يعطيه الدنانير العشرة.. أيعقل أنه يرضى أن أستبدل ديني؟!

كُلّ ما يْضيمْني ضِيم أسَوِّيها[٢٥٧]، ما الفرق؟!.. أسَوّيها جَري عادة.. خُوب مو راح الْبِسْلي كشيدَة[٢٥٨]؟!.. سأشرب وسأشرب، وسأهتك عرض من يگلي لَتِشْرب. أفيخشى حزاقيل أحداً؟!..

واستغرب، وهو يستعرض مزهواً غزواته المشهودة بين الأمس واليوم، أن يحوي الشيء الواحد الضد وضده، فهو مثلاً قد جاء قميئاً مثل أبيه يابساً جلده على عظمه، ضامرة عضلاته، حين يمتلئ جوفه خمراً لا تحمله الأرض، ويطير في نفخة، ومع ذلك يتحاماه الناس ويخافون عضلة في فمه تتحول فوراً حين يشاء، إلى مدفع رشاش، تتوالى صلياته الفتاكة وتقتل كل من يعترض دربه دون استثناء «سفاني ابن العاهرة، صانع خليف الچايچي، هَم دَيِحْسب نَفْسَه بني آدم وْيگعِد يِخْطب للناس.. مثل ابويا مِنْ يِدْرش بالتوراة وِيْقَشْمِر العالم»[٢٥٩].. ، ولو لم يكن الناس بأرذل منهما لما استمعوا إليهما وإلى هذيانهما العفن المنتن.. سفاني وأبوه يريدان إصلاح العالم، كل بطريق يفضي إلى عكس طريق الآخر.. وهو قد اكتشف القوة بالضعف، والله في إبليس، والمتعة الحقة فيما يشكو منه بعض الناس ويبكي.. وها هو يفعل ما يحلو له.. يعزف العود ويغني، ويحظى بمال أبيه، وبهذا المال الحلال، على زعم أبيه، يخلق عالمه الذي ينهى أبوه عنه، ويراه الموبقة العظمى. يشرب..

---

(٢٥٧) أفعلها (أي استبدل ديني) كلما نابتني نائبة، والمقصود كلما أحس بالحاجة إلى النقود.

(٢٥٨) سأجعلها عادة جارية، فلست سأعتمر العمامة (أي أصبح رجل دين).

(٢٥٩) سفاني خادم خليف يحسب ذاته آدمياً ويجلس فيخطب بين الناس، مثل أبي حين يعظ بالكنيس ويخدع الناس ويغرر بهم.

يرتاد الكلاچية[٢٦٠].. يشتم الناس (الأشرار) علناً.. ويسب جهاراً السلطة. وظمأه للخمرة يشتد الآن ويستفحل.. ويضيق ذرعاً بتأخر مسعود الشرطي. مسعود الشرطي، كالعادة، حين يعوزه ثمن القنينة يبعث مسعوداً لأبيه.. وكالعادة يعرف مسعود ماذا سيقول للحاخام جدليا.. «حزاقيل يْريد جِنسيْتَه. يْريد يْروح يِسْلم بالمحكمة».. ويعلم بأن الرعدة ستجتاح أعطاف أبيه الحاخام، وأن عقله سيفارق رأسه بمجرد أن يسمع أن حزاقيل سيسلم. ومسعود، مهما كان فهو شرطي، ويمثل القانون ويخيف أباه، إلا أن (إسلام حزاقيل) كان الهول بعينه.

ـ اسْتَغمِل وِيّاه عين حَمْرا.. گول لَهْ إذا مَ يِنْطيني الجِّنْسِية، تَرَى يْبات الليلة بالمركز. وعندئذ يهبط الحاخام من عليائه، يفقد هيبته قبالة سيف التهديد المُصْلت على عنقه، يسقط عند أقدام الشرطي، ويلثم بزته المتسخة الزرقاء..

ـ لا تْهِدَّه إذا مَ يِنْطيك چِمْ دينار[٢٦١].

واللعبة تنجح.. «اِشگد ما يِطْلَع مِنْه، نِغم اللّه، وآني وياك نِصْ بالنِّصْ»[٢٦٢].

استمرأها، وكمقامر متمرس مدفوع بالحظ المضمون، أضحى يزيد رهانه.. هذه المرة قال لمسعود:

ـ أفصلها وياه بْعَشِر دنانير.. فلس أقل، لَتِقْبَل[٢٦٣].

مبلغ محترم وواعد بمسرات لا حصر لها. لكن قضية النصف

---

(٢٦٠) الماخور في بغداد.

(٢٦١) لا تتركه ما لم يعطك بعض الدنانير.

(٢٦٢) مهما خرج منه (من نقود) نعمة، ونتقاسمها مناصفة.

(٢٦٣) أحسم المساومة معه بعشرة دنانير، ولا ترض بفلس واحد أقل من ذلك.

بالنصف هذه، أضحت كالسرقة العلنية «يعني أطَلِّعها من بير وَاذِبْها بْشَطّ»(٢٦٤)، بخمسة دنانير يمكنه أن يأتي بمعجزات لم يأتِ بها من يشيد أبوه بذكرهم من الأنبياء، بخمسة دنانير يستطيع أن يتوج نفسه ملكاً على الدنيا، ويسبح في يم الخمرة، واهبة السطوة والقوة والجبروت، ومفجرة الطرب والنشوة، والمحيلة للأوهام حقائق صلبة. بيد أنه لا يمكنه أن يرجع بكلامه، ومحال أن يستغني عن مسعود، فسيفقد مع فقدانه، كنز ذهب ما انفك يغرف منه فلا يعتوره النقصان. واحتار وهو على أشد الظمأ للخمرة، والقرم للحمين، المشوي والنيء، ومتلهف للقوة وللعربدة وللأنس والكيف، فاقد صبره، يتشقلب رأسه في الهواء شقلبات متنافرة تتأرجح به في عالمه المزدحم بالأحلام العسلية، «خَلّي يِجي بالأوَل وْبعدين أدبِّرها». . وبين ضيقه وحيرته ونفاد صبره، عرج دماغه على الأمس مزهواً، يذكره بما مرّ من غزواته، تلك الكاشفة له عما لا يعرف من أشياء. عيش وشوف. . ثمة مثلاً أشواك في الدنيا، لكنه إذا داس عليها خطأ لا تجرح أقدامه. أخطاؤه مردودة في جنة يحسبها الناس جهنم، سفاني ابن المومس، يبحث عن أسباب تبرر بكاءه ويحشر في الدنيا بحكومات (رجعية) ودماء وأباطيل «وما أدْري شِنو»(٢٦٥)، ليبصق عليها ويشجبها. . وأنا أراها على حقيقتها. . غانية غنجة أمسح عنها هفواتها، وأغفر هناتها لها لأعانقها وأترشف من فيها الخمري رضاب سعادة، يقيناً لن يحظى بها حاخام جدليا المعتوه، في عالم الموتى. إنه بكلمة يمحق الأخطاء ويحيل مغثاثه العارضة، مآثر فذة. . وإذا

---

(٢٦٤) أذبها: أرميها.

(٢٦٥) وأشياء لا أدري ما هي.

كان سفاني نتن الفم ويبدو له أن كل ما يتذوقه فاسد، ومخموم، وما دام في بلعومه خيط مرارة مزمن، فالذنب إذن ليس بذنب ماء دجلة العذب إذ يغدو في هذا البلعوم المشؤوم كالماميثا[٢٦٦]، أما هو فإن أجاج البحر يغدو في فمه شهداً مصفى. كانت الهفوات إذن، عارضة في عالمه الفردوسي الخاص «يلبسها في رِجله»[٢٦٧] ويواصل السير غير آبهٍ. ومسعود لا بدَّ سيعود، حتى لو كان قد مات موت الغفلة، ولأن مسعوداً رجل وشرطي، وأباه مخنّث ويخشى الشرطة، ويؤمن بوجود حكومة، فالتعبير عن الموت تعبير مجازي فحسب. وما كلفت به مسعوداً لمعصوم من هذا العطل الذي يمكن أن يحدث، فيما لو حلّ محل والده فقط. فهو حتى الأمس، بل وحتى بعدما حدث بالأمس، مصر على أن الحكومة التي ما عتم سفاني يتعوذ منها ويتوعدها بالويل، غير موجودة. ولا ريب في أن تجربة الأمس، كانت فلتة طبيعية لن تتكرر. بالأمس، وهو كالآن تماماً، مفلس وشديد العطش للعرق المستكي، أو الزحلاوي، لا فرق، وهو يستقبل الإحساس الراداري الباث في أعطافه إشارات دقيقة ومضبوطة، تنبئه بأن وقوده أوشك أن ينفد، وأنه يواجه خطر الصحو كغارة جوية، ستنقض عليه بقنابلها بين ساعة وأخرى، حزم أمره وفرّ إلى الملجأ. كان منتصف الليل وراءه، و«جَجّو» الخمار يتأهب لإغلاق الخمارة. وهو مهدد بالخطر الماحق.. خطر الصحو المهلك. وقال لـ «ججو»:

ـ جيب عَرَگ[٢٦٨].

---

(٢٦٦) الماميثا: بلاليط، أصلها حشيشة مرة الطعم زعفرانية العصارة.

(٢٦٧) أن يتنعلها كالحذاء، وهذا يعبّر عن الاستهانة بالشيء وعدم الاكتراث به.

(٢٦٨) هاتِ عرقاً.

فقال جَجّو وهو يسد الباب:

ـ خَلص عَزّلنا[٢٦٩].

ـ دااگلك أريد أشرب.

ـ وآني دااگلك عزّلنا.

فصاح به:

ـ تِفتح هسّه وْقُنْدَرتك فوگ راسك[٢٧٠].

وتراخى ججو، حتى كاد يترك أمره للّه، إلا أنه ما لبث أن قال:

ـ فلوسك.

ـ بالأول أشرب[٢٧١].

ـ يعني شِنو؟!.. عَزّلْتِ الدكان وأبَسْطه على مودَكْ وْفلوس ماكو؟!.. ليش عندي سَبيلخانة؟[٢٧٢].

ـ واشْ صار يعني؟!.. قابِل راح أموت ليباچر؟!..[٢٧٣].

ـ خَلّصِت.. ما عندي عَرَگ.. إنته مَ تفْهم عرَبي؟!.. دِزيح عاد مِنْ ناه؟!..[٢٧٤].

ودفعه، فترنح، وتدارك السقطة بشد أعضائه ومسك جسده. حشد كل مخاوفه من قرب حلول غارة الصحو الفتاكة. وكان هذا الصحو يقترب منه بسرعة، ليهاجم أفكاره، ليس كخيوط الفجر

---

(٢٦٩) عزلنا، أغلقنا.

(٢٧٠) تفتح وحذاؤك فوق رأسك، تعبير يعني تقوم بما أطلب منك وأنت ذليل طيع.

(٢٧١) أي أشرب ثم أدفع الثمن.

(٢٧٢) ماذا يعني ذلك؟.. أقفلت الدكان وعدت ففتحته لأجلك، وما من نقود؟.. ليس ما عندي سبيلاً، ينهل منه الكل بالمجان.

(٢٧٣) وماذا حدث؟.. أفتراني سأموت حتى الغد؟

(٢٧٤) قد فرغت.. وليس عندي عرق. فانزح من هنا إذن.

الضوئية بل كالأضواء المتدفقة الكشافة الباهرة التاركة بمجالات الرؤية بحار بياض مؤلمة ومن غير قسمات.. عشوة الناس المحرومين من الخمرة.. من فردوس الأرض.. و«جَجّو» يستأسد فجأة ويمضي في إنزال خصاص دكانه، وعندئذ انطلقت برحاب كيانه صفارة الإنذار. تهيأ لمجابهة الغارة بمقاوماته الأرضية الخاصة. عضلة فمه مشحوذة ومعدة وعلى أهبة الاستعداد للإطلاق. وفي أرض الشارع أحجار كثيرة للرجم. وبإيعاز الرادار بدأ القذف على ججو، وعلى خمارته نصف المسدودة، في آن. صليات سباب مستحدثة ومبتكرة ومطورة لا يعرفها أحد سواه، وتكفي لتدمير جحافل جرارة من جيوش «العدو»، وتدمير معداته.. تِنْكَح[٢٧٥] كالهتان. وتُجمِّد ججو في موضعه وتلم عليه حثالات رجال الليل. سكارى وقوادون وشبانٌ قد خرجوا من ملهى أو من بيت دعارة، تِنْكَح أيضاً كالوابل، أحجار الرجم.. «ينفعِص»[٢٧٦] خصاص الدكان من فوق، وزجاجة تتهشم من أسفل، وحجارة تصيب جبين ججو، وتشجه، وهو ذاهل يشهد نبش أبيه من قبره وإخراج الداعرة أمه من الماخور، ويرى الساعة حليلته ترقد مع جحش، وأرحام بناته تتمزق من طعنات جذع توثية[٢٧٧]، يحمله حمال «زيوه كردي»[٢٧٨]، وهو، أي ججو بذاته، يركع كالبغل على أربع ووراءه طابور قرمپارية[٢٧٩]، يهرون دبره الممتلئ بالسوس.. ويشك حتى بهويته البشرية، فلا يدري أحقاً حلّ

---

(٢٧٥) تنگح: تنهال وتهطل وتتدفق.

(٢٧٦) ينفعص: ينبعج.

(٢٧٧) القرمپاريّة: اللوطيون.

(٢٧٨) الحمال الكردي، مشهور بقوته البدنية وقوة احتماله.

(٢٧٩) اللوطيون.

على الدنيا من صلب حمار، أو كلب؟!.. وهو غلطة رجسة غلفاء مطبوعة كثؤلؤلة على وجه الدنيا، أو أنه أصلاً غير موجود بمكان وبزمان؟!.. وإلى ألف جهنم الشجة بجبينه ونبع الدم المتدفق منها يغمر عينيه ويتحدر إلى فمه فيشربه وهو لا يدري، فلو كان قد أثر منه نفس واحد، لكان قد عاد وفتح الخمارة وصب كل ما فيها في حلق حزاقيل، فلعله يكرمه بسكوته، ويقطع عنه إشعاعات الموت هذه، وهو يتقلص ويلاصق الأرض، وحزاقيل ماض في إطلاق صلياته، ورجال الليل مجتمعون، حتى من أصناف مسعود صديقه بالبزز الزرقاء، ويأتون إليه. وتوقع أن يحظى منهم بقبلات كقبلات مسعود حين يغدو هذا الفم مدفعاً مشحوناً، إلا أن الأوغاد هجموا عليه مثل الصحو تماماً، ووضعوا «الكَلَبْچات» بيديه وقدميه، ثم ساقوه وهو يتمايل، غارق في معمعة السب وملحمة القذف والرجم، لا يدرك ما يحدث. وظل يزجي طاقاته البدنية المنهارة، ويتلفت نحو الهدف المبتعد عنه ويواصل قصفه بضراوة، ثم في منتصف الدرب أدرك أن شيئاً ما، يحدث له.. فأغمد فجأة سيفه، متلفتاً بين الشرطيين، وهو رغماً عنه ينقاد لهما مثل دابة، وقال مرتبكاً بالدهشة:

ـ هاي على خِير؟١.. وِين رايْحين؟!..

فقال أحد الشرطيين وكان يشبه مسعوداً بالضبط، على ظنه:

ـ نـأكُـل هَـريسـه.. لَـعَـد مَ سْـمَـعِـت دَيْـوَزْعـون هَـريسـة ابَّلاش؟!(٢٨٠).

فاحتج بإصرار:

(٢٨٠) .. أفلم تسمع إذن بأن ثمة هريسة توزع بالمجان؟

ـ لَكَ آني والْهَريسة كوجا مَرْحبا؟!.. آني أريد أشرب وبَسْ [٢٨١].

فقال الآخر، وكان أيضاً يشبه مسعوداً بعينه وبرأسه:

ـ عود بالمركز أطلب ويجيبولك قرّابَة.

ـ مركز؟!.. يا مركز؟!.. [٢٨٢].

ضحك الشرطيان، ومسعود الثاني شرح له معنى المركز، وقال إن المركز يعني الحكومة. وكان منهوك الجسم والخاطر فلم يضحك للنكتة، لكنه استنكر باستغراب:

ـ ايه!.. مَ تِحْچي معقول، ليش آني ما أدري إنْتَه دَتْمَزّق؟!.. ليش وين أكو حكومة؟!.. [٢٨٣].

لكنه بالمركز اختلط الإدراك عليه إذ شاهد أشياء لم يعتدها، وكلها يوحي بأن الشرطي شبيه مسعود لم يكذبه القول. بنادق وكنارات وبساطيل وشرطة في عدد الدود، وفي مكتب الضابط الخفر المتثائب مللاً ونعاساً، غزاه الصحو مقتحماً حصن عقله، فأراه ما كان ينكره على الناس. ومكث يجيل بأنظاره المصعوقة، مرتبك الفكر ويحك رأسه، يحاول أن يستوعب الغلطة العارضة هذه، حتى أفلت صوته من حنجرته ممهولاً بغرابة:

ـ هاي شِنو؟!.. أثاري مِنْ سُدُگ أكُو ضابط وْحِكومة وْقَلَبالِـغ، واني ما أدْري!.. [٢٨٤].

---

(٢٨١) وما شأني أنا والهريسة.. أريد أن أشرب وكفى.

(٢٨٢) أي مركز؟!...

(٢٨٣) هراء.. قل شيئاً معقولاً. أفتظنني لا أعلم بأنك تمزح؟!.. إذ أين يوجد حكومة؟

(٢٨٤) ما هذا؟.. اتضح فعلاً أن ثمة ضابطاً وحكومة وزحاماً، وأنا لا أدري.

فجاذب الضابط ملله ونعاسه وتثاءب أخرى:

ـ لَعَد إشْ عَبالَك بابا؟.. فَلَتانَة؟!..[٢٨٥].

ـ واللَّه عمي آني مَ عِندي كل شُغُل بيها.. فَلْتانَة مو فلتانة، آني شِيْهِمْني؟![٢٨٦].

ـ لَعَد شِيهِمَّك بابا؟!..[٢٨٧].

فقال يتباهى:

ـ واللَّه اغاتي مِنْ إنْتَه، آني ايْهِمْني أشرب واتْوَنس وَادُگ عود وأغني، وْخلّي نارها تاكُلْ حَطَبْها[٢٨٨].

ورأى صحوه البشع الغادر يعدي الضابط وينتقل إلى طلعته، وهناك لا يبدو أبداً كخيوط ظلمة متزاحمة ومتشابكة ومتينة، بل مثل إشراقة فجر ثمالته العذبة، وقال الضابط، وكان يكتم أنفاساً متثائبة مزعجة وملولة، وينحيها عنه:

ـ يعني إذا جِبِتْلَك عود هَسّه، تْدُگ وِتْغني مِنْ صُدُگ؟!..[٢٨٩]

فقال بحماسة:

ـ لِلصُّبُح... واحْسَن مْنِ الْگبّنچي وْداعْتَك.. بَسْ على شرط..[٢٩٠].

---

(٢٨٥) وماذا ظننت إذن؟.. فوضى؟.

(٢٨٦) أقسم أني لا شأن لي بها.. فوضى أو خلاف ذلك. فأنا لا يهمني.

(٢٨٧) وماذا يهمك إذن؟

(٢٨٨) أقسم يا سيدي، ما يهمني هو أن أسكر وأتمتع وأعزف العود وأغني، وليكن من بعد ذلك الطوفان.

(٢٨٩) لو أتيتك الآن بعود فهل تعزف وتغني حقاً؟!

(٢٩٠) أفعل ذلك من الآن حتى الصباح، وأحسن من القبنچي (وهو قارئ مقام عراقي مشهور)، ولكن بشرط.

ـ شنو هوه؟!..

ـ عَرگ وْمَزة.. ابن الزّفْرة جَجّو مَ رِضَى ينْطيني، لاَ عَرَگ وَلاَ مَزّة.. وأني بْلَيَه عَرَگ ومزة لا بِطْلَع حِسّي وْلا تِمْشي إيدي[291].

ـ زين مَ يْخالِف. بَلا كِت إذا دَتْقَشْمِرْني، تِدْري شَسَوّي بيك[292].

كان الصحو يحتله شبراً شبراً ويروعه. وهو يواجه هذه الغلطة المجرمة الخلسية، ويصارعها ويجاهد في قتل الفرصة قبل أن تسنح لسفاني، وأمثال سفاني ممن يتبجحون بوجود حكومة، بيضاء كانت أو سوداء، والضابط حذوه يبدو وكأنه يحمل في جوفه اللّه والشيطان معاً. وعلى سحنته مرآة خابية كانت، ثم شفّت، فانبلج داخلها سفاني وهو يصارعه في حرب بقاء بالنسبة له. كان ثمة في المرآة صوابه بمحاذاة غلطة الدنيا. لا يدري، بعد أيهما سوف يهزم الآخر، لكنه ظامئ ومتورط بالصحو الملعون المجنون، يرنو بعيون شبقة نحو «السُكْر العاقل» ويريده ليصحح به كل هفوات الدنيا. لا يهبأ بالتحذيرات والتهديدات، ويعلم بيقين أنه سوف يدحرها ويبددها، حين يسري الخمر في أوصاله كروح حياة.. وقامر ثم بتحدٍ ألقى أوراقه:

ـ اشْ مَ تْسَوّي سَوْي، خَشّْشْني جَوّا، وَرِّمْني تْوِرِّمْ، راويني نْجوم الظُهُر، خوب آني مِنْ هَسّه شايِفْها بْعيني.. عُود خَلّيني اعترِف

---

(٢٩١) أريد عرقاً ومزة فجحو ابن النتنة لم يرض أن يعطيني، وأنا بدونهما لا صوت لي ولا أعرف العزف.

(٢٩٢) حسناً. ولكن إن كنت تخدعني فأنت تدري ماذا سأفعل بك.

أكو حكومة.. شِتْريد أزْيَد مِنْ هَذي؟!..[٢٩٣] يعترف بوجود حكومة؟!.. يرضخ لخرافات سفاني، العاقل حاشا وكفى؟!.. وهو لا يعترف حتى بأصابع البرد الثلجية الممتدة في كل مكان.. حقيقة يصرعها سكره، ويكاد يحس بلمستها مع هذا الصحو الوقح المكتسحهُ كالموت التدريجي، ويراهما في رعدة الرجل الضابط المهتزة مع صحوه الآخر من تحت معطفه، مع إشراقة الوجه الحامض قبل قليل، وعلى طرف فم بصق عنه تثاؤبه وأمسى مع «بأبأته» الصقيعية ينهي ويأمر.. «ماكو حكومة.. ماكو حكومة!»، أما الأمر والنهي ذاك، فإنه رغم الطاولة، رغم البزز الزرقاء، رغم بنادق وسناكي، يدحض أوهام مجانين الناس، ويخزي سفاني. ويرى «المسعودَيْن» يمتثلان لصديقه العارض الضابط، من كان يمثل «السلطة المزعومة» والغلطة المنبثقة عن هذيان الصحو الكاذب، يغدو وهو يقشع الغلطة ويحاول إخماد هذيان الصحو، يقتل الصحو قتلاً لا رحمة فيه.

ـ هَسّه تْروحون، تْخِلْقونّا عود مِنْ جَوّا الگاع شوفولْكُم فَدْ واحِد عابر طَريق، يْكون دِهين شْوَيّه، تْصِلْخون مِنَّه فَدْ دينارين ثْلاثة، تْجيبون بيهن بطلين عَرَگ وْمَزّه[٢٩٤]

أين أضحى هذا الزنديق الكافر مثل أبي، مسعود خان؟!.. ولماذا الغلطة العارضة العذبة لا تتكرر كل ساعة؟!.. «اللّه يْعينك يا

---

(٢٩٣) افعل ما يحلو لك، ألق بي في السجن وورم جسدي ضرباً وأرني نجوم السماء بالظهر فأنا منذ الآن أراها قدامي، اجعلني أعترف بوجود حكومة فماذا تريد أكثر من هذا؟

(٢٩٤) اذهبا الآن وجدا لنا عوداً من تحت الأرض، جدا عابر سبيل متيسر الحال، انتزعا دينارين أو ثلاثة منه وبها هاتا عرقاً ومزة.

بُو طْلَيْ..»[٢٩٥] يا أبي الحاخام التعس البائس، ولماذا لا أتركه لحظة فأمضي لصديقي، ضابط السلطة المزعومة؟!

كان يتفوق في غثيان، وطلائع عساكر الصحو تتراءى له كرة أخرى، والغلطة الأولى انكشفت عن نكتة بذيئة ولذيذة وتشق على طلعة الكرة الأرضية مليون ثغر ضاحك.. ويبكي الحمقى «والمشخوطون»[٢٩٦]، وسفاني يبصق دمه النازف من أحشائه، ويعيش في وهم الكابوس القاتل. هل يمضي لصديقه الضابط ثانية كي يحيي معه حفل مصرع الكذبة السمجة على أشلاء فرية «السلطة»؟! آه لو أن الجرة تسلم كل مرة. قليلاً تردعه الغلطة العارضة الأخرى في صبح هذا اليوم، وهو بالعِمياوي[٢٩٧] يعود فجراً إلى بيت أبيه، مسروقاً ومخبأ في جيب النشوة العظمى ومغموساً بالخمرة، لكنه قرم للّحمين.. لا شيء يسير كما يتمنى له، حتى في الجنة تنبت أشواك في بعض الأحيان. كسل الصبح والقيء بين الحين والحين. تعوّد أن يقضي على نغص القيء ويسد عليه المنفذ، على لحم بطنه يستيقظ.. وثمة الآلية المشوية، والأرداف الملفوفة أيضاً. خرج يترنح. الخطوة بساعة. يقطعها ثم من دون إرادة يتراجع. الرأس طبل والسيقان خيوط.. مثل.. ليس مهماً مثل من، ولكن كيف يجمدها؟! كيف يجعلها صلبة متماسكة، أو بالأحرى مرنة كغصون البان، ومطواعة كمومس كاسدة شبقة لم

---

(٢٩٥) ليعنك اللّه يا صاحب الخروف، مثل له قصة مفادها أن رجلاً أجّر داراً وترك عند المستأجر خروفاً، فكان يرتاد البيت كل يوم ويمكث فيه ما يشاء بحجة الخروف، يقصد بذلك ما يفعله لأبيه المرة تلو المرة.

(٢٩٦) المشخوط: الذي فيه لوثه. المعتوه.

(٢٩٧) بالعمياوي، أي بطريقة العميان، اعتباطاً وبدون أن يرى ما قدامه.

يرتدها زبون منذ شهرين.. خامل وعلى لحم بطنه وبه رغبة جديدة للقصف، وللقصف. وترتد به خطواته، يدفع قدميه لأمام، فتدوران بـه كـالـدوامة ثـم ينـقـذف لـوراء «لـچ دَتِّـمْـشـيـن هَـشْـه لـو أنـــ.. عرضچ؟!»[٢٩٨]

مع من يتكلم؟!.. وساقاه منه وإليه، و«الميدان» في آخر الدنيا، ولو مرّ الوقت على هذا المنوال فلن يصل «الميدان» إلاّ على تابوت، بعد مئة عام أو مئتين.. وأعمل فكره، بشجاعة خاض غماره وهو يمخر في أعماق نهر من كوثر.. وواتته الإشراقة الفكرية. الدنيا كلها «ميدان»[٢٩٩] واسع.. وما دام ليس هناك حكومة، فهناك ماخور. بالتأكيد كل العالم ماخور. يعلنها، سفاني ابن المومس.. مرة واحدة صدق الخصم المجنون.. مرة واحدة، وليأخذها عنه. ورأى الميدان يأتي إليه.. ويبلغ حارته المنسية هذه، كمدّ النهر أيام الفيضان.. يبلغ بيت أبيه الحاخام. ولولا أنه اجتاز بيت أبيه، لكان قرعه وتساءل، ولكن ما أكثر الأبواب، وهذا باب يروق له.. حقاً. تقطنه «مومس» شمطاء وعجوز، لكنه أقرب كل الأبواب إلى ساقيه المترنحتين.. «تفاحة أم برهم»، قريبة ومعروفة وشمطاء.. والميدان يمد ويغمر العالم.. أفليس هذا ما قاله سفاني الكلب؟!.. قاله. فأسدى له جميلاً وحيداً وجليلاً.. إنه سيلف الشمطاء.. يغمض عينيه ويبدأ عمله ولحسن حظه أن عينيه في وجهه لا في أسفله، والفرق بين هذا اللحم وذاك، خرافة لا توجد إلاّ عند أبيه ومن يمضي في ركب أبيه. أليس لحم الكلب أحياناً ألذ من لحم

---

(٢٩٨) ويحك.. أتسيرين الآن أم أنتهك عرضك؟

(٢٩٩) الميدان، حي ببغداد فيه بيوت البغاء.

الضأن؟.. كحكومة سفاني المزعومة، وكغلطة الصدفة المنكشفة عن عين صواب؟! وتأتي الكلاچية إليه تسعى، فينزاح عن صدره وقر بعرور[٣٠٠] نتن باهظ، كان البعر يتساقط من فم والده ومجانين البشرية حين يروون عن لعنة آدم التي لعنه بها خالقهم إذ قال له، على عهدة رواة الأساطير «بعرق جبينك تأكل خبزك». وحدق برهة بخيوط ساقيه وهي تتمايل تحته، وسحرتها نظراته، فاكتسبت متانة حبال قوية وغليظة، وأحس بنصف رضاءة، إذ كانت هاتان الساقان رغم سحرهما ما عتمتا مرتخيتين لا تثبتان على الأرض إلاّ بمشقة. وألقى بهما أمامه كصياد سمك يلقي شباكه في الماء، ثم اكتشف أنه طفل يلقي مصراعه في الأرض. دار حول نفسه في دوامة دورات المصراع، ثم تلقاه باب «تفاحة» كأحضان من فولاذ، وحال دون سقوطه، فترامى عليه مع طقة انفلتت من إثر تصادم الشيئين. حائط صلب وقوي، وجسده الفأري الحشري المشحون بطاقة سرعة الدفع العملاقة.. طقة، كفرقعة إطار سيارة، فرقعة مشروخة الصوت منزوع صداها عنها وكأن «التاير» انفجر بعد أن فش هواؤه قبل أن يثقب مطاطه المسمار العارض، أو مثل تجَشُئِه وهو مخمور وعلى لحم بطنه، أو مثل ريح يطلقه سفاني ليس من دبره الأعجف، بل من فمه العطن الزاخر بالزلات الفذة. غلطة عابرة ملعونة مقتبسة لأول مرة، وبتمييز مضطرب للأشياء، عن هنات سفاني هذا وحماقاته!.. بيد أن الطقة المكتومة على حد ما تصور سمعه، قد سُمعت خلف الباب بوضوح فلقد كان من المستبعد أن ينفتح هذا الباب فجأة وبتزامن كتوارد الأفكار، وهو عليه مركوم وشَبِق ويحشر في خاطره شبه

---

(٣٠٠) البعرور، هو بعر البهائم.

الغافي أفكاراً كجرس ساعة منبهة وجهيرة الصوت، وبوسعها أن توقظ حتى الموتى. وتراجع على غفلة منه، هذا الحاجز الثابت بعد أن كان يسنده بحرارة ورعاية تخلق فيه اطمئناناً لا يتزعزع وأماناً ينسيه حذره من غدرات الزمن ـ الصحو القادم. كان الآن يتكئ على كتف فراغ، فيميد بعنف ويكاد يهوي في لا شيء. لولا أن «تفاحة» صدته.. وكانت واقفة حذوه متسائلة السحنة المؤطرة بوشاح يعصب رأسها ثم يدور حول الوجه ويهبط إلى الرقبة فيسترها ثم يغطي الجيد. صورة أهم ملامحها ضائع تحت إطار ساتر ومشوهٍ. وأربكه أكثر من شيء واحد. مثلاً، ارتطامته اللامتوقعة بتفاحة، ثم حين ارتد عنها وتشبث بإفريز الباب من طرفيه، وتفحص المرأة، أربكه الشك. وبلحظة، طرح عقله عليه ألف سؤال، تفاحة أم برهم قبالته ملفعة بالفوطة، مندهشة العينين الورعتين الذابلتين، ومطأطأة الرأس.. أفيكون سفاني ابن الذفراء قد غرر به وخدعه؟!.. وهل يعقل أن تكون تفاحة هذه، «منهن»، وهي في الواقع تبدو من أنصار أبيه؟!.. وهل أن غطاء الرأس والعنق وأطراف الوجه هو موضة جديدة دخلت الماخور بين عشية وضحاها؟!.. أم تختلف الأزياء من حي دعارة لحي دعارة؟!.. أم لعل بغايا هذا الحي المبتلي بأبيه قد تأثرن بعظاته المسمومة فتحشمن وغطين الرأس والجيد، وارتدين لباس نسوة تقيات صديقات أسطوريات، موجودات بغزارة في كتب الحكايات[٣٠١] الصفراء؟!.. وتمحك فيه شك مجنون متطفل، وتفوح منه رائحة الحشمة وبأدب جم هائب، سالها

---

(٣٠١) كلمة عبرية، تعني الخرافات والحكايات الملفقة.

ـ إتْعَسِّين خالَهْ؟!.. [٣٠٢].

وسرعان ما طاشت توقعاته، وعجز عن إدراك مبعث الغضب الكاسح المتلبس وجه «تفاحة» بسرعة البرق، والمنصب كلمات من فمها تنهال عليه شتماً بدون مبرر، تلعنه، وتزجره وكأنه كلب مجذوم. ولم يفهم أبداً، لماذا أصبح لسان «أم بَرْهَم» الصامت دوماً، والهادئ والمتعثر حين ينطق، طلقاً كلسان البلبل، ولماذا تنعته الشمطاء وهي تغلق في وجهه الباب «مِقْطوع الرّاس» و«مِجْلود الرَّقْبَة»، ولماذا تنفعل وأنفاسها تلهث وهي تقول له بثورة، تذكره بإحدى ثوراته حين يزعجه أحد الأوباش «خَلّي يِنْقَلِـع.. خَلّي يِتْكَسّح.. خَلّي يْوَلّي..».. و.. «إنْشاللَّه تِسْحَقو سِيّارَة.. وعسى مَ يِطْلَع لِصْباح عْلينو.. وْيِثْكِل شْبابو».. [٣٠٣].. وأشياء كثيرة أخرى غابت عن ذاكرته أو سقطت في صهريج دهشته الصاعقة الكبرى. وبمعدة العجز ذي الأسنان المشحوذة الحادة، عن فهم الأشياء، كان يُطحن ويُهضم لأول مرة خلال حياته الحافلة بصواب الأحكام، وهو لا يملك أن يتفادى انغراز تلك الأسنان الهمجية في لحمه وعظامه وأفكاره المجرحة المرتبكة. ويتخاذل همة، وهو يشعر بإهانة وبأنه منزوع من ثقته الذاتية المعدودة، المكلكلة في كل كيانه كشجرة نبق ضخمة راسخة في صحن دار «أُمْ زَنّوبة» القوادة، قال للمرأة، الشاتمة والداعية عليه ما فتئت، من خلف الباب المسدود:

ـ واشْ صار عِنْدِچ؟!.. مِثْلِ الْجِلْبَة المَجلوبَة وانْفِتَحْتِي؟!..

---

(٣٠٢) يسألها، أتضاجعين يا خالتي؟

(٣٠٣) فليقتلع ولينزح ولينصرف.. وعلينو، عليه. ويثكل شبابه، يموت شاباً.

غير دَنِسْأل مِثِل الأودام؟!.. حِسْبالي بني آدم ودا احترمها واسميها خالتي هَمّينه!..[٣٠٤].

وانسحب، يتأرجح فوق زلزال، غضب الوهلة الأولى من غلطة عارضة وحقيقية هذه المرة ولا تشبه غلطة ما بعد منتصف الليل. ثم بسرعة داس عليها.. كان منها براء.. إذ كانت غلطة ذاك المحتال سفاني «شْلون أصدّگ هالأبْنِ الزَفْرة؟!.. شْلون اخَلّيه يضحك عَلَيّا؟!»[٣٠٥].. ولم تمضِ ساعات منذ أثبت له ولكل الناس الحمقى، أن عقيدتهم شبه الغيبية بوجود حكومات، ما هي إلاّ وهم يستوطن عقولهم المنخورة، وهو علّة إحساسهم المزمن بإجحاف الدنيا. وإذّاك صار الزلزال أرجوحة عيد. وبدفعة، ليس فيها تخاذل، ومنطلقة بالهمة العائدة لمنهلها في قرارة ذاته، بعد أن اكتشف مصدر الغلطة، ألفى ذاته بالميدان، وكأن الميدان جاء إليه بالفعل.

وقال لمسعود:

- بَشِّرني... سَبِع لُو ضَبِع؟!

ورآه يلوح بالورقة. واعدة ضاحكة وكطلعة الشمس. ورقة مخزون فيها أرطال من خمرة أمنان من متعة أطنان سعادة.. دنيا وردية.. ليال ذهبية.. عربدة الفردوس الأرضي الصاخب.. والأضواء.. وقصف اللحمين.. وحشو مسدسه المغمد خلف أسنانه. جرأة «غازية» المومس الحبشية العوراء، وشجاعة عنتر بن شداد. وملاهي بغداد.. والأنغام المسحورة المعقودة أطيافاً حورية

---

(٣٠٤) وماذا حدث لك؟ كالكلبة المسعورة وفتحت فاك؟! ألست فقط أسأل كالناس.. ظننتها إنسانة واحترمتها بل ودعوتها بخالتي أيضاً.

(٣٠٥) كيف صدقت ابن الذفراء سفاني وتركته يغرر بي؟

راقصة بغلالات زاهية الألوان وعطرية. مشمومة مسموعة مرئية. باهرة مطربة وتعبق الأنف وتهز الأعطاف وتسمو بالروح.. فيها ما لا يطاله أبوه وسفاني وكل الأوباش.. فيها هذه الدنيا المهدور دمها بمدايا عقول الأوباش المسمومة. وبلهفة قال:

ـ الحمد إللَّه عالْسلامة مسعود. أشو تْعَطَّلِت؟.. خُفِت لَيْكون أبويا لَعْفَس[٣٠٦].

ـ يگدَرْ يْلَعْفِس؟!.. مِثْل الْمَحْبَس وْداعْتك[٣٠٧].

فتساءل:

ـ لَعَد ليش تْعَوَگتْ؟[٣٠٨].

وتعثر لسان مسعود حتى حرره من عقاله، يتنهد:

ـ تْريد الصُدُگ؟.. هذا أبوك مثل ذاك بَلاع الْمُوس.. المِسْكين تْحَيّر.. وِگع عَلَيّا گلي اصْطِبِر رُبُع ساعة لَمّن أدَبِّرْلَك لفلوس.. خَطِّية. يَبَيّن م چان جَوّا ايده واتْمَحّن[٣٠٩].

فقال بتبجح:

ـ لا تْخاف عَليه، هيچي واحد ماكو عِنده؟!.. ايابا!.. يمكن امْصَمُّدْها بْفَد پِسْتوگه، والپِسْتوگه ضامُمْها جَوّا طابوگه، لو مَ دْري وين..[٣١٠]

---

(٣٠٦) لماذا تأخرت. خشيت أن يكون قد تمنع وماطل.

(٣٠٧) وهل يستطيع؟! طيع كالخاتم وحقك.

(٣٠٨) لماذا تأخرت إذن؟

(٣٠٩) الحقيقة أن أباك يشبه من يبتلع الموسى، جثا عند أقدامي وتوسل أن أمهله ربع ساعة ريثما يدبر النقود. مسكين، يبدو أن النقود لم تكن بحوزته.

(٣١٠) أمثله لا يملك النقود؟ يا للعجب. لعله يوفرها بزير، ويخفي الزير تحت طابوقة (بلاطة) أو بموضع لا أدريه.

تلقف الورقة. خفيفة كنسيم، لكنها تحتضن الكون بأسره. وتلمظ ببريق في عينيه، شهواني ويبدد الظلمات. وتراءى أمامه هذا الكون محيطاً من خمرة. وهو على ساحله يتأهب لإلقاء نفسه فيه. كالعادة، وبوتيرة لا يسأمها، بل يزداد كلفاً بها، ولن يستبدلها بكنوز الأرض، وتيرته العسلية العذبة.

ـ جيب عرگ.

هذا المعبود الحق، يتهدج له كتهدج والده لإله صارم متعنت، ويكبل مخلوقاته بقيود المحظورات، ويعاقبهم حتى أبد الدهر. كتهدج الحمقى لمعتقداتهم الجوفاء، كسفاني.. ومسعود ينتظر اللقمة.. خمس «دمامل».. لكنها حقه المشروع.. «يلله حَزاقيل.. عَبّر خَمِس دَنانير».. في فارغ صبر.. يترقب. «العَشْرة مَ مَصْرْفَة»[٣١١].. سيقول له «وإذا مَ مْصَرْفه؟.. هَسّه تِشْرب والْعَشْرة تِتْصَرَّف» وحين سيشرب سيغدو ثملاً وِخْوازدة[٣١٢]، لا.. «آني مو مِقِرْباز مِثْل أبويا»[٣١٣] أبوه يعد الناس، فلا يقبض منه أحدهم شيئاً. إنه سيتدبر الخمسة لمسعود. الآن ثلاثة.. وسيغرم سفاني بالباقي، جزاء خداعه وتضليله له «شْلون يِبْلِفْني وِيْگلي كل الدنيا ميدان، ويوَرِطني وِيّا تِفاحة الچِلْبَة المَجبلوبة.. واخلّيها بْچيسَه»؟!..[٣١٤]، وتساءل:

ـ بيش صارْتِ السَاعة، مسعود؟

---

(٣١١) أي أنها قطعة واحدة.

(٣١٢) الخواردة، الذي يبذل ما لديه بسخاء.

(٣١٣) ليس مقربازا كأبي والمقرباز، الذي يأكل أموال الناس.

(٣١٤) كيف يخدعني ويقول لي إن الدنيا كلها ماخور ويورطني مع.. ثم أضرب صفحاً عنه (أتركها بكيسه) أي لا آخذ حقوقي منه.

فأجابه بشيء من شك غامض شرع يعبث به:

ـ ثْلاثة وكْسور.. أشو دَتْسايل، ليش؟[٣١٥].

ـ لا. أگول انْطيك هَسه تْلَثْ دَنانير، وفَدّ نِصْ ساعة لاَح آخْذَك ونْروح عندِ خْليف الچايِچي وانْطيك الباقي.

ازداد شك الآخر وغمغم

ـ لَيْكون...

لكنه أسكته في إصرار:

ـ مو عيب عَليك مسعود؟!.. آني أسَوّيها؟!.. لَيْكون عِندك كُل فِكِر مِنْ هالجِّهة.. آني مُو مِقْرباز مِثْلِ أبويا[٣١٦].

---

(٣١٥) ثلاثة ونيف لماذا تسأل.

(٣١٦) ألا تخجل؟ أنا أفعل ذلك (أي أنكر عليك حقك)، لا تقلق من هذه الناحية....

١٢

كان يصب الشاي والقوري بيده مصاباً بالرّعيصة[٣١٧]. غمر السائل الأحمر الصينية وصحون الشاي. فرغ الإبريق ولم تمتلئ الاشتيكانات. أكملها بملاعق سكر. وفي كهف رعبه المقطون بالأشباح تمنى أن يتحقق أمر واحد من بين أمور شتى. أن يغدو لا منظوراً، أو أن يصاب بالخرس، بابا ليوي وحجي حمزة ومتانة سپير، أو أن يقتحم حزاقيل الچايخانة، كوباء، أما أن يظهر المارق الشيطان أخوه، فأمر لا يدخل في عقل، ويبعده عما يتمناه.. وأحداث الليلة المنصرمة يخشاها ويزجيها عنه. لا يجرؤ أن يفتح لها أبواب عقله المطروقة، وكأن فيها حتفه. أجل.. هي حتفه المنتظرةُ بين شفاه الوقت المزمومة. حين يتحرك في موعد حدده الوغد. لماذا جئت؟!.. ليش ظَلّ بالك غْلينو؟![٣١٨] أأوحى اللّه لكَ أن تأتي للدكان في منتصف الليل، لتبحث عنه، أم عزرائيل من ألهمك ذلك؟!.. حبه لسفاني داء.. حبه للشيطان!.. قد سقط بحبائل الشيطان!.. وفناجين الشاي تتراقص بين يديه على خشبة مسرح

---

(٣١٧) الرعيصة: نوبة الصرع.

(٣١٨) لماذا قلقت عليه وانشغل فكرك؟

الصينية، وعلى إيقاعات رق رعشته التشنجية المرتعصة. والصينية بركة من سائل أحمر. ما الفرق بين هذه الحمرة والحمرة الأخرى.. حمرة دمه؟!.. كان النذل يمسك بعصاه السحرية ويشير بها مثل موسى، إلى الأنهار، فيغدو ماؤها دماً.. يعبث بعيونه.. غدران الدم في كل مكان. تحكم العالم.. ثم بهذا الدم أقسم.. «مَ تْعايِنّي بَعَد»..

وضع الصينية فوق الكف.. لم يتكلم. كان ناشف الدم وغريقاً في لجج الدم. إن شيئاً لم يتغيّر. الدم فوق الدم.. وسفاني في الكف، وبابا ليوي فيها، وحجي حمزة العاقول، ومتانة سپير أيضاً في كف الدم. وتراكم الدم فوق الدم. فوة.. عصير طماطم.. قرون شياطين على أفخاذ بيض كجليد.. مخاضات خثرة حمراء مزرقة ورقاب خراف مقطوعة «الزلعوم»[٣١٩]. ونتف فراء صوفية مخضوبة وتبث روائح عطنة حمراء.. تستنفد أرواح بهائم، وتقيم حياة إنسان دموية.. ديك أسود مذبوح.. الدم!.. الدم!.. ثم ينطق الموتى.. يخرس الأحياء.. والحلم يقظة واليقظة كابوس والميت يبعث بعشر أرواح والعقل غائب.. سفاني غائب وخليف مجنون والوقت حديد والأفكار جمار والشيطان ملاك وسفاني موجود وسفاني شيطان وسفاني غائب والدنيا بحر والبحر دم والكون في إغماءة والبحر الدموي سلعة في الأسواق تعرض نفسها في كل مكان، وتناغي بلسان لا عجمة فيه «فُوّة يا دم!.. فوة يا دم!» وقال حزاقيل لمسعود الشرطي وهو يغطس في بحر الخمرة، في خمارة يلوح عليها وجه فقر، «آني مُو مِثْلَ أبويا، مِقِرْباز» وعاد خليف بسلام

---

(٣١٩) الزلعوم: الحنجرة والبلعوم.

إلى مربضه قرب الأوجار وهو غير مصدق. وكان يعلم بأن سلامه زائف، وبأن دوريس مومس، وسفاني سافك دمه، وأنه لن يرجع.. وأن القنبلة الموقوتة، موجودة. الآن أو بعد لحظة، سوف «تْطِقّ الْطِقّاقَة»[٣٢٠].

واستيقظ بابا ليوي في فجر يوم من مطلع أسبوع. فجر يوم أحد ضائع مع آحاد لم يعتد أن يحصيها. واستيقظ معه الحرمان واستيقظ الشك، واستيقظت الهمسات العجماء.. و«تَهَيَّر»[٣٢١].. باب الله لن يفتح في وجهه ما لم تطفح بالوعة أو يفيض مرحاض.. لن يحظى بالدرهم ما لم يغطس في القاذورات.. وهو عريان كالإبرة، لكنه مكفن بثوب حداد رجس منتن مصنوع من فضلات الإنسان وبقايا ما يقذفه من جوفه، بعد تعفنه وتأسنه. حياة صراصير تطريه. قَدَرهُ الثابت، مسمار مدقوق على جدار الدنيا.. ويوم أحد ضائع بين الآحاد. أسود وقذر ودنس وكريه الرائحة وفيه كفاف يومه.. وفيه علف الامرأتين.. وفيه طبقة أخرى من شحم، يعلو جسد الملعونة رجينة، المترهل. جرعة نضارة جديدة في جسد صبيحة النامي، وعلو وجهارة في صوت همساته الغامضة الملقي في روعه جرعة أخرى من الرعب. ماذا يمكن أن يحدث؟!.. لا شيء.. لا شيء. بزقاقه، لا شيء.. ويسوق حماره مع «ميخو» معاونه التلكيفي.. لا شيء.. ويصيح بأعلى صوته الضفدعي:

- نَزّاح.. نزاح چچمَة.. نزاح تَتّي!..[٣٢٢]

---

(٣٢٠) أي تتفجر القنبلة.

(٣٢١) تهير: تهيأ واستعد.

(٣٢٢) الچچمة، العين والمقصود بها البلاليع وحفر القاذورات؛ والتتي: المراحيض والقاذورات.

لا شيء!.. لا شيء.. لا شيء!.. ساعة، ولا شيء.. يسعى بحماره وبميخو.. «راس القرية».. «الراهبات».. «البيعة».. لا شيء!.. ماذا يمكن أن يحدث؟!.. لا شيء..

ـ عيني نزّاح.. مَ تِدْخل تْشوف اشَ اكو؟[٣٢٣]

البطة!.. وكالعادة لا شيء.. لا شيء بخلاف العادة.. لا شيء بخلاف حياته.. لا يقظة، لا حلم، لا كابوس، ليس بحي، ليس بميت، ليس بمسبوت.. أين سفاني؟!..

لم يخرج صوته.. لم يسمعه أحد.. كانوا جميعاً متناثرين على باحة الزمن الرحبة. في يوم أحد متصل بنهاية الدهر. فالق المنطق ومفجر تيارات الدم.. مختلط صبحه بظهيرته مع منتصف ليله. معتوه كالدنيا.. مجنون كالإنسان.. فاقد العقل كالمنطق، لكن حكمته أزلية. حكمة الخلق.. حكمة الأسطورة.. حكمة ما يحدث للبشرية.. حكمة ما يجري للكون. أخطاؤهما المزمنة المألوفة وهي تُعاقَب بالصفعة اللامألوفة، في ضحى يوم أحد أبدي لا ينفد.. في صبحه.. في ظهره.. في عصره.. في عصره وبعد منتصف ليله. في كل ثانية فيه. على أماد مجاهل رعبه ومفازات شياطينه وأحلام غيلانه وسعاليه وأنهار حورياته وآفاق سراباته. في سحره الأسود العادل وحقائقه الملتبسة كالأرواح الشريرة بأجساد أوهامه. ويقينه المُلقَى صريعاً تحت أقدام خرافاته.. يوم أحد، ساعاته متناثرة شظايا وفتاتات يحمل كل منها إنساناً مشدوهاً يغمس أفكاره في فنجان شاي لينفذ منه إلى كف دموية ملتصقة بصفحة

---

(٣٢٣) تدعوه وتقول له، هلا دخلت ونظرت ما الأمر (بالبالوعة).

(٣٢٤) الميز، المائدة والطاولة.

«ميز»[٣٢٤] متسخ ومخلع في دكان شاي. وتملص حجي حمزة العاقول من ساعته القدرية الملقاة بين أشلاء يوم الأحد الأبدي، وانهال بحذائه ضرباً على ظهر رقبة الشيطان وهو يردد «لَكِ شْلون تُوازيني!.. أي شْلون تْوازيني؟!..» ثم عادت ساعته المغناطيسية وجذبته بعنف.. ساعة من غير ضمير.. يوم أحد لا قلب له.. هيهات.. أفلأنه قال الحق، ولأني أنا المذنب، يصبح من غير ضمير؟!.. هيهات.. فأنصاف يوم الأحد الرائع، أنصاف لم تعهده مخلوقات اللّه.. عدالة الرب المدعومة بآياته وبراهينه.. الموتى نطقوا!.. «قُرْبان اسْمه، مِنِ يْريد يبينها، يْدوفْها فَدْ مَرّة»[٣٢٥]. وقال متانة سپير وهو يجهش «حِتّي تِعْغِف اللّه حَقّ واِسْمو حَقْ»[٣٢٦].. ولكي تثبت كلمات سفاني.. وكم مكث ينادي في أذنيك.. «ويحك، أنت ميت.. ميت أنت فعش.. عش ويحك!».. ولا جدوى. ولكزه أبوه في قلب الليل.. في ذروة حلمه العنبري.. وكان في حلمه إنساناً ويتكلم بطلاقة ويقرأ الكلمات ويخط الأسطر الملتهبة حباً، ويقول لخاتون من دون تردد «أحبك» وتتقارب الشفتان.. ويبدأ، الحضن والبوس. كانت خاتون تأخذ بيده، وتشير إلى لباس صغير رث أحمر تكشف أطرافه عن زغب وشعيرات صغيرة.. وهو يتأكد من أن ثمة في الداخل، هناك، شيئاً ما، لمسته سحرية.. وانتقلت في بدنه رعشة جبارة، سرعان ما كانت تتجمع بين ساقيه.. في أعلى ساقيه، بين أحضان

---

(٣٢٥) ذهبت قرباناً لاسم اللّه، فهو حين يريد أن يبدي آياته، يسوقها دفعة واحدة ويتمادى بها.

(٣٢٦) لتدرك أن اللّه حق واسمه حق.

الليل وخاتون، تدق مطارق.. وأوشك أن يستحْلِم، فلكزه أبوه بفظاظة وهو يصيح:

- لَكْ مِقْطوع إلْغاس.. مَ تْقُوم بَقَى.. لِي ايمْتَى تْظِلّ مِجْطول؟!.. مَ ساغ دِني صْباح.. قوم إلْحَق غوح لِلْمَصْلخ، قَبِل ما يْذِبْحون، وْغيغَك يغْثى بالصّوف[٣٢٧].

وفز منتصباً بآلية فوق سريره المتأرجح. ولم يستحلم. وفي بدنه اختلطت رعدة اللذة المغتالة مع رعدة الخوف المستيقظ. وتثاءب وتمطى في كابوس اليقظة. وكان حياً يفرك عينيه ويتململ ليموت. وتدلت «بطة» آثورية فاتنة الوجه حمراء الوجنتين وكحيلة العينين وصبية في سن صبيحة، من شباك بيت لصق البيعة، ونادت:

- عيني نِزّاح.. مَ تِدْخِل تْشوف أشَكو؟!.. أشو البلوعة مَ دَتّْبْلَع.

في صبح أحد ضائع بين الآحاد. أحد، لم يكن أحد يدري أنه سيصبح يوماً مشهوداً في تاريخ الدنيا. في تاريخ العقل البشري العاجز. معجزة فذة تتوج رأس الأسطورة. وقال بابا ليوي لنفسه: «أوّل اسْتِفْتاح»، ثم ولج وحماره ومساعده ميخو التلكيفي، باب المنزل.. وقال حجي حمزة العاقول وهو يعوج أصابع كفيه ويحملق في تلك الساعة المشؤومة «أشُو أجاني امْغَبِّشْ؟!.. أخو مَرْتَه الْعزّوري.. هوّه وْذاك الرّجال الأبيض أبو فَدْ عين.. تْشوفَه، تَفْلَه مَ تِتْفِل عَليه، وأشُو طِلَع نَبي اللّه.. آني اشْ مِدْريني مْعَلّم يَغْكوب

(٣٢٧) هيا انهض يا مقطوع الرقبة. فحتى متى تبقى نائماً (والمعنى هنا سلبياً) لقد أصبح الصباح، فقم والحق المسلخ قبل ما تنحر الخراف ويستأثر غيرك بالصوف.

يِطْلَع نبي اللَّه؟!.. ۏليش مَ گلّي أكو هيچي شِي؟!»[٣٢٨].

وللمرة الألف تساءل: «وينه سَفاني؟!» وبابا ليوي تساءل «وينو سفاني؟!» وتساءل متانة سپير: «وينو سفاني؟!» وكان يريده ليسقط على قدميه ويشبعهما لثماً.. وتساءل خليف من خلف أواني الشاي القذرة غير المغسولة: «أشو خَمْدو؟!»[٣٢٩]. فهل يعني هذا أنهم نفضوا منه أيديهم؟!..، ثم لطمته أحداث من وقائع الأمس.. يوم الأحد المشهود. أحداث دامية وتسمر الشعر.. هنا في هذا الدكان، وعلى الطاولة القذرة المهزوزة، رسم سفاني له قدره بالدم ووضع في أعماق حياته القنبلة الموقوتة. وتراجع خْليف. إنه لن يفلت من نقمة الأقدار، وها قد ربيت نغلاً فسعى إلى حتفي. وكان قليل العقل.. قليل الإيمان.. قليل الإنسانية. ألقى خبزهُ للشيطان، فهدم الشيطان بيته، وهدم عقله، وهدم إنسانيته الساذجة المسكينة، وألقاه في مصيدة الذعر.. في أشداق تهلكة لا مخرج منها. وقال لنفسه «تْلَقّى جْزاتك.. تِسْتيهل حِيل بيك»[٣٣٠].. في يوم أحد ظالم كافر مزروع بالهفوات وكأنه حقل عاقول وعوسج، ومرصوص بخزعبلات أشبه بحزاقيل ابن حاخام جدليا، توج صرح حماقاته، بحماقته المهلكة العظمى. جاء يبحث عنه. سفاني الكلب المجرم. جاء يسعى إلى موته بقدميه. وألفاه هنا في هذا الدكان.. هذا الدكان، ليتهدم حجراً

---

(٣٢٨) لماذا أتاني مغبشاً (أي منذ الغبش) شقيق زوجة عزوري. هو وذاك الرجل الأبيض الأعور. الذي لو رأيته، لاستنكفت من أن تبصق في وجهه (لتفاهته) وإذا به نبياً، ما أدراني أنا بأن المعلم يعقوب نبياً؟ ولماذا لم يخبرني سفاني بأن ثمة شيئاً كهذا في الدنيا؟.

(٣٢٩) لماذا خمدوا؟

(٣٣٠) تلق جزاءك.. فأنت تستحقه.. وليكن قاسياً عليك (يتشفى بذاته).

فوق حجر.. وليأت حزاقيل ليكسر ويدلق ويهشم.. فليهدمه فوق رأسي ورؤوس الحمقى.. وكان يبكي. حزاقيل يكترع الكأس الرابعة في الخمارة ويقهقه.. وتشبثت الرعدة بقسمات سحنة حمزة العاقول وبأطرافه وبإصبعه المعوجة، ولم تعطه أي فكاك. وقال لشقيق زوجة عزوري شريكه:

- هَايْ على خير؟!.. وين دَتْوَدّيني؟![٣٣١].

فرد عليه شقيق عزوري شريكه:

- دَنْفِضّ حَسْبَة لِفلوس.. يعني صارَت دَم؟!..[٣٣٢].

ووجف قلبه.. الدم!.. لكنه لم يدر بأن هذا الدم سيحل بعد قليل، محل كل الأشياء، وأنه سوف يغمر الكون وأن غدرانه ستغرق الدنيا، وستجرف معها عقله والأزمان وهذا يوم الأحد المشهود. ولم يعرف أيضاً أن هذا الرجل الأعور، الأحمر الوجه، الماضي معه ومع شقيق زوجة عزوري، بصمت وبدون أن ينطق بكلمة، هو نبي سيصنع المعجزة ويفجر الدم ويُنطِق الموتى، لكن قلبه وجف، رغم جهله. وكان الشيطان قد أغواه ثم بصق في وجهه بصقة حمراء.. وكان خوفه في حجم أسطورة كبيرة، أسطورة الخلق.. وأراد أن يطلق ساقيه للريح، ويعود على أعقابه كي يهرب لوراء.. وكان الماضي مسدوداً في وجهه موصد الأبواب. كان ثمة يوم أحد دبق لاصق بقدره، ولا مهرب منه. كان كجب أسُود متضورة يسقط فيه. بئر عمياء من غير قرار. وتشلّح بابا ليوي تم إتزر بالفوطة.. لا شيء.. لا شيء.. ولم يكن يبحث عنها. البطة الآثورية الفاتنة

---

(٣٣١) إلى أين تأخذني؟

(٣٣٢) لنحسم مسألة النقود.. فهي تافهة وليست جادة كسفك دم.

الغضة. ولكن، شتان ما بينهما.. شتان ما بين صبيحة المصفرة الوجه، وهذين الخدين الملتهبين.. وتملكه حرج ممهول بالرهبة، وأحس بأظافر الحسن، المشحوذة تندس عميقاً في روحه، وعنت عليه الهمسات المجهولة، وكانت تتصادى بغياهب ذاته، عجماء وجهيرة وملحاحة وغير مفهومة. لكنه لم يبحث عنها. كان مجرد نزاح.. مجرد حشرة.. صرصور، يقبع بيته في أعماق البالوعة والمرحاض. ويهش له ويواجه خطر الرغبات البشرية عليه، بشجاعة مكتسبة بالعادة واليأس والاستسلام، فلا يعكر صفوه إلاّ الهمس الغامض اللامفهوم. وكالعادة يتأهب للغوص في حفرة القاذورات. طوعاً، شرع يتأهب لإلقاء ذاته في البئر العمياء. ولم يبحث عنها.. ولم يحدث شيء بعد!..

كان يوم أحد ضائعاً في زحمة أيام الآحاد. وكان بابا ليوي غبياً وصغير العقل، وصغير الإنسانية، وصغير الأحلام، وصغير الإدراك. وكثير السهوة والنسيان.. وكان متانة سپير يمتثل لأبيهن بطواعية ورضوخ كطواعية حماره ورضوخة.. يستيقظ هلعاً في حندس الليل.. يخنق صوت حبيبته خاتون.. يُلاشي طيفها.. يخنق استحلامه.. يُلاشي ظل حياته المبعوث في الحلم، ويموت في اليقظة كي يصبح هذه الآلة الطيعة الصماء. وكان خليف يبكي ويجهش في صمت، في الأوجار.. وحزاقيل يعاقر مسعوداً الشرطي كأس الخمرة ويضحك في الحانة. والحجي حمزة مصطك الأطراف ويحاول أن يفلت من بين الرجلين ليفر إلى الخلف، فتصده أبواب الماضي الموصدة بإحكام. وكان باب ليوي يهبط في جوف بالوعة في بيت ملتصق بالبيعة تقطنه بطة آثورية، بضة ومقتحمة الحسن، وهو غبي وحقير وكالصرصور لا يعرف شيئاً. وكان متانة سپير يندب

عمره الضائع وحياته، على طاولة قذرة وموسومة بكف دموية مختبئة تحت صينية شاي. كان يناجيها من خلف الصينية ويتساءل بنفاد صبر: «وينو سفاني؟.. وينو سفاني؟!.. وينو سفاني؟!..». كان يفتش عنه في ليل رحلة عمره، ليقبل فمه وليفديه، إذ نطق بالحق كنبي حق. وكان برأسه عقل متعب ومجرح بقروح العجز. ودمامل في أفكاره موجعة ومفعمة بصديد أحمر مسموم، ويريد أن يفقعها وهو يطوي المرة تلو المرة رحلة كشفه الليلية، ويكبو بين تضاريس الهلع الرائع.. بالأمس وُلِد ميتاً على أقدام الرعب. أبوه يسحبه من بين أحضان حياته.. تلك الأحضان الأخرى.. أحضان الطيف الحلمي حين يمارس فيه حقه كبشر ويحقق أهواءه المسكينة التعسة. بالقامة الفارعة قام.. في عنوة بشعة انتشله الطاغية من حلمه واستحلامه.. وتلاشت الأطياف في زجرة والده الهمجية. صوت خشن وأجش يمتص منه بقايا نبضاته الحية، مثل ورق نشاف.. كالإسفنجة.. وقال سفاني له.. «تمرد!» وركب حماره وتوحد فيه. وكان قطعة محضة منه. فلذة غير منفصلة عنه. ويسوق ذاته ويسوقه في الظلماء.. ظلماء الليل وظلماء الفكر وظلماء حياته المغدورة. وتحول وحماره جزءاً من هذا الليل. وفي أسفله غصة. عظم شائك منغرز في حنجرة إحليله ويذكره بأطياف الأطياف. وألح سفاني مرة أخرى «قل لا!.. أنا ما اغوح.. قوم غوح إنتَه» لكنه قال «نعم» حتى من دون أن يفتح فاه. وهو وحماره وحدهما يتسكعان في كون نائم وتسامرهما أطياف الأطياف. وأقوال سفاني مقلمة الأظفار ومقتلعة الأسنان وليس فيها دبوقة. إنها لا تنشب، لا تلتصق، ولا تتشبث. منفلتة، تتزحلق على أرضية عقله المدهونة برغوة صابون لزجة زلقة. وكان برماً بدماغه ذاك وبنفسه، برماً بحماره.. برماً

بالأشياء جميعاً. وصاح بالدابة «ديخ!» وحاول أن يغسل عقله من قشرته الصابونية كي يستبدلها بطلاء صمغ دبق جاذب. وحاول أن يضع بفم كلمات سفاني أنياباً وبأطراف أصابعها مخالب، بيد أن محاولته طاشت بفضاء العتمة المتكاثفة الصامتة كطوفان من قار يصبغ وجه الكون ويعمي عينيه. وكان هو أعمى العين والفكر، ويمضي بطريق معلومة، تصبح في هذا الوقت، ومع خاطره الشارد، مجهولة، لولا حماره. فقد كان حماره، هذا الجزء منه، أعرف منه. وتهشمت همسته لحماره بين لجج القار، إلا أن حماره أسرع به. وشد لجامه كي لا يسقط عنه، ثم ضحك بدون سبب كالمجنون. وحملق في الحندس برهف السمع. والدرب مقفرة حتى من الطير. وقال لنفسه «اللّه سَتَغ» ولم يفضحني. كانت قامته الفارعة الممتدة لأعلى تخدع الناس. وكانوا يرونه حياً وملء ثيابه والعين، وكان سفاني، وربما خاتون، وهو معهما من يعرف هذا الخطأ الذي وقع فيه الناس، وكانوا على وشك السقوط في هذه الساعة بجوف خطأ آخر، بيد أن اللّه ستره، والدرب بلقع، وهو وحده من يعلم، بأنه رغم الشلل في عقله، فهو ليس بمجنون. ففي الواقع، كان أبوه من صاح به «ديخ!»، فأسرع. وصاح بحماره «ديخ!» فعدا. وهما وحدهما يخترقان قلب الليل. وظل يضحك حتى اختنقت عيناه بالدمع، ثم تبيّن أنه كان يبكي. وتبيّن أيضاً أن عبراته تنهمر من قاع رأسه كرشاش يتدفق من أنبوبة مطاط متصلة بحنفية مفتوحة، فيسح فمها مثل أعناق خراف المسلخ المذبوحة.. وهو يرش جنبات دماغه في قوة تنتزع الرغوة الصابونية، وثمة يد مجهولة تمسك بمكنسة خوصية وتكنس.. سفانيْ؟!.. خاتون؟!.. الحلم المخنوق؟!.. العظمة في إحليله؟!.. الليل الأظلم المقفر؟!.. لا يدري لكنه

ينساق كحماره المسرع نحو المسلخ. وكان هناك مسلخ آخر شامخ البنيان بقرارة عقله. مسلخ تنحر فيه أطياف بشرية وارادات. وهو الأول في طابور رجال تذبح من أعراف رجولتها، والجزار أبوه. إنه يطرحه أرضاً ويدو بإحدى قدميه على كراعه ويضع القدم الأخرى على صدره، وتشهر يده السكين وهو يثغو ويحاول أن يرفع رأسه. كان سفاني هناك.. وكانت خاتون هناك.. سفاني بكلماته النارية، وخاتون عارية إلا من خرقة صغيرة حمراء تستر فرجها بالكاد. بالكاد شرحة الفرج. هذا النبع المتدفق في وسط البستان، أما أشجار البستان فتكلكل أغصانها مقتحمة أطراف الخرقة. وكان معها قبل أن يصحو. قال «أحبك». أخذت يده بحنان ثم دستها داخل الخرقة.. لماذا الحلم وحده يفعل هذا؟!.. وتوتر إحليله ثم خنقته العظمة. وقال سفاني: «إنفض عنك ترابك ثم انهض» وكانت لكلماته أظافر نامية غضة ورقيقة سرعان ما انكسرت على قشرة عقله الصخرية.. أين اليقظة؟!.. ولماذا يغدو الحلم الوردي كابوساً فإذا به وحده وحماره في جوف الليل والبرد والحندس؟!.. ينساقان بدرب ملعوقة بلسان الموت، جرداء قفراء كهذا الموت؟!.. وتلمظ لسانه. كان فمه جافاً. وأحس كأن مرارات الأكباش جميعاً تفقع داخل هذا الفم. ثم من فمه تسري إلى كل أعضائه. وتلمظ في غثيان.. لا.. لا يمكن أن يُنحر. كانت أطياف الأطياف تتجمع. تتحد بالأطياف. وكانت حلوة كالقند. والتقط قطعة قند من رأسه وأذابها في فمه المر الجاف.. «أحبك!» قال لخاتون.. «لا خِلّيني أنام.. ليش مَ يْسيغ انته تغوح لِلْمَصْلَخ؟»[٣٣٣] قال لأبيه.. «لا بَلى خَلْقَك سفاني» قال

(٣٣٣) لا، دعني أنام.. أفمحظور أن تذهب أنت للمسلخ؟!

لسفاني: «سوف أتعلم أن أقرأ الأسود دون الأبيض». قال لنفسه «لازِم أسيغ آدمي واقِلّه لْخاتون»[٣٣٤]، لكنه كان يمضي. كان حماره يمضي للمسلخ، وهو فوق حماره. «ارْجَع!.. ارْجَع!..» وتردد ثم فاخت أفكاره.. وفشت.. كانت مثقوبة.. مذبوحة كأعناق خراف المسلخ. وداخله هلع وسواسي مرجف. بل كل حقائق هذه الدنيا النائمة المصبوغة بالقار.. كف أبيه «ثقيلة».. غضب اللّه الفادح.. كالساطور.. تهوي كف أبيه على وجهه كجحافل هذه العتمة.. وتدير له رأسه وتدير داخل رأسه دولاب هواء.. وتنزل على حدقات عينيه ماء أسود، وتعيده لمكانه في مربطه بجوار الجحش.. إنه يعرف كلماته. هذه كلمات قاطعة الأضراس ومخالبها مشحوذة.. كمخالب سبع.. «ويحك يا أعور العين!».. لا بل: «يا أعمى العينين».. وتفتت كل الباقي، فخاتون تستيقظ.. تسمع وترى.. حماراً وحماراً.. «حِيوان.. بُخَّة.. طِينايي مَلْ طِيبيث.. تَلّ أَعْفَر.. مَ فَدْ بَنْدْلَة»[٣٣٥]. طويل من غير جدوى.. مخنث.. دجاجة.. جنازة.. جنازة فوق حمار.. جنازة فوق حمار.. أين أنا؟!.. ولماذا لا تنقصف الدرب اليوم؟!.. وخيوط الفجر لا تبدو؟!.. وهنا لا حس ولا حسيس؟!.. وأنا وحدي وحماري.. ندان في قلب متاهة موحشة عمياء.. أأنا الأعمى أم الدنيا؟!.. أأضعت طريقي أو ضيعني الدرب؟!.. أم هل تاه حماري وتيهني.. ندي وصديقي وشقيق روحي وعقلي وحياتي.. وأين الناس؟!..

---

(٣٣٤) لا بدَّ أن أصبح إنساناً، وأقول لخاتون (أحبك).

(٣٣٥) البخة: الكليل البطيء الحركة والتفكير، وطينة طيبيث، كذلك، وطيبيث شهر عبري يقع في الشتاء، وتل أعفر، كذلك أيضاً، أما فد بندلة، فتعني التافه والذي لا قيمة له.

أماتوا جميعاً أم مت وحدي.. أشو لا
وَلا جِنس؟!..[٣٣٦]. وامتص لسانه لي
مصراناً جافاً لبهيمة عجفاء، داخل فمه..
حتى الآن؟ مَ قَتِخْلَص الْقَبورَة؟!..
والِمْياتي بَسْ صُوبي. زين والضْوايات مَل
بَيْنِتْ؟![٣٣٨].. وتجمد فوق حماره..
يمضي.. «أمي!.. أنت الآن قريبة، وأ
وفي هذا الرعب الآخر كان يبكي ويله
وأبوه قضى نحبه، وسفاني زهقت روحه
الأنفاس. كان وحده تتحلقه أروا
گوزْجات[٣٣٨أ]، تعلو من أضرحتها الطي
الضالة الديجورية.. راس الچول مزار
العالم.. مَ تِخْلَص.. وأحس بزحام م
تتجمع من حوله، في عالمه الضال..
أموات العالم الأرضي. كان يشق طريقا
يشعر به وكأنه يعبر سوق الشورجة في س
شورجة العالم الآخر.. شورجة الد
والأشباح.. شورجة دكاكينها تعرض الدو
وباعتها هياكل عظمية وروادها أطياف.

---

(٣٣٦) أشو، لماذا.

(٣٣٧) القبورة، المقبرة، يقول: «الماذا لا نهاية للد

(٣٣٨) مهما مشيت، وما من أحد بجانبي إلا المو
أما كان ينبغي أن تتراءى؟

(٣٣٨أ) الكورجات: الزرافات والجماعات.

المثقل بالخدر المسموم وبالهول، وحماره معه، يبتعدان حثيثاً عن عصفور الروح، وعن عقرب الروح، وعن منقذ الروح. خاتون.. حيف غْليكي خاتون!.. أبي!.. غوح جيبو لصّوف!..[٣٣٩] ابلع صوتك الناعق واحشر صفعتك في جسدك من قبل أن تهوي على رأسي.. سفاني!.. لا فض فوك سفاني.. فمتانة ميت.. ميت!.. أمي.. أجئت لإنقاذي؟!.. لا.. لا.. فكيف ترضين؟!.. إني بعد، لم أفتح عيني على الدنيا.. لم أرَ شيئاً من عمري.. خَلّي باري أقِلّياها الْكِلْمي الْخاتون!..[٣٤٠].. دعيني أقول لها «إني أحبك» ثم خذيني.. أين أنا؟!.. وبين أمواج القار المتلاطمة وهو يحس بأنفاس الموتى، لزجة وثقيلة وتصفعه وتجمده وتصنع منه قالب ثلج، وهو في باطن طاحونة هذا الرعب الآخر اللامعهود أحس فجأة بحنين لحياة صدت عنه. كان وحده الميت في داخل معمعة قيامة الأموات، وبغريزة شبيهة بغريزة حماره، روع. كان يريد الآ يفقد بدنه الأرضي الهائل، ويتشوف أيضاً للروح وللعقل. وبآخر ما أثر فيه من أرماق مد يده المرتعشة إلى جيب جلبابه.. عود ثقاب!.. عود ثقاب!.. يبحث عن بصيص نور.. عن شرارة. لم يجد في كل جيوب جلبابه عود الكبريت. لم يجد الشخاطة بجيوب سترته المثقوبة.. أبويي.. أبويي ليوقف لك لا عَوون ولا حَطّاتْ[٣٤١] أين أنا؟!.. أين يمضي سعيه هذا؟!.. في أية جعبة يسقط الوقت؟!.. في أي موضع تتلاشى ظلمة الليل؟!.. أين

---

(٣٣٩) أسفاً عليك يا خاتون. أبي! أذهب أنت وهات الصوف.

(٣٤٠) يتمنى على اللّه أن يقول الكلمة لخاتون.

(٣٤١) يقول لأبيه، عسى ألا يحتسب اللّه لك ذنباً ولا خطيئة (العاوون والحطات عبريتان).

الكناس والزبال والقصاب وبائعة اللبن وأبو شاكر البصوان[٣٤٢]؟!.. لَكْ ديخ!.. إسرع يابن الجحشة!.. أتريد أن نفقد الصوف ونحظى بالقَتْلة؟![٣٤٣]. وصاح بصوت كقرقرة الريح في بطن متطبل.

ـ لَكْ ديخ.. ديخ!..

فرد عليه صوت خشن منسرع متكسر كجعجعة تجشؤة جهيرة وعميقة.

ـ مِنو هذا؟!

وبغريزة حيوانية لا تخطئ عرف الصوت، فانزاح عن بدنه القبر، ولوح جليد، وانضم إلى أهل البعث. و«حَسَبه»[٣٤٤] اللّه وخَلطه، مع أصحاب الدنيا هذه، وسحب «الرشمة»[٣٤٥]، فتوقف حماره في الحال، وغمغم بتجبجب:

ـ هذا آني.. مِتانة سپير.. وينَك انْتَه أبو شاكر؟!.. أشو ما داشوفَك؟![٣٤٦].

وسمع وقع الخطوات. وكان صوت أبي شاكر الحارس، يقترب منه:

ـ شْلون تْشوفْني بْهالّليل الأظْلم؟!.. إذا آني مَ شِفْتك.. هاي على خير؟!..

فبوّم صوته يتشكى:

---

(٣٤٢) البصوان، حارس الليل.

(٣٤٣) القتلة، تعني الضرب.

(٣٤٤) حسبه اللّه، وضعه في بغداد...

(٣٤٥) الرشمة: الزمام، ورسن البهيمة.

(٣٤٦) أين أنت.. ولماذا لا أراك؟

ـ اسْكُتْ وْخَلّيها. غير تهت!.. صارْلي ساعة عَالّزْمال، والمضْلخ ماكو[٣٤٧].

وضربته أنفاس أبي شاكر العفنة المشبعة بروائح السجائر، كما ضربته أنفاس جحافل الأجداث قبل قليل:

ـ ابني.. إنْتَه مُخَبّل؟!.. اشْ دَيّجي على بالك؟!.. انْتَه وين والمَضْلخ وين؟!.. بَعَد أكو تْلَثْ ساعات عَالصُّبُح[٣٤٨].

ـ يعني.. يعني.. أبويا حِرَمْني مِنها.. هِيچي عَالبَلاش؟![٣٤٨أ].

ـ أشْ دَتْگول مِتّانة؟!

ـ مَ خَلاّني اتْهَنى.. يْمكن، اللّه مَ يْكَذّبْني، چان فاضِل نِصْ دقيقة.. يمْكن ربُع دَقيقة، وْهُب.. جاني عَبالَك مَلاك الموت.. عزرائيل، الخاطر اموت بْجلدي.. صار لي ساعة دَتْفَرْفِح روحي[٣٤٩].

ـ لَكْ هاي اشْ دَ تَخَرْبِط؟!.. أخاف بَعْدَك نايم![٣٥٠].

ـ نايم؟.. آني طول عمري نايم.. وْيا ريت نايم مثل الأودام.. نُومْة أهْل البِلى، حَشاك. إي وْداعْتَك أبو شاكر.. صار لي سَاعة

---

(٣٤٧) دع، المسألة مستورة. ألست قد تهت؟!.. منذ ساعة وأنا على الحمار يغذ بي السير، ولا نصل المسلخ.

(٣٤٨) أمجنون أنت؟!.. ماذا يخطر على بالك؟ وأين أنت من المسلخ الآن.. إذ ما زال على الصبح ٣ ساعات.

(٣٤٨أ) أيعني هذا أن أبي حرمني منها عبثاً؟

(٣٤٩) لم يتركني أهنأ. كان قد بقي نصف دقيقة وربما ربع دقيقة، وإذا به يأتيني كملك الموت، لكي أموت بجلدي.. منذ ساعة وروحي تخرج من بين جنبي.

(٣٥٠) ماذا تهذي؟!.. أخشى أن تكون ما زلت نائماً.

وِيّاهـم. . كُلَياتْهـم طِلْعَوْ. . لُـو مـا صُـدُگ آنـي ضـارب وِيْـاهُـم بالْخاشُوگة، چان طلْعولي بْگورجَتْهُم؟!. . مَ دتَصَدِّگ أبو شاكر؟!. . وْراسَك هذا الحچي. . وْراسي آني. . وْراس خاتون. . وَأريد أشوف آني وين، وِمْنين طِلْعَتْلي هَالْگوزجات. . دَوَّرِتْ شِخّاطَة بْكُلّ جْيوبي، مَ لْگيت. . ثِوَلْني!. . حَتّى وِعي مَ خَلالّي بْراسي. . يِدْفِر بِيّا وِيْصيح. . يلله. . مَ ظَل وَكِتْ. . واني هَمْ على حِسّ الطَّبُل خُفَي يا رِجْليا[٣٥١].

ـ هاي مُو عيب عَلي دِتِّبْچي؟!. . ليش إِنْتَه جاهِل؟!. . لا حول ولا قـوة إلاّ بـاللّـه. . هـذا اشْـلـون أب هـذا؟!. . طَـيَّـرْلَـه عَـقْـلَـه للرِّجّال!. . .

ـ لاَ أبو شاكر. . آني مُو رِجّال. . آني مْخَنَّثْ. . مْخنث. . واشْ مَ يْگول عَلَيّا سفاني أخو خْليف الچايچي حَگ وِيّاه.

فقال الحارس باستنكار:

ـ وَتْصَدِّگ حَچي الناس؟!. . دفوت إبني. . إرْجَع للْبيت. . روح نْعَسْلَك فَد ساعتين زِمان. . بَعَد وَكِتْ، وْخُذْ لَك جيكاره تْعَلَّل بيها بالدَّرُب. . هَيّانَه بيتكم. . شَمْرة عصا. . گبِل مَ تِخْلَص السيگاره

---

(٣٥١) نائماً؟. . إني نائم طيلة عمري. . نومة الأموات، بعيد عنك. أجل وأقسم لك. منذ ساعة وأنا معهم. خرجوا جميعهم. لو لم أكن قد عاشرتهم (أكلت بالملعقة معهم) فهل كانوا خرجوا إليّ بجماهيرهم؟ ألا تصدقني؟ هو ما أقوله وحق رأسك العزيز. وأقسم وبرأس خاتون. وكنت أريد أن أعرف مكاني وكيف خرجت إلى هذه الزرافات من الموتى. بحثت عن كبريتة بجيوبي فلم أجد. قد أربكني أبي ولم يترك وعياً لي. يلكزني ويحثني ويصيح، الوقت تأخر. . وأنا، كالآلة، (أسرع على صوت الطبل)، أي أمتثل دون تفكير.

تْصير بِفْراشَك.. وَرِّث إبني.. وَرِّث![352].

واشتعل عود ثقاب. خيط النور في العتمة. كان يريده في رحلة الموت. فظيعة وطويلة ومريعة كحياته، ويقشعر لها بدنه وعلى هبهبة الضوء الشاحب شاهد وجه البصوان، حنوناً كوجه خاتون. واختلط ثم، وعلى غير إرادة منه، وجه أبيه كذلك.. وجه، كموقد جمر يتلظى.. وجه، يحتقره ويبصق في وجهه. وجه البصوان يرثي له. وجه خاتون يحبه في الأحلام ويحيره في اليقظة. وجهه، يرمقه البصوان. مترطب بالدمع الأسيان.. وجه خنثى.. وجه أحمق فاغر متسائل... وجه غراب أسود. وجه هذا الليل بعد أن انطفأ عود الكبريت.

شمرة عصا!.. ودفر بساقيه، حماره وصاح به «دِيخ!»، وسحب نفس سيجارة. ورغم أنه لا «يشربها» إلا حين تثور نفسه، وتهيج عليه همومه، مرة في الشهر أو الشهرين، فقد حلّ الدخان المر التفل النكهة على فمه، كقطعة لوزينج. كان ملتاعاً. غبائنه في أمعائه تقرقر وتقرصه كمغص حاد. وكان في رأسه أكثر من نبع متفجر، ويحفر مجراه داخل نفسه روافد وأنهاراً. كان ثمة نبع الرعب الباردة مياهه كمياه عين الكبريت في الموصل. ومثلها قارصة وتمتص روائحها روحه. كان ثمة نبع اللوعة المتأججة كحمام العليل الساخنة مياهه الفوارة. ونبع ثالث دموي.. نبع الحرمان.. وينابيع كثيرة. نبع الحزن، ونبع الحب، ونبع البغضاء، ونبع حياته، ونبع مماته،

---

(352) أَوَتُصدق ما يقولونه؟ أذهب الآن للبيت. أمض ونم لك ساعتين، فما زال متسع من الوقت. وهذه سيجارة تسامرك بالطريق. هوذا بيتكم.. على بعد إلقاءة عصا. ستصبحْ بفراشك قبل أن تحرق السيجارة. هيا أشعلها يا ولدي.. أشعلها...

ونبع إراداته المشلولة وقنوطه. . «غيون غيون»! . متفجرة بدماغه، في قلبه، في حشاشة روحه. وداخل بدنه، وتتدفق أنهاراً. ثم تصب برمتها في نهر هائل جبار تتناطح في أمواهه كل عناصر ذاته من فوضى وضياع. . في عتمة الليل الداجي. في رحلته الخاصة. رحلة كشفه وضياعه. وحماره خِلّه وسيجارة أبي شاكر تبعث في فمه أنفاساً عسلية، وتقتلع عن وجهه بقايا أنفاس الموتى الدبقة الباهظة المغروزة بمساماته كآلاف إبر مصنوعة من ثلج. وكلمات الحارس تتردد في أذنيه. . شمرة عصا!. . وها هو ذا بيتكم!. . وقبل أن تحترق السيجارة ستكون قد أصبحت تحت لحافك. . عجباً!. . وسحب نفساً آخر شهدياً. . أين إذن سقط الوقت؟!. . أين أضحت الأبعاد؟!. . هل كان لا يمضي رغم إسراع حماره، أم أن مسافات الدرب امتدت مثل مطاط مسحوب؟!. . حماره أعرف منه. وهو يعود به في الدرب المعهودة المتقطعة من فرط ما قطعتها حوافره آلاف المرات. . وحدهما. . في إسراء ليل ضاع قمره، واختفت نجومه تحت دثار غيوم متكاثفة طبقات طبقات، لكنها لا تمطر. شمرة عصا ويكون هناك. . عند أبيه. . عند خاتون. . تحت لحافه. . يجلله كغطاء أمان. لم يعرف قدره حتى الآن. وسيواصل حلمه، ويقول لخاتون «أحبك». . وينتزع العظمة المعترضة حنجرة إحليله. . لا بل تتراكم بمآقيه مخازن دمع. . تملأ زجاجات، ودناناً، وحباباً. . سيحررها عند العتبة. . لا بل هو رجل وليس بخنثى. . لن يبكي. . فها بكلمات الثورة تتكدس في طيات لسانه. . وسيواجهه بالكلمات «وْلَك أشو زْجَعْت؟!»[٣٥٣]. . وترتفع الكف الهمجية،

---

(٣٥٣) ويحك. لماذا عدت؟

لكن هيهات.. إنها لن تهوي بعد الآن.. سيرد عليه دون تردد وتلعثم.. «خاف اللَّه بَقَى.. خَلّي عِنْدَك وِجْدان.. غَخْمَة.. قِعَّدِتْني قَبِل تْلَتْ ساعات مِنْ الْصباح».. ديخ يا حيوان!.. يا جحش.. يابن.. يابن.. يابن.. الْجغيدي!..[٣٥٤].

جَغيدي؟!.. أتتجبجب ساعة، ثم تقول «جغيدي»؟!.. ولحمارك؟!.. يعني يلزمك عام لتقول لأبيك «كلا»، وعشر سنين حتى تقول لخاتون «أحبك». وستمضي حياتك هدراً قبل أن تتعلم العصيان وتتمرد.. وستشيب قبل أن تعرف أن تحيا.. كيف إذن؟!.. وامتص سيجارته بجنون. النفس العسلي الملقيه في أذرع سبات.. أينه؟!.. جزى اللَّه أبا شاكر خيراً لكن أين النفس الشهدى؟!.. بقايا حياته؟!.. بقايا عقله؟!.. وصراع بقائه في رحلة كشفه ومماته؟!.. كان يريده.. نفس الدخان الساحر المنقذ هذا.. قرصاً لصداع.. حقنة تخدير من قدره الغاضب.. وامتص السيجارة.. وشهيقه يسحب منها الروح.. لا جدوى.. فبمكان ما، فاضت روح السيجارة. نفدت مثل حبر قلم جاف في السطر الأول من مكتوب كان يسطره لمصيره.. لأبيه.. لخاتون.. للدنيا.. للناس جميعاً.. للَّه.. رسالة ما زالت مجهولة المضمون. فحواها غارق بمصب أنهره الذاتية.. ولم يقطع فيها بأمر بعد، بين يقينه وشكوكه.. بين إقدامه وتردده البائس.. بين حبه وكراهيته اللهفين الخوافين.. بين عقله وجنونه وموته وحياته.. نومه في أحضان الذل ورنين منبه العصيان الخافت الصوت.. صوت سفاني.. صوت ضميره.. صوت الدنيا الهازئة المزدرية.. في غفوة الأحياء

---

(٣٥٤) الجغيدي، الجرذ.

واستيقاظ الموتى.. في وحدته الموحشة هذه مع جحشه وظلام الليل. انطفأت السيجارة. لماذا؟!.. لماذا؟!.. ونفخها.. اعتصرها.. بالروح وبالأنفاس الملهوفة الملهوثة اعتصرها، وبالرغبة المشبوبة.. تسحبها رئتاه الفارغتان.. رأسه «الطبل» الأجوف.. طاقاته المخذولة التي لم يبقَ لديها إلاّ مطاردة خيط الدخان العذب الضائع.. «تكفيك حتى فراشك.. مَ تِلْحَكّ تِخْلَص» ومد يده إلى أحداق الكون العمياء وتحسسها.. السيجارة.. طويلة ما عتمت.. لكنها خابية مفقوءة العين الحمراء.. وقاس مسافة دربه بمسافتها.. «يعني بِعّادو الطَّريق عَلى إوَّلو».. وهي دليله.. وهي تميمته الراقية من عبث الأشباح والموتى.. وهي طاوية رحلته المشؤومة.. «لِيش نِطْفَيتي؟!».. عاتبها في يأس،.. ورأى طلائع الرعب تأتيه مرة أخرى. لا بدَّ أن تشتعل السيجارة كي يبلغ بيته. وامتدت يده تبحث بجيوب جلبابه.. بجيوب سترته الرثة المثقوبة.. عود ثقاب!.. عود ثقاب!.. لا عود ثقاب هناك. لا عود ثقاب في الدنيا.. أبوه استولى على كل عيدان ثقاب العالم.. أربكني.. لم يُبقِ لي وعياً.. أنساني حتى ان آخذ معي عود ثقاب «عَسَاك تْشوفا السّاعِتي يا عزرائيل»!.. لا!.. فُضّت الِعْكوسيات.. حَكي.. كَلِمَات[٣٥٥].. والكلمات ميتة لا تقتل.. كلماته الوجلة الموؤودة في صدره كالغصة.. وكلمات أبيه قاطعة كالموسى المشحوذ.. سفاني!.. أنت ولا يوجد سواك.. كلمات سفاني جواهر ولآلئ.. كانت منثورة تحت أقدامه،

---

(٣٥٥) يخاطب أباه، ويتمنى له أن يمر بما مرّ به، ويدعوه بعزرائيل. ثم يسخر فيقول، أبهذه الكلمات انتهى النحس؟! لا بل هذا كلام وحسب.

وهو تَنْبَل أبو الغِطبايي[٣٥٦]، يتمدد تحت النخلة مفتوح الفم، ينتظر سقوط الرطبة إلى داخل فمه.. «وْعِقْبا»؟![٣٥٧].. فقالت أمه:

ـ نْسيت لْحَقْت؟!.. كِنْتو كِلْ يوم أحْكيلك حْكِيّة تَنْبَل.

وتوسل في جوف الليل، وحيداً وحماره، وروح أمه تحوم حولهما مصحوبة بأرواح موتى بغداد برمتهم:

ـ لا تَسِيْبيني.. قِلّيلي أشْ ساغ عِقْبا؟[٣٥٨].

ـ عِقْبا؟.. جِتّ بِتّ السُّلْطان، قَالِتْلو، حِرِّكا الأيدَك.. حِركّا الْغِجْلك.. حِرّكو الْغاسَك.. اقْعِد؟...

وتذكر «لا أقدر!.. لا أقدر!». كان يقول التنبل. «حاول!.. حاول!».. تقول له ابنة السلطان.. وأخيراً، نفخت كلماتها فيه روحاً. وقام التنبل على قدميه.. خاتون.. خاتون!.. أفلست أنت ابنة السلطان، وأنا التنبل؟!.. فأقيميني من هذه الكبوة!.. وامتص السيجارة.. لا جدوى.. لا بدَّ من عود ثقاب يوغر روح السيجارة ويبلغني البيت!.. عود ثقاب موجود عند خاتون في البيت. وْلَكْ ديخ!.. لا بدَّ أن نخرج من هذه الورطة.. لا بدَّ أن نصل البيت، فلماذا تتوقف؟!.. ولماذا تنهق؟!.. يابن.. يابن.. يابن الجرذ المِهْلوس[٣٥٩]؟!..

وتقيأه الحلم الخاطف وبصقه في الكابوس. في حضن الديجور النفاث رعباً وخيالات معتوهة.. كانت السيجارة يابسة ما عتمت بين

---

(٣٥٦) تنبل ذو الرطبة، سمي كذلك لكسله المطلق، كان يتمدد تحت نخلة فاتحاً فاه منتظراً سقوط الرطبة في فمه.

(٣٥٧) وعقبا: وماذا بعد؟ .

(٣٥٨) لا تتركيني. خبريني بما حدث بعدئذ.

(٣٥٩) المهلوس، الضامر المدقوق، وبالعامية المسلوق الكائش الشعر.

شفتيه. وحماره يضرب بحوافره صدغ أرض التيه، وينهق. مزروعاً في موضع يتستر بالظلمة، وهو يريد إحياء السيجارة، وروح السيجارة هو عود ثقاب!..

وتعذب. وكان مسحوق القلب والعقل والروح.. وْلَك ديخ!.. لا جدوى. يرفسه.. يلكزه.. يدفعه دفعاً.. لا جدوى. «هَسّه وْتاليها ويّاك؟!.. انْزِل أعاين اشْ دَعْوة»؟[٣٦٠].. التنبل!.. هو. ملقى في جوف حكاية. هو في أحشاء أقصوصة، وخاتون الأميرة بعيدة. فمنذا سيضع جسدك المتجمد حذو النار ويقول لك «حرك قدميك؟!».. «لا لازم أنْزِل أشوف أشْ دَعْوة.. ليش هذا ابن الجغيدي اتْشَغّص بمْكانو!..»[٣٦١] تحرك تنبل، فصار إنساناً مرموقاً يحسده السلطان.. وقالت خاتون له: «تْحَرّك!.. انْزِل!..» «لا أقدر.. إني ميت.. أقسم لك بالحب الطاهر، إني ميت..» فابتسمت في وجهه، بسمة مغرية وحنونة: «كيف ستأتيني إذن؟!.. كيف ستخطفني لنشيد قصر المستقبل؟!».

اللعنة!.. عود ثقاب!.. عود ثقاب!.. لماذا لا تنفك تنهق يابن الجحشة؟!.. لماذا لا تتحرك أنت؟!.. أنا؟!.. لماذا أبكي؟!.. «هاي مو عيب عَليك تِبْچِي.. ليش، إنْتَه جاهل؟!»..

«بل آني زْمال مثل حماري.. زْمال وْشَرَفَك..» «ما دام الأمر كذلك فمت بالحسرة إذن.. إذا لم تتحرك فلن تأخذني».. خاتون؟!.. «يعني لازِم؟!». وقهقه وجه الرعب المسخ في طلعته الممسوحة..

---

(٣٦٠) وما آخرتها معك؟!.. أنزل وانظر ما الأمر.

(٣٦١) لا بد وأن أنزل لأرى ما الأمر. ولماذا تشرس (أي التصق بشريس وهو صمغ سبق ذكره) الحمار، ابن الجرذ بموضعه.

إبق إذن في أحضاني. أبداً لن يطلع الفجر عليك.. أبداً. وكان يبكي.. يتمخط.. عبراته ومخاطه يمتزجان على وجهه. يمسح عبراته ومخاطه بأكمام سترته القذرة.. عود ثقاب!.. عود ثقاب!.. السيجارة ابتلت وهو يتمسك بها كالقشة، وهو غريق في بحر الرعب.. أبي!.. اللعنة عليك وعلى أجدادك.. إن حسابي طويل معك، وحماري هذا.. إنزل!.. إنزل من أجل أن تصل البيت!.. وقالت خاتون «إنزل».. وقال أبو شاكر «إنزل».. وقال سفاني «إنزل».. وقال لنفسه «إنزل».. وقال حماره له «إنزل» وقال لتردده في إصرار: «لا بدَّ أن أنزل»!..

أغمض عينيه وتماسك ثم صار على الأرض. فتح عينيه وتماسك، فانبهرت أنفاسه ثم حلق فوق الأرض. «لَكان مَ كَذْبِت الْمِغْحومَة إمي.. تنبل مَ تْحَرّك عالّبْلاش»[٣٦٢].. تنبل حرك رأسه ويديه وساقيه، وإذاك أضحى أحسن من سلطان.. وأنا هبطت عن حماري هذا المغروزة أقدامه في مزرعة الليل والغيلان، لكي أصل البيت أخيراً.

اللّه ما أروعها!.. الجمرة المتألقة، عند قدميه في هذه المحارة الشركية المنطبقة عليه. وعلى حماره..، ما أحلاها؟!.. سبحان من سواها وألقاها أمامه في التيه، في الحلكة، في رعب خرافة الديوات[٣٦٣] وفي رحلة الاستكشاف الضالة اللامنتهية. في موت السيجارة.. وبغياب عود ثقاب. جوهرة حمراء تتوهج ناراً. بيضة

---

(٣٦٢) لم تكذب إذن المرحومة أمي. أن تنبلاً لم يتحرك عبثاً.

(٣٦٣) الديوات، حيوانات خرافية تشبه الإنسان، ذات شعر يغطي أبدانها، تنام وعيونها مفتوحة، وتضرب بالسيف فتموت، فإذا ثنى الضارب عادت إلى الحياة، وهي تأكل الإنسان.

متألقة ملتهبة. روح سيجارته المزهوقة المفقودة. مبعوثة وتنتظره على عتبات قدره وهو في مفترق طرق يفضي أحدها للموت وثانيها لحياة منشودة. أحدها لجنون مطبق والآخر للعقل. آلاف عيدان ثقاب متقدة ومتحدة في بيضة من نار. وتماماً تحت قدميه، تدعوه بلسان ذهبي براق، كلماته من نور محض. نوره أرواح. حيوات متلألئة وقادة. هدى، كالضوء الكشاف القاشع لسواد الليل الموميء بأصابع لا تخدع نحو الدرب. الدرب في حجم عقب السيارة. لن تحترق السيجارة حتى تكون بفراشك.. إقبس!.. ورّث!.. إفلت من هذا الكابوس!.. مسحوراً، مخلوب اللب والروح والعين والأنفاس، سجد للجمرة، وبين شفتيه السيجارة اللافظة الأنفاس. وجه خاتون يبرق في الحندس. وجهه يدنو منفعلاً. من وجهها ليبوسه.. الحلم حقيقة!.. وجه خاتون جمرة متقدة.. تتضمن أرواحاً. روح السيجارة الخامدة وروحه المسبوتة «ورّث!».. من خلف أنبوبة محشوة بالتبغ، سيمتص الروحين. اقبس!.. من طلعة خاتون، حياتك وحياة السيجارة.. لحظة مسحورة.. فتاة من لحظة متأملة في الصمت والليل. وحماره ينهق ما زال. وهو يمارس طقساً لا يحدث في العمر إلاّ مرة. كطقس ختانه، أو كزواجه من خاتون، يدنو من وجه خاتون اللامع ليقبله بالسيجارة. فتاة، شظية لحظة خائبة في جوف الصمت والنوم. لم يلمس الجمرة. انطاره امتدت قدامه خطوات. وقال بمرارة يعاتب وجه خاتون المتألق «هاي شِنو مِنّك؟!.. أشو قَتِنْهِزْمين مِنّي»(٣٦٤).

الجمرة المتألقة قفزت كيراعة. قبالته. حطّت. أدركها. سار

(٣٦٤) ما هذا وماذا دهاك؟!.. لماذا تهربين مني؟

حماره في إثره. ينهق.. يضرب بحوافره الأرض. يجفل ويجن مرة أخرى!.. مرة أخرى!.. منزعجاً من ضوضاء حماره.. إخرس يابن.. يابن.. يابن الجرذي المهلوس!.. دعني أورث السيجارة كي نصل البيت وننام.. لأقول له «كلا!».. وأقول لها «تَغَى أنا أحِبِك.. ساغلي شنين احبك»[٣٦٥] ولأنام وأحلم.. وأعانقها وتعانقني.. كي أستل العظمة من مجرى البذر والخصب.. وأمِد يدي داخل خرقتها الحمراء الرثة.. وسجد مرة أخرى للجمرة.. ومرة أخرى فرت منه الجمرة.. قفزت الآن.. خمس خطوات!..

مرة أخرى!.. يعدو. ووجه خاتون يعدو.. حياتي.. حياته تهرب منه.. البيضة النارية.. الماسة الملتهبة المطاطية. كرة قفازة نطّاطة في لون الذهب الأحمر.. الجمرة!.. ناره المرشدة الدالة.. المستقبل.. عقب السيجارة.. خطوات معدودة.. لم يبق إلا خطوات معدودة.. في رحلة الكشف الرائعة الفذة.. الملعونة!..

ملعونة!.. ملعونة!.. «أي مَلْعونة الوالدين قَتْلِعْبين ويّايي صِيدي؟!.. اصْطَبْغي غْلَيّي لَكان إذا ما أصيدك»[٣٦٦] اللعبة استهوته. كان يتحدى. لأول مرة يتحدى. ويمضي في أعقاب «خاتون» ويطارد حياته في غمرة الليل. ورأى أضواء الحارة من بعد، فأدرك أن الجمرة تأخذه للبيت، وكان يمكن أن يتثلج صدره وأن يتهلل وجهه وأن يتنفس الصعداء، لكن رئتيه التهبتا وانكمشت سحنته ولم يتنفس الصعداء، كان الآن يريد أن يلمس الجمرة وهي تلاعبه

---

(٣٦٥) اعلمي أنني أحبك.. منذ سنين وأنا أحبك.

(٣٦٦) يا ملعونة الوالدين أتلاعبينني لعبة الصيدي؟ وهي لعبة لا تمت بشيء للاصطياد لكنه استعملها لتوافق اسمها. إذن انتظري وسأصطادك حتماً.

«أول عَبْرَة»[٣٦٧] . . وكان يطمع بأن يرتشف منها حياة السيجارة وحياته . . وأن يحظى بقبلة ومن وجه «خاتون» النير، وهو يجوب الدنيا في رحلته الأسطورية. وها هوذا بيته. بينهما «شَمْرَة عصا»، من يد طفل . . أو قفزات ثلاث من قفزات جمرته الحلوة الوهاجة التي لا تتفحم أو تخبو. هذه الماسية الصلبة، المطاطية المرنة، المتألقة النارية، والقفازة مثل جرادة.

خلابة كدنيا مولودة بعسر بعد مخاض الرعب والديجور وهروب العقل. فتانة كطلعة خاتون الملقية بيديه قناعها عنها، ومزيحته بكف روحه الظمأى المكدودة، مغريته كحياة لا يلقاها إلاّ في أحلامه أو في كلمات سفاني. حصاد همة «التنبل» بعد سبات الدهر، بعد أن حرك رأسه وذراعيه وساقيه. وقال «سأصيدك» ثم قفز خطوات خمساً نحو الجمرة . . نحو حياته . . نحو البيت . . وخاتون . .

خمس خطوات! . . نحو نهاية عقله . . نحو عمره المسفوح . . نحو المسلخ . . يرتعش في قلب الكابوس . . تصطفق أعضاؤه فيهتز من تحته الكرسي . . ويرتجف الميز. قدماه تغوصان بمخاضة الدم . . خراف منحورة في كل مكان. حماره ينهق وجنونه في أعماقه ينعب مثل سرب غربان. الجمرة طارت. الجمرة! . . باب الدار تلاشى . . طلعة خاتون الوضاءة . . بحار دم تغمر العالم . . «لْشاش»[٣٦٨] خراف منحورة، هذا الكون . . ميتته الأخرى الأسطورية. سفاني! . . ابْدالَك سَفاني! . . يَعني خَلَص؟! . . مَ لِني

---

(٣٦٧) أول عبرة: لعبة القفز من فوق الظهر، ينحني أحد اللاعبين ويقفز الآخرون من فوق ظهره.

(٣٦٨) اللشاش: الأجساد والجثث.

تِقّونْ؟!.. ميت؟!..[٣٦٩] تتهالك أقدامه متعثرة بمخاضات الدم وجثث الحيوانات المذبوحة. يبحث عن باب داره.. تتهالك عيناه في أجزاء الكف الدموية المرسومة في قلب الطاولة المهزوزة القذرة، في دكان الشاي.. يبحث فيها عن قدره.. سَفاني!.. كيف لم أصدقك وأنت تجزم وتقسم لي؟!.. «ميت!.. ميت!».. وحياتي معلقة في كلمتين لا بدَّ أن ينفخ سفاني بهما الروح..

«لا».. و.. «أحبك يا خاتون»..

---

(٣٦٩) جعلت فداك يا سفاني، هل انتهى الأمر، أوليس لي أي خلاص (التقون بالعبرية يعني الإصلاح، وتستعمل الكلمة للتعبير عن مجموعة من الصلوات على روح الميت، لتطهيرها وجلب المغفرة لها).

١٣

قفز عقرب دقائق ساعة الزمن المتصدئ قفزة واهنة وصغيرة وحط على الرقم الرابع. وفي الساعة الثالثة والثلث، من يوم اثنين يقرض بهدوء ماكر وتأن مكتوم في أعمار البشرية، كان في دكان خليف الچايچي، نفر مسروقون، يحياهم الوقت في خلسة، وينسونه، وبغير تطابق معه ينفلتون لكي يحيوا غيره. ويعودون إليه في جزء من لحظة خاطفة باحثة متسائلة عن شيء منقذ مفقود، ثم مرة أخرى يجذبهم المغناطيس، ويتبعثرون على آماد يوم أحد فانٍ خالد.. متصل بنهاية الدهر. هناك أسقط الماضي مزلاجه.. وهناك اجتمع المستقبل.. وهناك كشفت الدنيا عن سحنتها، فتهاوت الأعمار في بؤرة أعجوبة منطق اللامعقول، مصعوقة بدهشة الأنصاف، والشك بسذاجة العادة والأعراف...

١٤

«وإني اشْ مِدْريني مْعَلّم يَعْگوب يطْلَع نبي اللَّه؟!»[٣٧٠].

في صبح يوم الأحد الأعجوبة المشهود في تاريخ قصور الإدراك، كان الحجي حمزة العاقول يسير بين رجلين. وندامته في حجم دمه. والماضي وراءه موصد الأبواب. لا يدري لماذا هذا الرجل الآخر، الأعور، الأحمر الوجنة. لا يدري إلى أي مكان يأخذه الاثنان.. لا يدري لماذا كحميره يمضي منقاداً لا يسأل. وقال شقيق زوجة عزوري شريكه:

ـ دَنْفُضّ حَسْبَة الِفْلوس.. خوب مو صارَت دم؟!

فوجف قلبه وتساءل:

ـ زِين وِلْوين رايْحين هَسّه؟!.. أشو اتطَلْعُوني مِن كُوچة وِتْخَشّشوني بْدَرْبونة.. أريد أفْتِهِم، على خير؟![٣٧١].

قال له:

ـ مَ تْريد حَقّك؟!.. وْداعتك حَجّي كل واحد ياخُذ حَقَّه.

---

(٣٧٠) وما أدراني بأن المعلم يعقوب سيتضح أنه نبي.

(٣٧١) إلى أين نذهب الآن. أراكما تخرجاني من زقاق وتدخلانني بآخر ـ أريد أن أفهم إلى أين؟

سمع نغمة خشنة فيها شك وتهكم. وتشرخ سمعه وتخرقت طبلة أذنيه، كما لو كان الصوت شعاع نور منحرف وطبلة أذنيه زجاجة بلورية يسقط خيط الضوء عليها وينكسر. يصبح في جوف رأسه تقريعاً للسانه الذي استخدمه إبليس سوطاً ضرب الحق به في قلب ضميره، ووعيداً له، بالوصمة الجبارة. «كل يأخذ حقه»!.. جملة كبيرة ليس كمثله من يدرك معناها، وكذلك الشيطان. ألا لعنة اللّه على الشيطان!.. لم يكفِ أنه أغواه، ولكن خَمِس دنانير فَدْ مرّة؟!.. چان خَلّيتني أگول فد شِي معقول عالأقل.. دينار.. دينار ونص.. دينارين؟!.. إي خَمِسْ دنانير مِنو يْصَدّگها؟![٣٧٢].

وارتدت قدماه، لكنها عادت رغماً عنها وانسابت لأمام، مع خطوات الرجلين. كان الحجي بينهما شبه مكتف والعودة للخلف شبه محال، وعاد يتساءل في خوف من نوع لم يحدث أن شعر به من قبل:

- مَ تْگلي على خير؟!.. أشو دَنْمِد وِاخنا رايْحين وْماكو..[٣٧٣].

فقال الآخر ببرود، لسع أذنيه، وانتفضت روحه منه:

- هْنايا، بْبيت شْلومو دَرويش.. كُلها خِطِوْتين لاخ وْنوصَل.

ولماذا بيت درويش؟! قال له، «إن بيت عزوري ما زال مشغولاً في عدة الميت».. معقولة.. لكن «لماذا» هذه ظلّت متشبثة في زيقه، فلماذا معلم يعقوب الأعور، أخرس أيضاً؟!.. ولماذا الحَسْبة

---

(٣٧٢) خمسة دنانير مرة واحدة؟.. كان عليك على الأقل أن تجعلني أقول شيئاً معقولاً، أما خمسة دنانير فمن يصدقها؟.

(٣٧٣) هلا أخبرتني إلى أين؟ أرانا نمد (بالسير) وما من نهاية.

صارت طْلابة؟![374]، ولماذا الشيطان وليس سفاني؟!.. وإذا كان بوسعه بعد مساومة حامية، شراء البغلة بدينارين، ولنقل حتى بثلاثة، فلماذا الخمسة إذن؟!.. ثم ما هذا الوجل المتورم في صدره وبقلبه، وبطنه وسائر أعضائه، مع أن عزوري ميت وْدَيِّقْرى هَسّه يا ليلي[375] في بلدة الأموات؟ ولماذا يضرب أقدامه لأمام فتعصاه وتكاد ترتد لوراء؟ ولماذا خلفه مغلق ومعزز بالشراعة؟!.. وداخ رأسه بـ «لماذا» فتولتها عنه يداه وأعوجت كل أنامله راسمة على وجه ملابسته الغامضة، شكل استسفار يتضمن ألف «لماذا» ثم سلّم أمره للَّه، ليحقق رغبة الشيطان، له.

في تلك الساعة، انطمس في عين حمزة العاقول، المغْلم الواضح الفاصل بين صفات الرحمن والشيطان. كانا في أعماقه ندين وهو متواطئ معهما، متورطِ في المزلق، ساقط في أغوار مؤامرة ثالوثية بسيطة. تدبير وأداء مع عون غيبي لتحقيق الخطة بنجاح..

كان حجي حمزة يمضي بين الرجلين إلى بيت شْلومو درويش وهو ساقط في أحضان هذا الثالوث الأزلي الخالد.. الشيطان والإنسان والرحمن!..

وكان بابا ليوي النزاح يتهالك أيضاً منطرحاً بين أحضان هذا الثالوث، لكنه لا يعلم شيئاً عنه. كان يسمع همساته اللامفهومة بوضوح. وكان يحاول أن يمسح عن ذاكرته أطياف البطة الموجودة، اللاموجودة، ويتأهب كي يغمس ذاته بمحتويات البالوعة عبر باب اللَّه المفتوح. لا شيء.. وكالعادة، وبجبلة حشرة مجاري عملاقة،

---

(٣٧٤) أضحت المسألة عويصة.

(٣٧٥) أي يغني الليالي (يا ليل يا عين) في مدينة الأموات.

يتغاضى عن آلامه بتواضع هذا النوع من الحشرات. وأنضى عنه ثيابه وأتزر بالوزرة.. لا شيء!.. ليس إلا حماره ومساعده ميخو. وفي عينيه المقردتين الدامعتين الحمراوين اللتين أفسدتهما روائح القاذورات، التصق طيف البطة برهة فأحس بعينيه هاتين وكأنهما مطروفتان.. لا شيء!.. كان يمتلك حساسية الحشرات في بيئتها الخاصة. هكذا طرد عن عينه «المطروفة» الطيف مثل قذى، ثم دس فيها «خشبة».. ليس رجينة، بعوضة تدخل عينه وتلتصق بكرتها. رجينة الفيل، «خشبة» وتشق مآقيه. ويحتمل الألم العابر والدمع، ويداوي نفسه كي يبقى صرصوراً. كان القمر أبيض غمامياً وبعيداً في كبد سماء، ليس فقط تقصر عن لمسها يداه، بل تخفق أيضاً عيناه الفاسدتان عن رؤيتها. حين يرفع بهما إليها، إنهما تنزان دموعاً وترمشان وترتجف أجفانهما أما الشمس، فنارية ملتهبة حتى وهي تطل في هذا الموسم من بين غمام بارد، مغسولة ومنتعشة.. إنها تطعن عينيه بالآف خناجر ورجينة، تغتنم الفرصة، حين تطل الشمس، فتضع الطست في صحن الدار، وتدلي شعرها، ثم تغسله في الشمس.. وقال يتهكم «خَلّي تِغْسِل شِعْفِتا أحسن» وكان يتوضأ في أفكاره كي يتطهر.. وكان يهم بنزول البالوعة، كي تغتسل الدنيا برمتها وتغدو في طهر ملاك. وكان تماماً، عند الفوهة حين سقطت الوزرة عن نصفه الأسفل، فلاحت أحراش شعر، ولحم نيء أبيض لم تلوّحه الشمس، ويشبه إلية كبش مكشوطة. ولاحت أيضاً اليقطينة. يقطينة منتعشة في دمن مجاري القاذورات، متورمة ومنتفخة كعجين مختمر منفوش، يعلو بفعل رقية همساته المسحورة. وبوجل وحياء جالت أنظاره بسرعة فيما حوله.. لا شيء!.. إلا ميخو وحماره والبالوعة. وبحرج قال آلياً لزميله:

ـ هَالْوِزْرَة بِتِّ الْبولة، اشْ وَكّعْها هَسّة مْنِ علَيّا؟!

فرد عليه زميله التلكيفي:

ـ وْليش هاذي أول دُوغة؟!.. هذا هُوّا شغلنا.. نِتْشَلّح وْنِنْزل.

حقاً. ليست هذه بأول مرة.. ومنذا يعبأ بعري الحشرات؟!.. من طبع الدنيا أن الحشرات عارية مِنْ گاعْها[٣٧٦] لكنه كان يعيش ثالوث حمزة العاقول، وكان يجهل ذلك، فلم يكن يتصور أن يقطن جسده الربعة المصنوع على هيئة بشرية، كل ما يحكم هذا العالم. اللّه.. والشيطان.. والإنسان. كان بابا ليوي يعلم بأنه أقل من هذا بكثير.. إنه أقل حتى من أن يقطن جوفه، الإنسان لوحده!..

وتدلى بابا ليوي في جوف الحفرة وانغمس حتى نحره بالقاذورات، وغرق ثالوثه معه.. وكان يغطس في فضلات دنسة لصبية فاتنة مقتحمة الحسن، آثورية وتدين بثالوث آخر. وكان هناك حشرة لا تعرف شيئاً من أمر الثالوثين، وتعمل في همة إنسان، بل في همة نملة ترنو الدنيا إليها عبر منظار يضاعف حجم الأشياء آلاف المرات، في صبح يوم أحد شيطاني رباني بشري. وفي هذا الصبح الظالم ـ العادل، كان حجي حمزة العاقول يمضي منقاداً كحماره بين رجلين. وبخلاف حماره، لا ينهق، لا يرفس، لا يتمرد، حين في سوق الغزل يشاهد البغلة الفاتنة البيضاء.. ملعونة البغلة وحميره وغواية الشيطان.. ملعون رفقه هذا بالحيوان، الذي انتعش بمشورة سفاني، وتغذى بفضل شح عزوري الراحل ولكن هذي اشْ جابْها على هذي؟!.. في منظوره تقواه المعتادة، اكتشف إثم الرغبة البشرية.. طمع الإنسان.. قوة إبليس الجبارة وخبثه حين يأخذ لحم

---

(٣٧٦) من أصلها وبطبيعتها.

بني آدم في لحظة ضعفه الشائن. كان دمية، تمضي في يوم أحد موسوم على جسد الدنيا كشهوة(٣٧٧) دموية على بطن طفل، وحمت أمه الحبلى بمعلاق(٣٧٨) جاموس، وحكت بطنها قبل أن تحظى به. دمية تتحرك بثلاثة خيوط فولاذية، تدفعها نحو خمسة دنانير مطروحة، ولا بدَّ، في بيت شلومو درويش، ووليدة كلمة حمقاء زرعها إبليس في فمه ثم أفلتها منه كمسخ.. دنانير خمسة.. عورة مسمومة كمسبة مقذوفة من فم أبخر نتن الرائحة، وفاحشة كلسان حزاقيل.. دنانير خمسة تنتظره عبر درابين ملتوية كضميره، بعد السقطة، وكأنامله المعوجّة.. في بيت درويش.. خدعة.. فرية.. وصمة.. عار.. وسواد وجه.. خمسة دنانير حصيلة كذب على الأموات، ولا مندوحة من الإبقاء عليها، ما دام الماضي سداً صخرياً محال خرقه، وما دام رجوعه عنها إقراراً بالعيب وفضيحة، وصمت الموتى كستر اللَّه وتستّره على نزوات عدوه الشيطان. وبمنظور تقواه المعهودة، مرة أخرى، استغرب «يعني اللَّه يْسَوّيها وْيِسْتِر عَلَيّا؟!.. معقولة ثْنينْهُم فَرَدْ شِكِل؟!»(٣٧٩).. بيد أنه استغرب أيضاً ألا يحدث ذلك. أجل، اللَّه يعلم، لكنه حتماً سوف يصمت صمت عزوري الراحل. اللَّه لا ينطق في دنيانا بلسان الإنسان الحي، فما بالك بالإنسان الميت؟!.. «وْمِنّ نا لمّنْ أموت تِلْحَگ ألف عمامة

---

(٣٧٧) الشهوة: هي الوحمة، وهي شامة كبيرة تظهر على جسد الجنين، وتكبر معه، ويظن الشعب، أن أمه اشتهت في وحامها به شيئاً على شاكلة الوحمة فحكت في الموضع الذي ظهرت فيه قبل أن تنال ما اشتهته.

(٣٧٨) المعلاق: هو رئة البهيمة وقلبها.

(٣٧٩) أفيعقل أن يفعلها اللَّه فيمنع عني الفضيحة؟.. أيعقل أن كليهما (اللَّه وغريمه إبليس) على شاكلة واحدة؟

تِنْگِلِب.. عود انطيها الخَمِس دنانير للمِعْتازين وأخفّر على ذْنوبي بيها»[٣٨٠]، لكن الحجي وبحصيلة ما يلمسه ويحسه، في ندمه الباهظ، في وجله وبجزعه بخلاف العادة، وبرغبته الملحاحة للعودة إلى الخلف بلا جدوى، كان يشهد تشويهاً في بنية العادة، وبرغبته الملحاحة للعودة إلى الخلف بلا جدوى، كان يشهد تشويهاً في بنية الأحداث المنسوجة بخيوط النزوة، في لحمتها وسداها. كان مسحوباً من دبره بحبال الثالوث. وكان يطلب مدد اللّه لإحقاق باطل الشيطان. وكان منفذ تلك الأحداث وضحيتها، ويمشي بين الرجلين وهو يحصد حيرة الإنسان ورعبه وندامته الكبرى، لا يعرف أي الأشياء يتربص به في عطفة الشارع القادمة، وماذا يكمن له في اللوفة[٣٨١] الأخرى. حقاً!.. «خُوب مُو صارَت دم؟» وقال كمن يخاطب ذاته:

ـ رُجولي صارَت خْيوط.. يابا مَ لازِم.. هذي هَمْ مِتْنازِل عنها.. والمرحوم مسامَح مِنْ اللّه وْمِن عْبادَه[٣٨٢].

هيهات.. وسخر الشيطان منه:

ـ لا حجي مَ يْصير. الحق حق، والمرحوم لازم يْنام بْگَبْرَه مِرْتاح.

هذه سخرية الشيطان العاتية الماضّة في العظم. يخور بها لسان الإنسان «الحِقّاني». وإذ صححها في عقله، وأعاد إليها حقيقته

---

(٣٨٠) من الآن وحتى يوافيني الموت ستتغير أشياء وأشياء. أعطي الدنانير الخمسة صدقة للمحتاجين فأكفّر بها عن خطيئتي هذه.

(٣٨١) اللوفة: المنعطف.

(٣٨٢) غدت ساقاي خيوطاً، أي غدت واهنتين كالخيوط. لا حاجة، فهذه أيضاً أتنازل عنها، واللّه وعباده يسامحون المرحوم ويغفرون له.

المعكوسة عليها، وجد الشيطان يتهكم منه ويقول «لَعاذْ اشْ عَبَالَك؟!.. هِيچي القضية هُوَيْنه؟!.. لا يابا، ردت بدل الدرهم خمس دنانير، دِروح خُذْها واشْتري الِزْمالة!» ولط راس إبليس بحذائه حتى أبلاه. وبح صوت ضميره المندهش الغاضب الفاقد صوابه، وهو يكرر «إي شْلون تْوازيني يا ملعون يا رجيم؟!»، ثم ولج يتوسط الرجلين، باب بيت درويش إلى صحنه، إلى أحشاء الدنيا.. إلى عرش مملكة الأسطورة.. إلى وكر السعلاة..

وولج بابا ليوي مع ثالوثه، باب الحفرة إلى جوفها وهو مربوط بحبل، إلاّ أن الحفرة كانت غير غميقة، فرست قدماه في القاع وغمرته المياه السوداء حتى نحره، وغرق بدنه العاري الأبيض بسواد الحفرة، وغرقت معه كل هواجسه البشرية وانتعش الصرصور واشتعل همة. وهز الحبل، فتدلى حبل آخر في أسفله «طُبْقية»[٣٨٣]، فتلقفها وهو يتمتم بحماسة «يا اللّه عْلِيك»[٣٨٤]، وامتلأت الطبقية ماءً خثراً أسود نتناً، واهتز الحبل، فارتفعت. وانحسر نحر باب ليوي وبانت أطراف كتفيه، وكانت مطلية بقشرة لزجة سوداء. وتضاءل عند «جوزة حلقه» ضغط خانق.. لا شيء!.. كان معتاداً على أضعاف هذا الضغط المادي، وجلدة «عقله» صلبة وصماء ولا تنفذ فيها بعد «مسامير» الرائحة المسمومة. عشرون سنة مرّت منذ تأقلم في هذه البيئة، ثم أطراه هذا الأسلوب من العيش. إنه ساعة يهبط، يشتعل همة ونشاطاً. عقله، يتجمع في جمجمة الحشرة، يمتص القاذورات

---

(٣٨٣) الطبقية: زنبيل من القش المجدول، من عدة النزاحين يستعملونه في نزح الحفر والمراحيض.

(٣٨٤) بمعنى: توكلت على اللّه.

بشهية. بمزيج من طبع الصرصور وموروثات الإنسان الدفينة فيه.. لا شيء!.. وتدلت الطبقية وهي تمطر قطرات لزجة سوداء على رأسه.. «نثة مطر يا رب».. نثة مطر أبيض صاف تغسل الدنيا وهذا الرأس الصرصوري البشري.. هذه العلة المستعصية منذ الأمس!.. لا شيء!.. لا شيء!.. وامتلأت الطبقية ثم عادت وارتفعت بالرجس، وصدره مكشوف وعريض ومغطى جلده الأبيض بالشعر وبالقشرة الدبقة السوداء، يصعد ثم يهبط الطبقية في مدّ وجزر الدنيا الحشرية.. «يا اللّه عليك». هذا الطيف الخائر للإنسان يختلج ثانية في صدره «رجينة بِتّ الْبولة، خَلي تِجي السّاعة تْعايِنّي» لتشهد مم تنتفخ وتترهل وتغبغب جسداً، وكيف تشمخ روحاً وتمتلئ خيلاء؟!.. لا شيء!.. كيف تسمعه وهو في الأعماق وهي أذناها مختومتان برصاص حتى حين يصيح على بعد شبرين منها بالصوت العقروقي الثاقب، فيرتد هذا الصوت عنها، ويتبعثر في طيات الريح؟!.. لا شيء أبداً!.. «لَكْ ميخو.. الطِّبْقِيّي والْمَغْ»(٣٨٥) القاذورات.. تغدو الآن طيناً.. أفكاره تغدو طيناً.. ليست متسيبة بعد.. ليست مطواعة. يحفرها بالمر ويجرفها إلى الطبقية. مرحلة شقاء وعرق.. وأفكار طينية لاصقة، تحيي فيه رغماً عنه أطياف الإنسان المتهالك.. «يا اللّه عليك».. والهمسات العجماء والدمع في عينيه.. البقة أيضاً في عينيه.. «المر» يا ميخو والطبقية!.. المر والطبقية يا أطرش!.. أما هذه البطة، ففاتنة وصبية.. والناقوس يدق

(٣٨٥) ويحك، هات الطبقية والمر، وهو باللغة المسحاة، وعند العامة الفاس، يستعمل بحفر وإزالة الطبقات المتخثرة والمتحجرة من قيعان الأماكن المنزوحة.

في البيعة.. في رأسي يدق. يتصادى بين جدرانه برنين همجي.. يوم أحد مشهود ومقدس. أتراها لبت دعوة ربها، فمضت لتصلي؟!.. المر والطبقية يا تلكيفي!.. «وأنا أشِ يْخِضْني؟.. تْصَلّي.. إتْصَخِّم»..[٣٨٦] ماذا يعنيني هذا؟!.. موروثة طبيعة الإنسان ودفينة في كل خلاياه منذ هبط آدم من عليين إلى هذه البالوعة!.. ملعونة الدنيا!.. وملعونة رجينة!.. اليوم سأكسر رأسها، لا بدَّ، وأجلبها للطاعة!.. ما عدت أحتمل الرهبانية.. أنت؟!.. وهذه طبقة أخرى كالجيفة مضافة إلى بدنك.. المر والطبقية يا «ميخو» يابن الكلبة!.. إني أموت هنا، وأنت «تتونس» فوق؟!.. عجباً!.. قل شيئاً معقولاً!.. كلمات سفاني تتنافر في الرأس وتفور مثل فقاعات الصودا.. تتحدث عن روح مدموغة عاشت بمراحيض الدنيا.. لا معنى لها!.. تلك الكلمات، لا معنى لها! هذه الروح، لا معنى لها!.. الناقوس، له ألف معنى غامض.. يطن ويعصف في هذا الرأس كطلقات نارية تتتابع في معركة ضارية من معارك الحرب الكونية الأولى.. في الكوت أو البصرة.. الناقوس، ملموس محسوس.. وحده يحمل المعنى.. كلمات سفاني الأخرى، ذات المضمون!.. الناقوس!.. عجباً، كيف يجتمعان؟!.. يتحدان؟!.. ذات اللوعة.. ذات الأضراس والأجراس، ذات المضمون.. تتحطم الأضراس، تأكلها الحشرات، وتذوب في جوف البالوعة.. ميخو يابن البُولَه!.. دعنا نفرغ.. ناوِشْني الطِبْقِيّي والمَغّ أقوش به الطبقة الأرضية[٣٨٧]، وغشاوة

(٣٨٦) وماذا يهمني أنا ما تفعله، سواء تصلي أو تفعل الفحشاء (تضاجع).

(٣٨٧) ناوشني: ناولني؛ ويقوش: يزيل الطبقة العليا.

عيني.. إني أنا بابا ليوي النزاح.. بيرنْجي[٣٨٧أ].. أول نزاح في بغداد. لكن رجينة تنكر هذا، وتنكرني.. تجهل قدري!.. هات الطبقية والمر لأنزح عقلي والبالوعة!.. ورمشت عينه المطروفة.. وأحس بحرقة في لحمه.. في أسفل العانة حريق.. في الرأس ناقوس!.. والرأس فارغ.. وضربات الناقوس ممتلئة.. أفلم يتعب في البيعة ضارب الناقوس؟!.. ميخو، ألا تسمعني؟!.. «قابل أنت هَمْ سِغْت آدمي وْغِحِت قَتْصلّي بالبيعَة؟!.. إي وْلك مَ الطَرَزينة بْغاسي»[٣٨٨]. بوق الأطفائية يذهل عقلي.. دِفِلَّه بَقى[٣٨٩].. وهات المر والطبقية. بالمر سأقطع لسان همساتي.. واملأ الطبقية بمحصول الأيام.. إنتاجي أنا.. بابا ليوي أكبر نزاحي بغداد.. أكبر نزاحي العالم، ينضم لطابور أيام آحاد مهدورة، ويضيع في زحمة الزمن المفقود. في يوم أحد تجلجل بين آفاقه الأجراس.. مدفون في جوف بالوعة في بيت صبية آثورية فاتنة الحسن. يوم أحد خادع ومماطل.. أطرش لا يسمع.. ويراوغه.. يتحرش بصبره.. يتركه منبوذاً في جوف الحفرة الشبه منزوحة النصف نظيفة، ناقص الخلق.. في مرحلة ما بين الحشرة والإنسان. ثمة يفقد الصرصور أسباب حياته.. يغمى عليه. وهناك يختلج الطيف الإنساني بين سموم دنسة فتاكة، ويقاوم الإغماءة.. يوقظ نفسه بالهمسات المنثالة كنثيث الغيث «نثة مطر يا رب».. لا شيء.. فلماذا يعاند

(٣٨٧أ) الأول.

(٣٨٨) أيعقل أنك أنت أيضاً أمسيت آدمياً وذهبت تصلّي بالبيعة.. ويحك.. صوت محرك القطار (أو ما أشبه) يملأ رأسي.

(٣٨٩) أفرجها.

الرب؟!.. ولماذا ميخو يعاند أيضاً؟!.. وصاح بأعلى صوته العقروقي الممصوصة أصداؤه في جنبات الكهف الجوفي:

ـ وْلَك تَرْكيفي، مَ زِهّكتني، مَ تْناوِشْني المَغّ والطِبْقتي بقى!

أخيراً.. هي ذي الطبقة تحمل الفاس وتتدَنْدَل[٣٩٠] هابطة تتهادى بدلال. هابطة تختال.. هابطة تتمايل.. وتحاذر.. وكل خطوة بفلوس.. ميخو السمج القذر ابن الأوباش يصبح فجأة باشا، ويتصرف مثل الأمراء:

ـ أي لَكْ مَ طِقّيتا البَطْني.. اشْ عِنْدَك؟!.. قابل مَلِكة قَتْمِشّيها على كفّك؟![٣٩١].

يوم أحد مشهود ومكفّن من رأسه حتى أخمص قدميه.. ويداهمه بعريه الأسود الخالد، ويكشف له عن أطراف أنامله وأصابع قدميه.. وبدغدغه. بالهمسات المستيقظة من بعد سبات. وبرنين نواقيس متسلسل رجراج يتصادى، لا يخمد. بالغضب النادر المولود من خرق المألوف.. ويدغدغه بضحكة عذبة ورقيقة تتهادى إليه مع الطبقية من أرض الدنيا.. تغريدة بلبل.. بل هَلْهولَة[٣٩٢] سنطورية في ليلة عرس.. وتوقف قلب الخلجة في أعطافه.. مشدوه الطلعة ينفض رأسه، وينبش في ذاكرته وبأفكاره.. هل سمع من قبل مثل هذه الرنة الساحرة الفتاكة بعذوبتها؟!.. أبداً كان حماره ينهق، وميخو يجأر كالتيس.. ورجينة إما تنعب، أو تزأر.. وصبيحة تنوح

---

(٣٩٠) أي تدلى.

(٣٩١) ويحك قد فجرت لي بطني (أي ضقت ذرعاً بانتظارك حتى انفجرت) فماذا لديك؟ ملكة تسير بها على كفك؟

(٣٩٢) الزغرودة.

أو تصهل. . «مَبّول مطر يا ربي»[٣٩٣]. . طوفان وليس نثة. . طوفان يغسل صدأ الرأس. وتريث. كان الهتان يسح على رأسه. . هتان نغمات فضية لا هتان مطر. هتان دهشة تنهال عليه. . هتان جنون!. . جنون العالم!. . جنون يوم أحد قد أخرج ذاته من زمرة الآحاد المهدورة. . وعاش وحده في الزمن المتراكم في بالوعة النسيان. .

يوم أحد أم يوم الخَلْق؟!. . ويراه مجتمعاً فوقه. . أفخاذاً بضة. أهو الحلم أم اليقظة؟!. . يسمعه. حتى وهو يكذّب نفسه ويحاول بتفاني الرغبة بالإبقاء على «ستر» العقل، أن يوقف هذا الهذيان العقلي، أفواج ضحكات صغيرة، غنجة، فضية سيالة، مطربة، هازة، دفاقة، خلابة، مندلقة في دفعات مذهبة لصوابه وتعيد إليه أيام زواجه الأولى، يوم كانت رجينة رفيعة وسمراء كقصبة النزاحين. . وهو معها في خلوة، ومترلوزه مشرع وزناده مضغوط، وفوهته تحرر صليتها، الطلقة تلو الطلقة، ترديه، ثم تحييه. . وتعود تصرعه، ثم تبعثه حياً. . موت وحياة يتعاقبان من دون هوادة. .

. . وأين هو من تلك الأحلام المدفونة في لحد إنسانيته السوية، من بعد أن وارتهُ رجينة تحت تراب الإذلال والتشكيك بنقاء بشريته، وبأنه إنسان محض غير مغشوش بدَغَش[٣٩٤] الروح الحشرية المعايشها في أعماق حفرته هذه المنزوحة، الممتلئة، بأول أيام الخلق؟!. . وبلهجة ضبابية سخامية اللون، وبالحلم وباليقظة، وبغياب «نسمته» وحضور روحه كاملة وبفوضى ما قبل استحداث

---

(٣٩٣) المبول: الطوفان.

(٣٩٤) أي بغش وخداع وزور.

العقل، في أول يوم أحد أوجده اللّه، أو فوضى ما بعد تدميره، في آخر يوم أحد من آحاد هذا الكون، توسل «نثة مطر يا رب».. أو إن كنت مصراً على أن يبقى العالم مصاباً بعسر إدرار الغيث، فابعث لي بسفاني. أرسله إليّ من سابع طبقات الأرض، أو سابع سماواتك، ينبئني بيقيني وحقيقة أمري.. أأنا في حلم أم في يقظة؟!.. أأنا حي مات أم ميت عاش؟! «إِنْشَلَبْ عقلي، لُو رَجَع لْغاسي؟!»[٣٩٥].. قذر عاقل، أم مجنون ورع بار؟!..

في تلك الساعة، وهو في جوف الحفرة، وغيث الضحكات السنطورية الفضية يسقط فوق رأسه، كان بالأحرى مكتنزاً بالعقل، ودماغه متخماً بالأفكار البشرية وبمنطق الإنسان، ومضطرباً بالدهشة. وكان يحاول بعقله هذا تفسير ما يحدث، بشجاعة. وبجرأة الحكماء ينظم أفكاره المرتجة، ويمحص بلواه المجتمعة في ظاهرة مستعصية على الفهم وغريبة، تنتصب قبالته فجأة كالجني العابث بطريق مهجور وملفع برداء الليل. لم «يدخل عقله» أن ميخو «تخنث» فجأة، واستبدل صوته اليابس كحطب الطرفاء الجاف، الخشن كمكنسة مصنوعة من خوص السعف، الجاعر كالثور، بهذا الصوت المائع كقطعة سكر في كأس ماء ورد، الحلو كشربت زبيب، السائل المنهمر الرقراق كزلال عيون، سمع أنها موجودة في «سَرْسَنْگ» و«صلاح الدين»؟!.. ولا يدخل عقله أن سيقان ميخو المتكرشة العجفاء، انتفخت على حين غرة، وامتلأت، والتفّت، وأن ميخو قد حف[٣٩٦] شعر أفخاذه الأشيب المتكاثف والأشبه بشعر الإبط أو

---

(٣٩٥) هل نزع عني صوابي أم عاد لرأسي؟

(٣٩٦) الحف، إزالة الشعر بالخيط وما أشبه.

العانة، بعناية ودراية حتى صارت بشرتها كحرير أملس.. ولا يعقل أن ميخو الهمجي النزاح قد انقلب بقدرة قادر، رقاصاً نسوي النزعة، ومرتدياً بدل الخرقة، فستاناً، ويغطي سوءته المكشوفة، بلباس معتبر ومعربش ويثير هذه الهمسات الشيطانية بلسان ليس مفهوماً، وليس «يلاطي»[٣٩٧] أبداً «جبيلية»[٣٩٨] ميخو المخنونة العرجاء، بهذه النوبة الضوضائية المنصبة عليه مع تيارات الضحكات الغيثية في دفقات مركزة ومكثفة وتشحنه رهبة وقشعريرة باردة وصقيعية..

وإذن، كيف يصدق؟!.. العقل!.. العقل!.. وقال لنفسه «بَلْكي مِنْ صِدِق قَدَحْلَم»[٣٩٩].. وكان هذا أول وآخر تفسير ينتجه عقل ثابت في جمجمة الإنسان، موثق في رأسه بقيود ملتهبة بالحرص على ألا يغافلها ويطير محلقاً بجناحي الدهشة، أو يعدو فاراً، منهزماً أمام صاعقة اللامعقول. وتعمق هذا الإحساس، وتلفع بذهول بصيرة الإنسان الهينة المتظاهرة بالقوة، ساعة ترفض ما تعجز عن تفسيره، لكي تبقى «صلبة» ومعصومة من الشبهات، إذ صعقته المعجزة العذبة المنشودة، المرعبة المرة، من أعلاه. إن الصوت يأتيه من أعلى حضيضه، أقوى من كل وهم وحقيقة أصلب من عقل الإنسان، أعظم من كل الأصوات ويجندل رنات نواقيس البيعة، المعلنة عن بدء يوم أحد خليقة العالم، وضجيج فحيح الهمسات العجماء، وحفيف أنفاسه ولهاث أفكاره.. أنثوي.. مرنون.. مبعوث كالأحلام الوجلة الموؤودة، خشية عار فضيحتها، في رمس

---

(٣٩٧) يلاطي: يتفق ويلائم.

(٣٩٨) اللغة الجبيلية، إحدى لهجات اللغة الآرامية ينطقها بعض سكان الجبل في شمال العراق من بقايا الشعوب الآشورية.

(٣٩٩) لعلي أعلم حقاً.

قدسي، بأقاصي روحه الهجينة النغلة الرجسة المبتذلة.

ـ عُوع!.. الْتَخيتُو بالِسْيان حَشا قَذْغَك[٤٠٠].

وانهمرت القهقهة العذبة. مرة أخرى، القهقهة العذبة.. من فوقه.. من تحته.. من تِلْفات الدنيا[٤٠١].. وأقاصي روحه. قهقهتان.. الأولى قرينة الأخرى وتحاربها. والأخرى نقيض الأولى وتضمها للقلب.. تقبّلها، وتعانقها. والعقل منتفض مستنكر، و«يغير»[٤٠٢].. يحطم أصفاده ويحلق.. قهقهتان!.. واحدة عذبة والأخرى مريرة.. صبر وعسل.. الأولى بريئة بسجيتها، والأخرى خبيثة رغماً عنها.. هازئة شاتمة سابّة. حاشا قذْرك؟!.. قذْر الكلب.. قذْر القطة!.. بل قدر خراء!.. قذْر بشر قذرين كبيوت خلائهم المسدودة. حاشا قدري يا رجينة.. يا مِمْلوصْةِ[٤٠٣] الرقبة، قهقهتان، قهقهته «تهْمِش»[٤٠٤] روحه، و«تْملِخ»[٤٠٥] طيف رجينة، وهي تزجره وتقول له «بيتك.. بيتك!»[٤٠٦] جعلتني دجاجة.. تدفعه نحو المرحاض.. دجاجة مركبة على جرذ.. قهقهتان!.. قهقهتها، تعلن الحرب عليه.. وتهاجم عقله.. جميلة!.. جميلة!.. عاشت يدك يا سفاني.. لا بَلَى ثِمَّكْ يا سفاني.. «وينو سَفاني؟!».. أين الآن سفاني؟!.. وصاح من جوف الحفرة:

---

(٤٠٠) عوع، كلمة اشمئزاز، تقول تلوثت بالقذارة، أجلك اللّه عنها.

(٤٠١) أي من آخرها.

(٤٠٢) يجتاح كعاصفة.

(٤٠٣) ملص، أفلت وأسقط، ويعنون بها: قطع، والمملوص: المقطوع.

(٤٠٤) جذب ونهش.

(٤٠٥) ملخ ملش: وشد وجذب.

(٤٠٦) حث الدجاج للدخول إلى قنها.

ـ هاي اشْ قَتْسِوّين بِنْتي؟!.. مَ تْصيحين على هذا الجَّيِّف الوِيّاكي[٤٠٧].

اللَّه!.. ما أحلى الأحلام الفردوسية وهي تراود الإنسان في جوف البالوعة؟!.. زغردة السنطور تقلب مأتمه فرحاً. صدح بلبل الأعجوبة، ينفذ في الأذان الصماء إلى مخ متحجر في الرأس ويجعله رخواً. والعقل يرفرف ويطير. بديع هذا الحلم وساحر لولا أنه أحياناً يبدو كاليقظة. الوعي دن نبيذ مغر، فاحذر أن تسقط في داخله فتغرق. الصوت «روح حياة» متأسنة في مستنقع متخثر مهلك شيرته، مُونَة[٤٠٨] ما في لعنة آدم الأزلية.. «روح حياة» تتبخر على أنغام ناي سحري، فتصعد راقصة وخفيفة من جوف الأرض إلى سطح الأرض.. «وينو سفاني؟!».. وحك رأسه، حكة مزدوجة كالقهقهتين، بيد مغسولة مغلولة، نظيفة، قذرة، في دكان خليف. بيد مرتبكة وسريعة ومخضبة بالرجس الأسود، ونقية في باطن بالوعة، بضحى يوم أحد متداخل في عصر يوم اثنين، ومفقود في ذيل كل اللحظات الفاقدة قدرتها على العدو، كالماضي، فتح عينيه على الدنيا ثم عاد وأسبلها في لحظة سكر، لا يدري أعاني ذلك في الآخرة أم عاناها في الدنيا، أم في أضغاث أحلام أو بخيالات خطرفة العقل المجنون.. إلا إذا جاء سفاني.. «وينو سفاني؟!».. وحك رأسه العائم في بحر رنات السنطور الفضية.. وفي نقر الصاجات.. وفي ضرب مطارق الهمسات.. وجلجلة ناقوس يؤذن ببدء الخلق.. بنهاية العالم.. بالحيرة العظمى..

---

(٤٠٧) ماذا تفعلين، نادي على ذلك المنتن الذي معك.

(٤٠٨) الشيرة، شراب السكر المتخثر على النار وعصير المربى والمونة، الخلاصة والجوهر.

ـ مَ يْنغاد صاحِبَك. . مَ فَضل شِي. . هَسّه تْخَلِّص. . وِغْجَبْني أعاوِنَك[٤٠٩].

ـ اشْ أقِلّك يا بِتْ الْحلال؟ مَ شِفْتي أحسن مِنْ هَالْمَصاخَة تِعْجِبِكْ؟! دِصيحيلو الْميخو الأعْوَغْ. . انتي أشْ جابِك على الّچچمَة يا بِتّ الْحلال؟![٤١٠].

حتى في أحلام يقظته، حتى بجنونه أو في موته، لا يحتمل القهقهة الفاتنة الفتاكة. هي أقوى من أحلامه. . أقوى من روحه وفقدان صوابه. . أبداً ليست في حجمه ومقاسه. . إنه في ثغرها هذا الفاغر، فرخ ذبابة. . ذرة رمل. . جرثومة. . يكفي!. . أنا مَ قَدّا لْهايي الْحِكّيات. . حَشَا قَدْغَك وْتِكْرَم، وغْجَبْني. . وينو سفاني؟![٤١١] لو كان سمع سفاني، لما انشرح صدره. . كان يقيناً، سيبكي ويلطم رأسه أم لعله فعلاً كان سيرقص بْكِفّيْتين[٤١٢]. . احتار لم يدر ماذا سيكون رد فعل سفاني. . بيد أن سفاني، لم يسمع، ولم يتكلم، ولم ينطق حتى في الحلم. كان مفقوداً في أحرج الساعات، وأكثرها حاجة لوجوده، قد ضاع وجوده هذا مع باقي الأشياء. كان العالم منهمكاً في عملية خلقه الذاتي أو تدمير نفسه. وحجي حمزة العاقول يلج باب منزل درويش إلى مملكة الأسطورة. . ومتانة سپير يخوض سيولاً مكتسحة من دم حيوانات منحورة تتلاطم بمجابهة باب

(٤٠٩) لا حاجة بصاحبك إذ لم يبق شيء، سنفرغ الآن وقد راقت لي معاونتك.

(٤١٠) ماذا أقول لك يا ابنة الحلال أفلم تجدي ما يروق لك إلا هذه القذارة، أين أنت من البلاليع، فنادي على ميخو. . . .

(٤١١) أنا لا أحتمل هذه المسائل ولست أهلاً لها، مسائل كأن يقال لي: «أجلّك اللّه»، «ويروق لي هذا» وما أشبه. . .

(٤١٢) يرقص بمنديلين، تعبيراً عن الفرحة المفرطة.

منزله، بعد أن فقد الجمرة وحياته وطلعة خاتون الوضاءة، ورسا ثانية في قيعان الموت والرعب، وخليف الچايچي يتمَرْعَل[٤١٣] في رمس أفكاره قرب معدات دكانه ويقول لنفسه «واشْ قَبِطْلَع دَغْب؟.. دقوم أودّيلم چاي الْعابد إلدَّرْزي وْجاسِم الغِقّاع، قَبِل مَ يجون عل غاسي وِيْخِبْصوني وْتِكْمَل السِبْحة»[٤١٤] وعام حزاقيل في كون كله أنهار تجري خمرة، وألقى نظرة غيمية ومهزوزة على طيف مسعود المصلوب حذوه فوق كرسيه، ثم هز أصبعه المتذبذبة مع بدنه وقال في تأكيد، نصفه كلمات والنصف الآخر فواق ممهول ببخر عرق حامز وكريه:

ـ لا أخويا. آني مُو مِقِرْباز. أَبَد لَيْكون على فِكرك. مْعَوَّد، آني لا أبويا، ولا اللّه مال أبويا، هَسّه أَخَلِّص العَرَگ واخْذَك وِنْروح عِند خْليف الچايچي.. لأن عِندي ثار وِيّا أخوه.. وإني مُو حَزاقيل إذا ما اطَلّعْ لك الدينارين مُنِ غيونه[٤١٥].

ونشّت الدنيا على رأس بابا ليوي الغاطس في الچچمة، والمتصدع بدهشة رمادية فريدة، وبأسئلة أعيت من قبله كل عباقرة العالم وفلاسفته. رذاذ ضحكات اجتمعت فيها جميع عناصر الخلق والتدمير المتضادة. وقالت «البطة» الآثورية من موضعها الذي على

---

(٤١٣) يتمرعل، يتمرغ.

(٤١٤) وهل من مناص؟!.. لأقم فآخذ الشاي لعابد الترزي وجاسم الرقاع قبل أن يأتيا ويقفا على رأسي فيربكانني وتكتمل الحفلة.

(٤١٥) كلا. لست ممن يأكل مال الناس. لا تقلق من هذه الناحية أبداً، فأنا لست بأبي أو إله أبي، وبمجرد أن أفرغ من كأس العرق، اصطحبك إلى دكان خليف إذ لي ثأر مع أخيه، ولست بنفسي إذا لم استخرج لك (من عينيه) الدينارين.

سقف الدنيا، وهي تهيل عليه نثار الضحكات المسحورة:

ـ ليش هُوّهْ وِينو حَتّى أصيح عَليه؟.. دَزّيتونو.. هُوّا وحْماغو تِكْرَم.. خَطّيه خَلّي يرتاح[٤١٦] فتحدى دهشته الدكناء، بجنون عاقل راس في سخرية اللامعقول وفي السخط:

ـ خَطِيّة؟!.. خَلْفَ اللّه عْليكي.. لَعاد هذا الِسْيان مُو خَطِيّة؟!.. أنا مُو خَطِيّة؟!.. مِنو راح يِطَلّعْنا مْنِ الْبَلّوعة؟![٤١٧].

أَنت؟!.. واشتد وابل الضحكات السنطورية..

أنت؟!.. واشتد سخطه النابت في دمن ورطة عقله التائه في بيداء اللامعقول.. «خَطِيَّة؟!».. أنت خطية.. ورجينة لا شك خطيئة عمري، وصبيحة لغز نام كالعظمة في قبري.. أما ميخو وحماري وأنا؟!.. حقيقة وحيدة كان يعرفها. في بلبلة الأشياء الكبرى، لا تفقد أشياء ثلاثة معالمها. تطفو على سطح المستنقع المتعفن، كطحالب خضر عطنة.. إجحاف رجينة، ينتكر ويستبدل موضعه في قائمة التصنيفات البشرية، فيبدو نزيهاً كالإنصاف، حتى ليكاد هو يعذرها بهنيهة سكر وثمالة، من لحظة كالدهر يرضعها من ثدي خرافة تبنته ووهبته نفسه، ثم ألقته في قلب واقع مسحور مملوء بنقائض متصلة وغرائب عصماء، ثم في لحظة الضد القادمة، لحظة البرق القادح في الظلماء، لحظة صدق موهوبة، والممتدة كالخيط المار عبر ثقوب حبات خرز مختلفة ومتغايرة الأصناف، ويصل أطراف هذا العقد السمج المختلط بخامات كل الأشياء عشية تصنيعها

---

(٤١٦) أين هو لكي أناديه؟!.. لقد أرسلته.. هو وحماره، أجلك اللّه، مسكين، دعه يرتاح.

(٤١٧) مسكين؟.. جزاك اللّه خيراً. وهذا الماء الآسن أليس مسكيناً؟ وأنا ألست مسكيناً؟ منذا سيخرجنا من البالوعة؟

في أولى ساعات الخلق أو ساعة صهرها مجتمعة في أولى ساعات التدمير، في لحظة الضد هذه، يوقن أن حجم الإنسان متسيب، متغيّر، ولا استقرار له. رجينة وهذه النغمات المنبعثة من الجنة.. كيف يقارن بين النجس والطاهر؟!.. وحقيقة واحدة كان يعرفها، أن الرجس يتوافق مع الرجس.. ولكن كيف يوفق بين النجس وبين الطاهر؟!.. وينق الضفدع ومساماته تطلق مسامير الغضب الحادة:

ـ إنْتي؟!.. يا بِت الْحِلال، إنْتي اشْ جابِك عْلينا؟! عِبارة إحْنا جْعيط ومْعيط وْلِظّام الْخَرَز بِالخيط. ميخو وزْمالي وأنا..[٤١٨]

طار رأسه على متن قهقهة أخرى أثيرية ذات جناحين. ورفرف من تحته صوت سابح في أجواز الكون:

ـ لكان اطْلع بالعجل حِتّي تِلْظِم الْخَرَز بِالْخيط[٤١٩].

ومن عبر الأكوان تساءل ببلاهة:

ـ اِش اسْوّي؟!..

ثم في صمت الكلمات وعربدة الضحكة الماجنة الفذة، أهوى على رأسه قبضة حديد ليعيد إليه هذا الشيء النافر. لم يفهم. هذه «البطة» الآثورية الحسناء.. ماذا تريد؟!.. هل تسخر منه؟!.. ولماذا تسخر منه؟!.. ولم لا؟!.. أليس من حقها أن تسخر من صرصور؟!.. رجينة، ابنة المومس، خرقة، وزوجته، وهو يعلفها، ومع ذلك تسخر منه.. ولكن.. أين سفاني؟!.. «وْلَك وِينو سفاني؟!.. تَرَى غاح أجِّن.. فهل قابِل مات سفاني.. أيضاً؟!».

---

(٤١٨) أنت؟ أين أنت وأين نحن؟ ما نحن إلا (جعيط ومعيط) ثلاثة أشياء تافهة القيمة وثلاثة أصفار، ويُقال أيضاً جليق ومليق.

(٤١٩) أخرج إذن لتنظم الخرز في الخيط (رداً على قوله، لظام الخرز في الخيط).

١٥

كان الدرب أمامه غريباً عنه، وكأنه ينكر طول العشرة. كان ممتلئاً بسباع فاتحة الأشداق، وبمصائد منصوبة، وهو يتحاشاه بقلب مائع يلهج، ويسير منحشراً بالجدران. ورأى الرقاع منهمكاً على ماكنته، يخيط حذاء مفتوقاً. لم يقرئه سلاماً. كان يحمل معه كل مواهب اللص في التستر على وجوده. ومارسها وهو يضع فنجان الشاي أمام جاسم المشغول ثم أدار له ظهره، وعدا. الرحلة الأولى مرت بسلام. لكن عابد الترزي كان له بالمرصاد. ورآه يرمقه من بعد، فأدرك أن وجوده قد غادر مخبأه كي يغدر به. وازداد قلبه المائع دعاء وصلوات. وأراد أن يتماسك وأراد أن يتملص من إطباقه الفخ المنتظرهُ بفروغ صبر. وكان برماً لا يتحكّى[٤٢٠]، عصبياً، ومزاجه كالعاصفة الهوجاء. ولا يفتأ يخزي الشيطان. ويطلب ستر اللّه. وبادره الترزي:

ـ أشو إنْتَه، خْليف؟.. لِيش سَفاني وِينو؟[٤٢١]

فارتخت مفاصله وعضلاته، وأحس بأن في فمه تقبع رزمة كلام

---

(٤٢٠) لا يتحكى، أي يثور بمجرد التحدث إليه.

(٤٢١) لماذا أنت، إذ أين سفاني (لماذا ليس سفاني من أتى بالشاي)؟

يحمل طابع هذيان ملتوت بحموضة ومرارة. وتبلع ريقه وتلمظ، وعيناه تفترسان الدرب. إن سفاني يجري على ألسنتهم جريان اسم اللّه الآن في قلبي وعلى لساني المشلول والمتحفز في آن. هذا خوف وبلاء، الصقا به عنوة. وتتقدان لهما عيناه في رهبة حانقة. صامتة عيناه حقاً، لكنهما عاتبتان متهمتان.. لماذا أحببتم الشيطان حب عبادة؟!.. كانوا يسعون إلى إهدار دمه قرباناً لذاك الشيطان المعبود ونزواته. الشيطان أخطأ، فالإنسان يتلقى عقابه.. اللّه يخلق، ورسل اللّه يقاسون!..

وتساءل عابد باستغراب:

ـ أشو قَتْزِغْزغْلي بِعْيونَك؟!.. كَنّي قَتْغيد تاكِلني.. لِيش قِلْتو شين يْزعِّل؟.. غِيغ قَدَ سايِلَك على أخوك. بُوحي فات وَقْت لَمّا عِزَّلْتو. وَاشو أنا وْصَلْتو لْغاسِ الْكوچة وَاشوفْلك سَفاني، قَيِّعْدي عَالدِّكان وْيِتْلَفْت. كَنّي وِيحِد امْسَوّي فَدْ مَكْسورَه. قِيِّعْدي عَالدِّكان وِيْديغ غاسو، عَبالك وِيحِد قيتِل دم[٤٢٢].

قاتل أو مقتول.. وعاد أدراجه يخطو خطوات حالمة مخذولة نحو الدكان.. أو لعله نصف قاتل، نصف قتيل.. بماذا أرد على هذا؟!.. أقتلني، أم إني قتلته؟!

ـ قَيّاكلني قَلبي عْلينو.. بَعَد مَ بَطا هِيكِذا!..[٤٢٣]

قد قتل المأجور!.. وترنح كحزاقيل، عند باب دكانه، فتشبّث

---

(٤٢٢) أراك تحملق بي وكأنك تريد أن تأكلني.. أقلت ما يغضب؟ إنما سألتك عن سفاني. ليلة أمس أغلقت دكاني متأخراً وما إن بلغت أول الزقاق حتى رأيت سفاني يعدو نحو الدكان ويتلفت وكأنه قد ارتكب خزعبلة. يعدو ويدير رأسه وكأنه ارتكب جريمة قتل.

(٤٢٣) قلقت عليه. لم يحدث أن تأخر هكذا.

بحاشية الباب. كان خصاص الدكان نصف مسدل، والدكان يبصق من نصفه الأسفل نوراً في الخارج!.. بحيرة نور.. الشرك القاتل أبداً محفوف بشيء مغر، النور. الشرك القاتل غاو ومستدرج كحبائل الشيطان.. سيقتله المأجور!.. كلمة لن تبرح رأسه حتى لو هجرته كل الكلمات. و«الإرهاب» كذلك.. الشيطان يخلق الكلمات كي يقتل برنينها كل الأشياء الحلوة.. كان سفاني يبيع الكلمات الفتاكة.. أدوات قتل.. من منا قتل الآخر؟!..

ـ دِقوم.. تْحرك.. غوح دَوِّغ عْلينو..[٤٢٤].

دوريس تحبه!.. دوريس تحب العالم أجمع!.. حمالين وشيوخ ورجال شرطة ووزراء.. وقالوا حتى «غازي»[٤٢٥] وقال له: «اللَّه رَبّك!.. وْلَك قَتّاكِل مْخَلّط يا لوز!» الكلب النذل ابن الـ..!.. قال «طلقها، أم يحلو لك أن تبقى قواداً؟!».. قد هدمنا الشيطان.. هدمها وهي تحبه.. وحبي لها أكبر من حبها له.. «أخِلّيها صانْعي تِخْدِم بالبيت»[٤٢٦] وكذبت على نفسي وعليه.. واحتقرني وكرهها.. تعشقه دوريس، وكنت حتى الأمس أحبه.. كان سبب حتفي، وأحببته. ثم هنا، في هذا الدكان، ليلة أمس، في منتصف الليل، وقعت مذبحة العالم.. الكل قتل الكل.. وقتلت سفاني، وقتلني سفاني.. وسفاني قتل «المأجور». وقتل «المأجور» سفاني..، وقتلكم الشيطان يا حمقى.. وأنتم عبدة الشيطان ومحبوه ومريدوه..

---

(٤٢٤) هيا قم.. اذهب وأبحث عنه.

(٤٢٥) المقصود الملك غازي.

(٤٢٦) أتركها كخادمة في البيت.

كانوا يحيون طقوس عبادة الشيطان حول المائدة القذرة ورؤوسهم منحنية بخشوع فوق كف الدم. ويجوبون العالم بحثاً عنه.. في شبه سبات يحيون طقوس عبادة سفاني.. لن يجدوه.. لن يجدوني الآن!.. وانسل بخفة وعجل، فاجتاز المائدة القذرة، وانطرح فوق كرسيه، خلف أدوات ومعدات الشاي، كرمام بناء ساقط.

١٦

في تلك اللحظة كان حزاقيل ابن الحاخام يتميّع داخل خمارة. ويسبح في لجة عالم غيمي متطاير. لم يبقَ في الكون شيء صلب. كل شيء رخو ذائب. الدنيا انصهرت في الخمر وسالت. كان وعيه ينزلق داخل رأسه على مزلجة تتزحلق فوق منحدرات جليد، ولسانه يسعى خلف كلماته المنفلتة منه قبل أن ينطقها، فيلهث مُجهداً حتى يلحق بأذنابها ويقتنصها، فتدور إذاك معركة جذب مطاطية طاحنة بين الاثنين، وتتمرد سكناته على أعضائه وتهزمها. وإذا بعالمه كله حركات متسيبة وجموحة غير منضبطة. وكان يحس بفكاكه من قيد الموضع الثابت، فتتملكه نشوة عميقة لذيذة منطلقة، وتحوم فوق الأمكنة والأزمان بحرية. كانت الحانة ظلاً.. وأبوه ظلاً.. والشرطي ظلاً.. وهو ظل في دنيا ظلال. وبين هذه الأشياء الظلية، مكث وعده لمسعود منتصباً ملموساً محسوساً وقوياً كالصخرة، ويتشبث بأذيال الكلمات الهاربة منه، وسحبها كعجينة، للمرة العشرين، ثم مضغها كلبانة:

ـ آني مُو مقرباز.. گوم أخويا مسعود.. اِسْنِذْني دَنْروح لِخْليف الچايچي..

وقام كدخان يتراقص. ورفع متانة سپير حواشي جلبابه وهو

وحماره يخوضان مستنقع دم متخثر قرب بيته في ظلمة الليل. وضل عقل متانة، وضل بيته، وضل وجوده وحياته.. وضاعت خاتون.. وضاع هو نفسه في دنيا أسطورية. وضاع الحجي حمزة العاقول في دنيا أسطورية أخرى، قائمة في صحن دار درويش... وتساءل معلم يعقوب الأعور المتورد الوجنة:

- حِضَّغْتمو الدّيك الأَسْوَد؟[٤٢٧].

فتساءل حمزة:

- ديچ أَسْود؟!.. على وِيش ديچ أسود؟!.. وِاشْ جابِ الدِّيچ الأَسْود عَالْفُلوس؟![٤٢٨].

وتساءل معلم يعقوب:

- وِالْپَرْدَة؟!.. عِلَّقْتِما خَلْفِ اللّيوان؟![٤٢٩].

فقال حجي حمزة العاقول لنفسه:

- وپرده وْليوان.. هاي شِنو؟!.. أشوفِ الْحَسْبة ثِخْنَت.. مُو بَس صارَت دَمْ، صارت طْلابه وْنِصْ[٤٣٠].

ثم تساءل:

- يا مْعَوْدين.. هاي شَكو؟!.. مَ تْفَهْموني، تَرى آني كُل شِي مَ دا أفهم.

فقال شقيق زوجة عزوري.. شريكه:

- رَيِّضْ حجي.. لَتْخاف.. وذاعْتَك كل شي ماكو[٤٣١].

---

(٤٢٧) هل أعددتم...

(٤٢٨) ديچ: ديك. على ويش: لماذا. وما علاقة هذا بالنقود؟

(٤٢٩) الپردة، الستارة، أعلقتموها على الإيوان، أي هل أسدلتم ستارة عليه.

(٤٣٠) يا أهل المروءة.. ماذا حدث؟.. فهموني فأنا لا أفهم شيئاً.

(٤٣١) ريض إهدأ. ما من شيء أقسم لك.

فقال وقلبه يفعمه رهبة وشكوكاً:

ـ كل شِي ماكو؟.. لَعَد الدِّيچ الأسْود وِالْپردَة عَاللّيوان على وِيش؟!.. هِيَّ شُوية فْلوس.. خُوب مو صارَت عَنْقَرَة؟ مَ تِحْچون على ويش كل هَالْمَسَائل؟![٤٣٢].

ـ دا اگلك ماكو شي.. مَ تْريد تاخُذ حَقّك؟!.. بَعَد على وِيش خايِف؟[٤٣٣]

الشيطان يتهكم.. إنه يسمعه يسخر منه، ويراه يجمع حصيلة صيده. يخرج لسانه له، ويسحبه نحو شباكه.. كلمته الملعونة!.. ممسوخة كل الأشياء.. واللَّه يشيح عنه.. يغمض عينيه ويولي بسمعه. متواضعة كلمة الخوف وصغيرة في هذا البحر من المعميات.. الرجل الأحمر الأعور.. بيت درويش.. ديك أسود.. ستارة مضروبة على الإيوان.. هذه طقوس عبادة العجل.. عبادة إبليس، وهو آلة إبليس الطليعة الحمقاء.. الكلمة الملعونة!.. الطعم المغموس بزعاف حنون! وريقه جف، وجف المنطق والعقل.. هل سوف يذبح؟!.. وارتعدت فرائصه كالسعفة.. هل سوف يقدِّم التيس الأعمى قرباناً للشيطان في عالم الغيلان؟!.. إن المهرب خلفه، في الماضي. والماضي موصد.. والماضي لحظة ممتدة، معقودة بذيله، وتلازمه كوجوده وككبوة لسانه الآثم. الماضي يتخطاه.. وفي قفزة عابثة مشحونة بطاقات إبليسية ينتصب قدامه.. يقطع عليه طريقه.. يحتشد من حوله مثل دائرة نار فلكية.

---

(٤٣٢) إذن، لماذا الديك والستارة؟!.. هي بعض النقود، فهل استحال الأمر لمشكلة عويصة؟ تكلموا. لماذا كل هذه الأمور؟

(٤٣٣) قلت لك ما من شيء. أفلا تريد أن تأخذ حقك، فلماذا تخاف إذن؟

حلقة أشباح ملتهبة تحصره في رقعة نضبت فيها عيون الدنيا وبصيرتها. الخوف كلمة لا معنى لها في الرقعة هذه.. الرعب فيها صديق مخلص وحميم. الديك الأسود في قبضة الرجل الأعور.. وَجْنة معلم يعقوب تتفصد فوّة وعصير طماطم.. وطلعة الحجي تتفصد شيحاً وصبغة كركم. ريش الديك الأسود نبع قار منساب.. القار يتصبب أنهاراً.. الأنهار تطفح.. تغدو سيولاً زنجية.. الكلمة سوداء.. تغشى الأبصار بظلال سوداء.. العقل يتهاوى إلى أعماق القار ويضحى أسود.. الدنيا تستبدل بأخرى يحكمها السحر الأسود!..

السكين خرجت.. تعطي لوناً، وتأخذ لوناً.. سوداء وصفراء وحمراء.. بيد الساحر.. «تْشوفَه، تَفْلَه مَ تِتْفِل عَليه».. معلم يعقوب، نبي اللّه، ويمسك بالديك وبالسكين ويدمدم.. كلمات مهموسة لا معنى لها كالخوف.. عجماء كأحاسيسه.. مبهمة كهمسات بابا ليوي الغامضة اللامفهومة المرتفعة مع أفكاره «وروح حياته» المتبخرة المتصاعدة من جوف الأرض إلى سطح الأرض. وأعاد بابا ليوي لنفسه تلك الأشياء الغامضة بلطمة على أم الرأس وتساءل: «لماذا البطة تسخر منه؟!».. بيد أنه لم يتأكد من أنها كانت تسخر، فظل يستنجد بسفاني ولكن.. هيهات!.. كان سفاني يحمل ذاته وتعاليمه على كتفه ويسيح كالأفاقين في طرقات الغيب وشعابه اللامنكشفة الغارقة في الكتمان. وكان بابا ليوي مجرد «لاظم خَرَز الخيط» في جوف البالوعة.. وقالت له:

ـ لَعاد اطْلَع بِالعَجَل خاطِر تِلْظِمو!..(٤٣٤).

(٤٣٤) أخرج بسرعة لتنظم الخيط.

وتساءل: «أين سفاني»؟!.. فأجابته الضحكة العذبة والهمسات العجماء، وكاد يرسو في الحفرة المنزوحة. لم يبقَ إلا هذه الطبقية المملوءة طيناً خثراً أسود كريه الرائحة، وهذا المَر وهو. وكان فيها أشياء أخرى كثيرة لا يبصرها.. عيون المخلوقات.. متنافرة ومتضاربة ومن غير نظام. فتاكة رهيبة ولذيذة وتحيي الموتى. متحدة عناصرها ومتزاوجة تحت ظلال خيمة تلغي الأضداد، وتمسح كل حدود.. لا شيء!.. لا شيء!.. وكل الأشياء مجتمعة!.. واللاشيء يتلكأ ويلعلع من غير لسان، وبآخر لا يفصح، أخرس مقطوع.. كل الأشياء!.. وبقوة تلمّس بابا ليوي المخرج من جوف البالوعة. وأراد أن ينجو من قبضة المهزلة ـ المأساة. ونق وهو يحتضن الطبقية ويهز الحبل:

ـ دِجِرّيني لَعَاد!(١٤٣٤).

وردت عليه القهقهة الفضية ثم همدت الأصوات. واهتز الحبل رويداً، ثم خمدت الحركات.. وتريث. الدنيا كانت فوقه والشمس وتغريد طيور من شتى الأصناف.. فوقه، كان الصمت.. لا شيء وكل الأشياء. هل ماتت؟!.. بل تركته ومضت.. «أعْغِف!.. مِتْقَصْدي تْخِلّيني هُوني بْبَطْن الْبلّوعة.. قَتْغيد تْسَوي بيَّ دَقّة مال گحاب!»(٤٣٥).

أعرف!.. وها هي ذي قد عادت.. تضحك «قَتْضحك عْلَيّ الْبولة». وضحك الشيطان من حمزة العاقول.. وضحكت جمرة

(١٤٣٤) اسحبيني إذن.

(٤٣٥) أعرف.. إنها تتعمد إبقائي هنا في باطن البالوعة. تريد أن تسقطني في مزلق لا يجدن تدبيره إلا البغايا (يقصد مزلقاً محكماً ماهراً).

فاتنة نورانية ونطاطة، نبتت فجأة في درب متانة سپير، وهو يقطع رحلة الرعب والعتمة والكشف، فقلبت ذاتها تحت أقدامه محيطاً من دم.. وكان يتنقل في قوة غاشمة عمياء بين حياتين مودعتين على سطح سراب.. والأولى سخية ومعطاءة وتهديه الوهم بدون حساب، والأخرى سارقة وفظيعة وتأخذ منه كل ما أعطته الأولى، فيفرغ متانة سپير من كل الأشياء، ويغمر فراغه رعب اللاشيء العاتي. وقال وهو يخوض غمار حياته الدموية قرب بيته، ويتشبث بآخر قشة أثرت في كونه «مَ فضل شِين.. لا عِمِغ وْلا خاتون ولاَ عَقَل بْغاسي»[٤٣٦] وصفق له فكاه المرتعشان بحماسة وقال سفاني له: «ارْجَع بالْمِرْجوع».. عد أدراجك كي لا تهلك. لكنه كان محاصراً من خلف ومن قدام. وكان حجي حمزة يواجه ماضيه أمامه، لكنه لا يملك العودة لوراء. والديك الأسود يختلج في ذعر عاجز وهو في قبضة رجل أعور أحمر الوجه.. عزرائيل!.. معلم يعقوب عزرائيل!.. يضع حد السكين على رقبة الديك الأسود ويغمغم!.. معلم يعقوب نبي اللّه ويغمغم بالكلمات العجماء. نبرات ومخارج أحرف طرقت أسماع الحجي حمزة في بلدة الأموات ساعةَ أُهيل تراب هذا العالم فوق شريكه الميت. منذا كان يصدق أن عزوري سيموت في طرفة عين؟!.. والدرهم سيصبح خمسة دنانير، في زلقة لسان مدفوع من دبره بيد الشيطان؟!.. وهو في بيت درويش الآن.. وأمامه تجري أمور تسلب كل ذي لب لبه. كان إبليس يسخر والعالم يسخر والأقدار. سخرية سمجة وسخيفة موجعة لا معقولة. وترغم المرء على أن يتواطأ معها ويشاركها السخرية من

---

(٤٣٦) لم يبق شيء. لا عمر.. ولا عقل برأسي.

ذاته. في يوم الأحد هذا القاهر المشهود. في عالم السخرية والأسطورة. انمسخت كل خلايا الكون أفواهاً ممتلئة بالضحكات. وكانت عابثة هازئة مستهترة بالإنسان. . وهو مقذوف تحت أقدام وجوده، يحلم. . يفزع. . يهتز في أرجوحة تقصيه عن إدراكه ثم تعود وتدنيه. .

واهتز الحبل في جوف البالوعة، واهتز معه عقل بابا ليوي النزاح. وبكل قواه البدنية تشبث بالخيط. كان يجب أن يخرج من الحفرة، وأن يقول لرجينة «نجوت». . ويقول لسفاني «خِلّصْتو مِنْ تَهِلْكة». كان يجب أن يحظى بـ «روح حياته». ثم يتساوى من بعد، خصومه ومحبيه. . وليضْحَى سياناً من يضحك منه ومن يضحك له. وكان الحبل يهتز وهي تضحك. هي تضحك من فوق، وهو يتشطط من أسفل. وصاح بقوة:

- دِجِرِّي يا بِتْ الْحِلال. . جِرّي دَنْشوف إذا إنتي راح تْطَلْعيني؟!(٤٣٧).

وضحكت وتشطط. وتناهت إليه مرة أخرى كلمات اشمئزاز، مثل «عوع»، و«تْلِوَّخْتو». ولهث وهو يسب رجينة في صمت. وسب نفسه بالصوت العالي، لكنه. . لم ينج. . .

كان على وجه الدنيا، مكدوماً يتلاهث. وكان يبدو كجدار مملوج بطبقة كثيفة ومتينة من دنس الإنسان الخاثر الأسود. ومن حوله نور ساطع مشع. . وزقزقة عصافير. وروائح «حَمْس»(٤٣٨)،

---

(٤٣٧) اسحبي. . لنر آأنت ستخرجينني؟

(٤٣٨) الحمس، هو أساس الطبيخ، عبارة عن زيت وبصل مفروم وطماطم، تحمر، ثم يضاف إليها الخضار وما أشبه.

لا شك سمنته، شحم خنزير.. وتراتيل مصحوبة بأنغام أرغن، مشوشة، مطنونة تنهال على أذنيه. وكان يعاني من نوم نصفي.. ومن أحلام نصفية.. وحياة نصفية.. ومن موت نصفي.. وكانت أنصاف حقائق تترى قدامه. والوزرة ساقطة عنه، واليقطينة كاملة الوعي ومنتعشة بسماد عضوي غامق حامز، وبمرأى الحلم الناقص يدهمه فوق الأرض. رجل في مطلع العقد الخامس. متزوج. نزاح. أب. محروم. ميت.. حي. بشر. صرصور. يحلم. يلهث. يغضب. يسمع ضحكة كفتيت اللوز والسكر. يشهد أردافاً ملتوتة ومعجونة بدماء غضة طفلة. صبيحة الفاجرة المومس. لحم «قوزي»[٤٣٩] مستخرج من جوف نعجة. الرجل المجهول، ظله المزعوم الآخر، يعبث تحت داره بالباذنجانة.. ربي!.. صبيحة «اتْعَسّي»[٤٤٠]!؟.. الضحكة الفرفورية[٤٤١] طوق ويحيط بعنقه. في الشباك رجينة وصبيحة.. الأرغن يصدح في البيعة.. الجوق يرتل.. يوم أحد!.. شرع اللّه يخلق الدنيا.. الهمسات!.. شيطانية عجماء!.. يتمطى يوم الخلق، يحتضن أيام الأسبوع الأخرى. حواء تستر عورتها بلباس مرسوم عليه زهور. الثوب حديقة تزهر بقرنفل وبزنبق وبنرجس!..

«عوع»!.. ضاحكة مرحة!.. «الحمام».. «فوت اغسل».. «لو تْحِكّو الْجِلْدَك بِحْجاغ سِكْغي هَمْ مَ تَغوح الْغيحي!»[٤٤٢]..

---

(٤٣٩) القوزي، هو الخروف الذي يستخرج من رحم أمه قبل ولادته.

(٤٤٠) كلمة عبرية معناها تفعل، والمقصود تزني.

(٤٤١) الفرفوري، هو الفخار الصيني.

(٤٤٢) مهما حككت جلدك، بحجر سكري، وهو فتات الطابوق كان يستعمل لجلي الأواني، فلن تزول عنك رائحة القاذورات.

«أشْ قَتْخمّل؟!.. قَتْصَلّي على ذْيالا!؟.. غوح دِوّغْلَك وَحْدي.. مَ قَحَط»[٤٤٣].. «اليوم أحّدْ. دَيْصَلّون بالكنيسة»...

اليوم أحد!.. أحد!.. أحد!.. أحد!.. الماضي والمستقبل والله!.. الكل أحد!.. الكل يصلي!.. الكل يخلق.. والكل يزني ويفجر!..

أحد!.. أحد!..

ـ آني أبوكي!..

لهث اللحم البض.. الضحكة الفضية ضحكة حواء.. خلق الله حواء في يوم أحد.. قبل الدنيا.. قبل آدم.. آدم مخلوق من ضلع حواء.. وأنت رجل!...

يُخلَق.. يتحطم.. يستيقظ.. يعتريه سبات.. قزم.. عملاق.. شرنقة.. دودة.. عذراء.. فراشة.. بيضة بْرِشْت.. «نِصّ ونِصْ».. «نَزّاح چچمَة».. في الدنيا.. رجل في يوم أحد.. في البيعة بيتهلون.. «هَسّه يجون».. «مِنو يجي؟!».. ينبوع الضحك لا يفرغ في يوم أحد.. همسات في أمعائه كدبيب نمل في يوم أحد.. في رأسه طنين زنابير في يوم أحد.. «إمّك.. أبوكي.. خْواتِك».. رجينة المومس تصلي هي الأخرى في هذا اليوم، الأحد..

ـ «لن يأتي أحد».

أحد!.. أحد!.. مشغول الله بعملية الخلق الصعبة. الناقوس يجلجل.. يرن في الحلم.. في الموت يدق. قد سبقناهم نحن «ماكو أحد».. لم يُخلق بَعْدُ أحد!.. في غفوة الأشياء يصحو..

---

(٤٤٣) ماذا تظن أهي راهبة متنسكة؟ أذهب وجد لك واحدة.

بسبات الموجودات يوجد.. ويستشرس في الحلم.

أحد!.. أحد!..

ـ بنتي صبيحة!..

هي ما زالت تضحك وتقهقه حتى وهو يمضغها بالأنياب:

ـ آني اسمي زكية..

صبيحة.. صبيحة!.. لحم قوزي بض مستخرج من جوف نعجة عجفاء.. رباه!..

«معقولة؟!».. لم يخلق آدم بعد!..

«معقولة، قبل ما اختلق أخطي؟!»[٤٤٤].

وقال سفاني «دِيغ بالك.. مَ يْسيغ تِجِفِتِ بْبَطْنك.. غوح دِوِّغْلَك على وَحْدي قَبِل ما تْسَوِّي فَدْ مَكْسوره»[٤٤٥].

أفيعقل أن آدم أنجب بنات قبل أن يُخلق.. ونام معهن؟!.. في يوم أحد؟!..

ـ صبيحة..

ـ لا.. آني زكية..

زكية؟!.. وتُفسر همساته اللامفهومة له.. بعناق.. في الحلم.. بالخمش.. في الموت.. بالتقبيل... بجنون العالم في يوم أحد، لا يوجد فيه أحد.. آثورية الهمسات.. ليست عجماء.. وهو يموت ويبعث.. يخلق ثم يتحطم.. يحلم في الحلم.. وفي الموت يموت.. ومراراً يجن عقله المجنون.. ثم يعود..

---

(٤٤٤) أيعقل أنني ارتكب خطيئة قبل أن أخلق؟

(٤٤٥) أحذر.. لا يجوز لك أن تكبت بداخلك.. أبحث عن واحدة، قبل أن ترتكب خزعبلة.

الدم!.. قرون شيطان متسيبة حمراء، وتجري فوق الفخذين!.. الدم.. العذراء فقدت بكارتها. قبل أن ينجب اللّه صبيحة!.. الدم!.. كان الشيطان هو الأول.. كان الكون مغموراً بالدم. في يوم أحد أزلي أبدي، كان الشيطان وكان الدم.. في يوم أحد يحتضن الكون، فاض الدم من أفخاذ العذراوات.. الناس تصلي.. يصلي الناس للدم..

ـ صبيحة..

ـ منو هاذي صبيحة؟

واحدة فقدت بكارتها.. في يوم أحد اللعنة والبركة.

كان بابا ليوي يحدق بدهشة حمراء، في يوم الأحد الغارق بالدم واللعنة والبركة. وكانت رقبة ديك أسود تُحْتزّ بحركة وحيدة خاطفة كالبرق، وينهمر منها الدم. وغمر الدم صحن بيت درويش، وغدا طوفاناً. وتلاحقت همسات معلم يعقوب. وبعكس همسات بابا ليوي المكتومة المتضحة، كانت هذه غير مترجمة بعد. وأحس الحجي حمزة العاقول بـ «حبيبه وعدوه» الشيطان. دعاه إلى أرضه، فلبّى الدعوة، ثم سقط في الفخ. وقال «يِمْكِن هَسّه إجا دُوري، وراح يْذِبْحوني مِثْل الديچ»، لكنه ظل كالصنم ولم يتحرك. كانت قدماه عالقتين في هذا الشرك الذي نصبه إبليس له على أرض ذريته الغيلان. وكان الشيطان يتشفى، والرحمن ساخطاً ويشيح بوجهه عنه ويصيح به: «تْلَگى أعمالَك» والديك الأسود:

ـ الأحمر يرتعص تحت أقدامه في رقصة موت مغتسلة في بركة الدم. وزاغت عينا الحجي الحمراوان وحطت على البردَة الحمراء. وكانت مضروبة على إيوان.. وصرخ فجأة بذهول:

ـ أشو الپردة دِتِخْتِلِـج مِنها وْبيها؟[٤٤٦].

ضاع سؤاله في آفاق صمت نصفي، ثم تلاشى في نبرات معلم يعقوب المهموسة. وكان يوم أحد مصنوع بيد إبليس وعلى شاكلته، قد عهد اللّٰه إليه بصنعه من قبل أن يعلن العصيان عليه. كيف خفي عن المولى سبحانه، أن الشيطان سيتمرد؟!.. اللّٰهم «إستر على عقلي».. اللّٰهم لا تتركني وحيداً في عالم الشيطان.. مد يدك واسحبني منه.. إنتشلني اللهم من دنيا الأسطورة.. اللهم إن الپردة تتحرك!.. عاصفة تهب في الإيوان.. عاصفة تنشب في رأسي.. خرساء الزوبعة في مملكة الغيلان الدموية المفقدة للعقل. عجماء همسات الساحر في بلد اللامنطق.. واهتزت الپردت. اللهم إنها تهتز فيهتز معها بدني. حاول أن يصرخ، فانقلبت صرخته في يوم الأحد المشهود المشؤوم، إلى غمغمة نملة مذعورة:

ـ مَ تْـفَـهْـمـونـي.. شِـنـو هـاي؟!.. مُـو عَـقْـلـي طـار مـن راسي؟!..[٤٤٧].

فسمع صوتاً كإنما يغرر به:

ـ فلوسك حجي.. فلوسك.

وتوسل:

ـ جزتْ سامَحْته للمرحوم.. ما أريد فِلوس بس طَلْعوني مِنّا.

ـ مَ يْصَير حجي. الحق حق. وعزوري مَ يِرْضى يِظِل مَدْيون بقبره.

---

(٤٤٦) لماذا تختلج الستارة تلقائياً؟

(٤٤٧) شنو هاي: ما هذا.

ـ جزت.. ماريد كل شي.. سامحتَه للمرحوم.. حسبة بسيطة[٤٤٨].

ـ لا حجي.. خمس دنانير مو حسبة بسيطة..

لعنة اللّه على الحمارة الحساوية.. لعنة اللّه على إبليس.. سفاني لا!.. وين صار سفاني؟! أشعل النار ولم يطفئها؟!.. ولماذا الرحمن لا يقهر خصمه ويريح البشرية من مكائده ومن مكره؟!..

كانت أفكاره تتحول كلها أسئلة يطرحها من دون لسان. أسئلة تُطرح على كون لا آذان له، في يوم أحد التدمير، وفي دنيا الخرافات، يسود نظام يختلف عن كل ما عرف أبناء الأرض. كان ثمة ألسنة، وثمة آذان، منتمية لهذا العالم الآخر، لا تعترف بالإدراك البشري البائس، لأنها ليست منه. وكان حمزة العاقول يسمع همسات «نبي اللّه» ويرى الستارة تتمايل في كل الأرجاء. والماضي طوق يلتف حول رقبته، ويتحلقه من كل جهاته. ماضي الزلة التعسة. مستقبل الرعب والأشباح.. دنيا الأسطورة والدم.. الدم!..

الدم!.. الدم!..

الدم!.. الدم!.. وسمع متانة سپير في قلب الروعة وبحار الظلمة والدم، صوت سفاني يلح عليه «إرجع قبل أن تهلك» وكان حماره ينهق، وعقله المنهوك يشهق وجسده الفارع المرتجف، ينهق فزعاً مجنوناً. وعاد خطوات فشاهد باب بيته على ضوء مصباح الزقاق الشاحب، فأدرك عندئذ، وفتك الرعب به، فتهاوت منه أجزاء

---

(٤٤٨) جزت، تنازلت وعدلت. والحسبة بسيطة، يقصد النقود، ولم تكن كما قال في الثلاثينات من القرن العشرين حيث تدور أحداث القصة.

وسقطت في أعماقه كقشرة طلاء جافة تسقط من سقف. وأيقن بألا خلاص لذاته، وأن الجمرة الحسناء غواية.. أحبولة الشيطان، وتعبث به. وأنهار على بعد أقدام من بيته. وسب نفسه وأباه والدنيا. وكان فزعاً، فزع الأطفال، وينتحب كما ينتحب الأطفال.. غرا.. أبله.. «مصقوراً»(٤٤٩).. ميتاً! وقرر أن يلقي بنفسه ثانية في بحر الدم، كي يغرق في ظلم العالم وأهواله، ويعيش في أحضان الموت!..

صاح بابا ليوي من أعماق «بالوعة» الحلم والموت والعقل «المنزوح»:

ـ صبيحة!

كان يحملق بروافد دموية كقرون شيطان سائلة حمراء، تجري على أفخاذ بضّة.. أفخاذ صبية آثورية.. «زكية».. أفخاذ إبنته صبيحة.. أفخاذ خطيئته المخلوقة في يوم أحد الخلق، ومن قبل أن يجبل اللّه الفخار ليصوغ منه آدم.

كان يحل شفرة همساته المتصاعدة في أعماقه كدخان المرجل.. آثورية مروعة قذرة لا تعقل. والرجل الأعور الأحمر الوجه يدمدم ما زال. والحجي ذاهل شاحب الوجه ومصعوق. والقدرة العليا تتجلى في أغرب صورة، وتعمل ضده. البرده تتحرك. من غير هواء. بالعاصفة تتحرك. ولم يدر أيواجه قوة الشيطان أو قوة الرحمن، أم هي قوة مشتركة ربانية إبليسية، يحركها في دنيا المعجزة اللامفهومة رجل منظره خادع حتى ليستنكف المرء أن يبصق في وجهه، ثم تروعه أفعاله فيحاول أن يطلق ساقيه المكبلتين للريح،

---

(٤٤٩) المصقور، لفظة مجازية تعني، المتجمد ذعراً أمام خطر داهم.

ويجري فاراً في أعقاب الإدراك الهارب.. أخيراً.. هوذا نبي اللّه أمامك.. يحيي الموتى لك.. ويعجل بقيامتهم من أجل دنانير خمسة تعسة «مُو دَيْبوگون بالْكوم، أشو لَعَد مَ قامَتْ على مُوذْهُم القيامة..؟! لَعَد آني ليش.. على خَمِسْ دَنانير تْقوم القيامة؟!»[٤٥٠].

مرة أخرى لم يدر. وأصابعه معقوفة. علامة سؤال صلبة. لحمية عظمية ودموية. مرتعشة حجرية غير قابلة للتحطيم. وتتضمن عقل حمزة المختل، وأعصابه المهزوزة، وأذنيه المندهشتين، السامعتين صوت الأعجوبة، صوت نبي اللّه، وعينيه الذاهلتين المفغورتين، الشاهدتين قوة ربانية بحتة تصرع الشيطان على أرضه، وتصرعه هو ذاته بجريرة فلتة عضلة مسكينة راقدة الآن في فمه لا تقوى بعد على النطق. ووضع إبليس بداخلها السبة، وأطلقها، ثم تخلى عنه:

ـ عزوري!.. جِبْتوك الْهون لْخاطِـغ تْحاسِبو للحَجّي. يُقول يطلبَك فْلوس. وْمَ حْلال تِظْل بْغِقْبتَك[٤٥١].

أبداًا.. «سَخْته»[٤٥٢]. كيف فاتتني هذه؟!.. هي ذي أحبولتك الأخرى يا شيطان.. لن ينطق الأموات، وعزوري ميت. رافقته يوم الجمعة إلى بلدة الأموات. أُهيل على عزوري تراب الدنيا «دَيْريدون

---

(٤٥٠) أفليسوا يسرقون بالكومة، فلماذا لم تقم القيامة بسبب ذلك، ولماذا أنا بالذات، وبسبب خمسة دنانير فقط.

(٤٥١) استحضرتك إلى هنا كي تحاسب الحاج فهو يقول بأنك مدين له، وحرام أن يبقى الدين بعنقك.

(٤٥٢) السختة، السخت وهو الزور والباطل.

اِبِنَزْلوني بالْحَجي.. يْجرّون مِنْ جَوّا لْساني الملعون»[٤٥٣]. أبداً. لا بدَّ أن وراء الپردة يلبد شخص حي. لن يكشف اللّه الأسرار مهما فعلوا. لن يلدغ مؤمن من هذا الجحر مرة أخرى.. خدعة شيطان سيحبطها اللّه لينقذ خصمه.. «يَعْني راح يِسْتِر عَلَيّا؟!.. يعني راح يْغَطّي على إبليس؟!.. يعني رْجَعْنا بِالْمرجوع».. أيهما مع الآخر؟!.. إن العقل يهدم ذاته.. والمعقول يفضي لمتاهة.. أين سفاني؟!.. أين سفاني؟!..

الپردة ارتجت. وهو محاصر. لا مهرب. ولماذا تخاف؟!.. أفيعقل أن ينطق الموتى؟!.. لا جدوى!.. كان يهفو إلى الموت. وكان متانة سپير، يحاصره موته، وهو يلقي نفسه في أحضانه.. كان يبحث عن موت في أعماق موت، وتمتم يتشاهد «إسمع إسرائيل.. اللّه إلّهنا، اللّه واحد».. ثم ألقى بنفسه وحماره في البركة الحمراء، وكان يلقي بذاته على باب موصد وارتطم بالحاجز، ففرقع في أجواء الليل الصامت صوت جلبة معتوهة. وانفتح الباب، فرأى متانة وجه أبيه العابس الغاضب وكأنه وجه ملك الموت. وكان يحاصره من كل جهاته، فأجهش في أحضانه ببكاء قاس ومرير!..

عبثاً حاول الحجي أن يفهم، أو يهرب، أو يخدع ذاته بالمعقول. وكان عقله منبعجاً بين طرفي كماشة المنطق. طرفين لا يملك في هذا العالم غيرهما. هذا العالم المسدود المنفصل عن كل ما كان يعرف. هنا في بيت درويش. في بركة دم موجودة في كل مكان، بركة دم ديك أسود. وفي همسات تتصادى حائرة بتجاويف كيانه الفارغ إلاّ من إحساس رعبي غيبي والپرده تتموج من أعلاها إلى

---

(٤٥٣) يريدون استدراجي بالكلام، ويستخرجون هذا الكلام من تحت لساني.

أسفلها، ليس بدفعة طفل، بل ربما من نفخة ريح خرساء. وعاد يتساءل: «هيّه معقولة اللّه يِطْبُگ وِيّا إبليس؟ وإذا مَ مَعْقولة، لَعَد معقولة الميت يِخچي؟!» ليبرئ اللّه نفسه ويخزي عدوه الشيطان. وهاله أن يتحقق هذا، وهاله أن يتحقق ذاك..، وهاله أنه لا يملك أن يهرب لوراء، أو يعدو لأمام. وفي كل هذه الأهوال ألحت عليه أمنية صادقة ولجوجة.. الموت!.. وكان هذا الموت في رأس الحجي وروحه. كان في ماضيه الممسوخ إلى مستقبل.. في دم ديك أسود مسفوح.. وكان أيضاً خلف البردة:

ـ عزوري!.. شْغيكك هوني.. احْكي وِيّانو.. قِلّو أشْ قَدَغْ يِطْلِبك[٤٥٤].

أيخاطب الموت، فيجيب؟!.. معوجة أصابعه الحجرية. كروحه. مثل أفكاره. لِمَ لا؟!..

«آني لَعاد مُو دَااخذ وانْطي وِيّا روحي؟!»[٤٥٥].. كيف نعم، وهو يموت لأنه يوضع في وجه محال؟!.. لِمَ لا وكيف نعم، وهو يدفع من لحده، هذا لسانه الكافر الميت ويشحنه روحاً قوامها رهبة واستنكار.. ويتساءل بظلال الصوت:

ـ يا مْعَوْدين. لَتْخَبْلوني.. مُو دِفْنو الْعِزّوري جدّامي.. آني بيدي ذَبّيتْ فوگاه حفْنَة تْراب.. معقولة يْگوم وْيِجي لِهْنايا وِيْحاچيني؟!.. إي شْلون يْصير.. مَ تْگولون فَدْشي يْشيلَه العَقِل؟![٤٥٦]

---

(٤٥٤) .. شريكك هنا فكلمه وقل له كم تدين له.

(٤٥٥) أفأنا لا أجادل ذاتي الآن؟

(٤٥٦) لا تفقدوني صوابي. أفلم يدفنوا عزوري أمامي، وأنا بذاتي ألقيت فوقه

العقل؟!.. هو ذا يتخبط كالديك المذبوح في الصمت الصاخب الضاج. هو ذا يذوي مع مقدم الصوت، صوت اللاممكن يتناهى معه. في هبة ريح، تلعب خلف ستارة. صوته آت مثل حد شفرة، كي يقطع جوزة حلقه، مثل رقبة الديك المذبوح الرقبة. كان هناك معه. في ذاكرته عشرين عاماً ويزيد. كان هناك في عالم الموتى منذ يوم الجمعة.. منذ يومين وحسب. صوت لا يمكن أن يصدر عن غير عزوري، ولا يمكن أن يسمعه بعد أن مات عزوري، لكنه يسمعه الآن كما في ظهر يوم الجمعة، يسمعه كما كان يسمعه منذ عشرين سنة ويزيد. كان عزوري الآن حياً، وكان شريكه ويحاسبه في دخل الأسبوع.. ويسمع صوته من خلف «البردة» ميتاً. ويزوره حياً كي يصحبه إلى دنيا الأموات. اللعنة على إبليس. والعار لي بحياتي ومماتي.. وكان الآن ميتاً لكنه يحسد كل الأموات:

ـ حَجّي.. نْسيت، يوم الجمعة تْحاسبنا وْكُلّ واحد أخَذ حَقّه.. چان باقِيلَك عندي درهم.. حتى بْنيشان گتْلَك أنْطيك الدِّرهم يوم الأحد.. مو تمام حَجي؟!..(٤٥٧)

أشهد أن اللّه حق!.. وتهاوى.. ومات عدة ميتات.. وكان في إحداها يمسك نعله بيديه ويقطعه على عنق الشيطان وعلى رأسه، وهو يهتف به: «إي لَكْ شْلون تْوازيني؟!» لا ينفك يرددها، وبصوت معتوه ينفجر على حين غرة، من قلب ميتته الأخرى الغيبية:

ـ مَعْقولة المَيّت يِحْچي؟!.. شِفْتو بَعَد مَيّت يِحْچي؟!

حفنة تراب، أفيعقل أن يقوم ويأتي إلى هنا ويكلمني؟ كيف يمكن؟.. قولوا ما يصدقه العقل.

(٤٥٧) كان قد بقي لك معي درهم، بدليل أني قلت لك سأعطيك الدرهم يوم الأحد.. أليس صحيحاً؟

وصوت آخر جبار النبرة صاح من أعماق ميتاته المتراكمة كطود فناء:

ـ هـاي وِيـن صـار سَـفـانـي؟!.. يـعـنـي إلاّ الـيـوم مَ يـجـي سفاني؟![٤٥٨].

(٤٥٨) أين أصبح سفاني، وهل اليوم بالذات لا يأتي؟.

١٧

كانت الشمس عتمة. مدفونة تحت سحاب. وسقف دكان الشاي يحجب الغيم. تنقبض روح خليف وتعتصر بين جنبيه، وهي مجللة بأثواب حداد الدنيا. ثم تزهق خوفاً من أن ينبلج النور..

حول الطاولة القذرة كانوا منغمسين بمطاردة خيط شعاع. وشعاعهم المفقود حجافل ظلمة تقصده من كل جهاته. تفاوَت جوهر النور، وتناقَض معنى الشيطان.

كان يدرك أن عين الشمس لا يسترها منخل. بيد أن الشمس كانت ظلامه. فاجعته الذاتية. وهناك حول الطاولة ثلاثة حمقى لن تطلع شموسهم المختلفة ما لن يأتي سفاني!..

سفاني مجلود الرقبة لو جاء، فستتغير الأحوال. النور سيضحى، رغم كل الأشياء، نوراً فحسب. ولن تطلع شمس مظلمة عند معدات الشاي، لتغيب أخرى ساطعة قرب الطاولة القذرة. وفجأة يفقد عقله. إنه لا يفهم هذه الألغاز. هيهات!.. كان الفأس قد طاح برأسه. وسفاني لن يرجع فيتبدد هو ألف شظية في آفاق مجاهل المعميات.

كان فتاتات مبعثرة في ألف موضع. ولكل فتاة منها عين شاهدة وأذن تسمع. إنه وحده يعرف. وحده يتخبط بين الأمس واليوم.

وأشلاء منه تقذف أيضاً إلى عمق الغد. كان لمأساته رأس ووسط ونهاية ناشبة كالشوكة المسمومة في حلق الغيب. وستنشب في حلقه. صوت الحجي ينشب في سمعه «هاي وين صار سفاني؟!.. صوت النزاح.. «وينو سفاني؟!.. ساغ نِص ساعة قدَضْطَنْدِغ وْماكو»[٤٥٩].. حتى صوت متانة سپير المتلعثم الحيواني الباكي.. أطياف تنحدر كمسامير وتدق في عقله. الأمس الغادر المشؤوم.. أمس سفاني.. يوم أحد الشيطان.. ممتدة جذوره الدنسة في آماد قلبي الطيب. ضاربة في آفاق الأيام المنصرمة. ثقيلة وطويلة تلك الأيام لكن حصيلتها لا تعدو نفخة هباء في الريح.. تبدو كالأمس تماماً.. قد ربيت نغلاً ـ حاشا أمي ـ ودمرني.. طَلَع قِتّالي[٤٦٠].. قتل الدنيا.. كانت دوريس مُلكاً لي، حتى جاء يقتل هذا الوهم. لماذا لا يترك سفاني أحداً يحيا على أوهامه؟!.. وما أجمل أن يحيا المرء على أوهامه.. أفليست وهماً الدنيا، مثل سفاني؟ قتلها سفاني.. قتلها.. الدنيا الحلوة الزاخرة بالأحلام والأوهام العذبة.. كان يريد أن يلغي كل العادات المألوفة.. أن يبطل هذا العالم.. أن يأتي بآخر من صنعه.. قتل سفاني العالم.. قتلني سفاني.. قتل سفاني نفسه.. اغتال الحق والباطل.. حتى دوريس.. إن أسنان سفاني مزروعة بقلوب الناس.. أسنانه تأكلنا.. قلت لدوريس:

ـ قَلْبي قَيَاكِلني عْلينو[٤٦١].

فقالت:

---

(٤٥٩) مضى عليّ نصف ساعة أنتظره ولم يأتِ...

(٤٦٠) أي، كان سبباً في موتي.

(٤٦١) يأكلني قلبي عليه قلقاً.

ـ بَسْ بيك الْحَكي. . مَ تِتْحرك. . قوم غوح دَوِّغ غْلينو[٤٦٢].

منتصف ليل ملعون. . الحب الأحمق يلطم رأسه. . في المجهول يتشطط، فاقد العقل قلقاً من أجل سفاني. . وهو في الغيب يسعى في أعقاب الدم. . «المأجور». . «الإرهاب» «التمرد». . «الثورة» مصطلحات شريرة انغرزت في عقلي الجاهل. . علمته، فأعطانيها مع اللعنة. بصمات أصابعه لا تمحى كالوشم. حتى لو طارت كل الكلمات، ستبقى هذه. «لَكْ احْنا أشْ جابْنا على هايي السْوالف؟. . نِحْنا أوادِم مسْتوغين، فَنْمْشي عق الْحايط»[٤٦٣]. سخر ابن الملعونة. . «الدِّني سَقَط»[٤٦٤]. . «عالم أعوج تحكمه الأخطاء». . مِلْيان ديوات. . «ليش عَبالَك تِقْدَغ اتْخَلّص؟. . مَ بس لو تِمْشي عِقْ الْحايط، لُو تدخل ابَّطْنو، هَمْ مَ تْخَلِّص»[٤٦٥]. . «أنت جبان». . «أنت شيطان». . «أنت لا تدري بما يجري من حولك». . «إني أتستر». . «أنت تعيش على هامش الدنيا». . «ليكن، فالدنيا نار». . «لن يسلم أحد من نار الدنيا». . «أنت مجنون. . عيناك لا تريان الماء». . «في هذا العالم لا يوجد إلاّ البترول». . «هل بالنار تُطفأ النار يا أحمق؟!». . «النار تحرق والنار تطهر آثام البشرية». . «أنت شيطان. . متعطش للدم». . «أين دمك؟!. . هل تملك قطرة دم؟!. . إنها دنيا علقة تمتص دماء المخلوقات». . وقال:

---

(٤٦٢) لا تعرف غير الكلام. . ألا تتحرك؟. . قم وأبحث عنه.

(٤٦٣) ما شأننا نحن بهذه الأمور. نحن أناس مساكين نتحفظ ونسير لصق الحائط (أي تحاشياً للمشاكل).

(٤٦٤) مليء بالأمساخ. أفتظن أن بوسعك الخلاص، ليس فقط لو مشيت لصق الحائط بل حتى لو دسست نفسك بداخله.

(٤٦٥) أي الدنيا خطأ وخراب.

«سأفجرها!». . شيطان مجنون معتوه. . «صدق أنا مَ تْعِلّمْتو، بَلاكِت عايَنْتو وِسْمَعْتو»[٤٦٦]. . وشاهدت حروباً وفواجع حمراً. . لن ينجو العالم بالقتل. . «هل يمحو الإرهاب الإرهاب؟!». . «أنت تعيش بالوهم». . «كلانا بالوهم يعيش». . دوريس. . هل تذكر؟!. . هيهات. . كانت دوريس إنسانة شريفة حين لم أعرف، وحين عرفت لم يبق منها إلا المومس. «العالم لا يرضى بشيء. . وأنت تهدم». . «سأصوغه مرة أخرى كي تغدو الدنيا محتملة». . عَقْلي مَ شأله. . هِيكِذْ يْغيروها لِلدِّني؟!»[٤٦٧]. . ما أهون العدم، ولكن التشييد. . «لا بدَّ أن هناك طريقة أخرى». . سخر الشيطان، ابن الـ. .

عقلي توقف. . لكني سمعت ورأيت. . !. .

(٤٦٦) صحيح أني لست متعلماً لكني رأيت وسمعت.

(٤٦٧) لم يهضم عقلي ذلك. أفحقاً هكذا يغيرون الدنيا؟

١٨

. . . أمسية يوم اثنين، وثلاثة حمقى حول الطاولة المأفونة. . لماذا لم تمسح الكف الدموية؟!. . السمع طنين. . الرؤية ضباب. . المحنة رمادية. . الرعب غمامي. . الكارثة حمراء. . الدكان بصق السائل الأحمر. . كان مصدوراً. . مات!. .

هل مات حزاقيل؟!. . الحمقى ماتوا جميعاً، بيد أن الألسن ما عتمت تلهج به:

ـ وِينه هذا إبْنِ الزَّفْرَة؟!. . عندي ثار ويّاه!. .[٤٦٨].

لماذا؟!. . الأنظار تنصب عليه. الزلبوح[٤٦٩] المتمايل يسنده الشرطي. الكلمات الثملة المطاطية ذات رائحة الخمرة، سلسة:

ـ أشـو مَـلْـجـومَـه بِـتِّ الـسِّـلْـطـان؟!. . أشـو حـتّـى سَـلام ماكو؟![٤٦٩أ].

مشدوهون. . مصعوقون. . (بعيدة إسطانبول!).

---

(٤٦٨) أين ابن العاهرة هذا، إن لي ثأراً معه.

(٤٦٩) الدودة.

(٤٦٩أ) لماذا ابنة السلطان بكماء (يقصد أن الجميع خرسوا ولم يحيوه أو يردوا التحية).

ـ دِوَخرو خَلّي نگعُد.. جيب اسْكَمْلِيّين.. وين راح إبن الزَّفْرَة؟!.. وَلاَ يْهمَّك أخويا مسعود. آني مُو مِقِرْباز.. هَسّه يِجي. واخُذْلَك مِنّه الدِّينارين.. تْلاثَه وْداعْتك.. أربعة.. عشرة.. تِستاهَل. أنته ومْاكو غيرك.. گلْنا جيب اسْكَمْلِيّين.. وْپيكين عَرَگ.. يعني اسْتِكانين چاي.. هاي وين صِرِت.. أطرش، لُو مَ دَنْعِجْبَك؟![470].

في عينيه شرارات حمر تتطاير. دموي النظرات.. تختزن الأسرار. أفحقاً الشر يمحق الشر؟!.. تحرك!.. يا أبله يا حيوان يا من إبليس شقيقه!.. كرسيان!.. لْچبير الْعَساچر وْلِلْبيگ[471].. كان سفاني يحتقره!.. كان يقول: «الحشرات البشرية أنواع!.. محسوبة وأصيلة وممسوخة.. متقنعة ومقنعة ومن غير قناع!.. ذباب وصراصير وبعوض».. أأنا حشرة؟!.. بعوضة وحسب؟!

ـ هاي وِين صَارَت الِسْكَمْلِيّات؟!.. قابِلْ لحيتي گصيرة؟!.. مَ دَنِّحْچي وياك؟!.. ليش إحْنا دَنْذِبّ نَفِسْنا تَبَل عليكم.. ليش آني مِثْل أبُويا؟!.. مِثِل اللَّه؟!.. ليش هالْخَوات الگحْبة الگاعْدين عَالْميز أحْسن مِنّي؟!.. مَ تِحْچي اخويا مسعود. يِبَيِّن هذا مَ راح يْمَشِّيها ابْفالْها[472].

(٤٧٠) تأخروا لكي نجلس. هات كرسيين. أين ذهب ابن المومس. لا تخف.. فأنا لست ممن يغمطون حقوق الناس سيأتي عما قليل وسآخذ لك منه دينارين.. ٣.. ٤.. عشرة. فأنت تستحق ذلك.. أنت وليس ثمة غيرك (أي أنت أفضل الناس) قلنا هات كرسيين، وكأسي خمرة، أعني فنجاني شاي.. أين أنت؟!.. أطرشت، أم أننا لا نعجبك؟

(٤٧١) كبير العسكر، أي القائد ـ تقال استخفافاً واستهزاء.

(٤٧٢) أين الكراسي؟.. فهل لحيتي قصيرة (أي لا كلمة لي) أو لا نكلمك أنت؟ هل نحن نلقي أنفسنا عبثاً عليكم.. أفأنا كأبي.. أهؤلاء الجالسون على

تحرك!.. الكرسيان!.. بالساقين الخيطين أسعى إلى حتفي..
في منتصف الليل سعيت..

ـ انْمَدّ بَلاَ زَحْمَه، خَلّي يِقْعد إبْن الْپاشا الْمُدير.. وْچبير العَساكر[٤٧٣]:

ـ يَعني دَتْمَزّق؟!.. يَعني مَ داعِجْبك؟!.. آني وْمسعود نْشَرّف عَليك وْعلى أخوك وْعلى كُل هَذولَه الْگاعْدين[٤٧٤].

عجباً!.. لم تقع المعمعة بعد. حسبت الثلاثة سينهالون عليه.. ماذا يحدث؟!.. طويلة صلاة الغيب الكافرة الوثنية!.. متهدجة لا تسمع.. أين ذهبوا؟!.. أين ذهب البارحة سفاني؟.. سألته دوريس:

ـ وين ساغ يعني؟!..

ـ اشْ اسْوّي!.. تِعْبان.. هِلْكان، لَكِنْ قَلْبي مَ قَيّطْعيني.. دقوم أدَوّغ عْلينو.. امْتِعّبْني هذا الْولد.. مَ مْخُلّيلي دَقيقي غاحه[٤٧٥].

وصاح حزاقيل:

ـ وين صار الچاي؟!.. يعني لَمّا تْزَهكْني؟!

وتساءل بابا ليوي:

الطاولة أحسن مني قل أنت يا مسعود.. يبدو أن هذا (خليف) لن يترك الأمر يمر على خير.

(٤٧٣) تنحوا من فضلكم ليجلس...
(٤٧٤) أتظنك تمزح.. أفلا أعجبك.
(٤٧٥) ماذا أفعل.. تعبان لكن قلبي لا يطاوعني فلأذهب وأبحث عنه. هذا الفتى لا يترك لي لحظة راحة.

ـ وين ساغ سفاني؟.. ساغ ازيد مِنْ نِصّ ساعَة قَدَضْطِنْدِغو.. قول.. إذا وِجْعان دَنْغوح لِينو لِلْبيت[٤٧٦].

ومتانة قال:

ـ بس قدغيد اعاينو.. دَوْقَع على إيدو وَابوسا.

والحجي سأل:

ـ هاي وين صار؟!.. يعني إلاّ الْيوم مَ يِجي؟!..

وصاح حزاقيل:

ـ وين صار الچاي؟!.. هَاي وين وَلّى إبن الزَّفْرَه، راح وْخَلالْنا هَلِجّنازَة؟!..

وقال خليف لسفاني:

ـ وْلَك مَ طَلَع دَغْب.. سِوّيتا للْمَكسورة؟!.. طْلَعْت مِنْ حَقّي؟![٤٧٧]

فصاح سفاني:

ـ بَعَد مَ تْعايِنّي.. بعد مَ تعايني[٤٧٨].

عميت. غرقت عيناي في أوقيانوس الدم. في أعلى كتفه كان النبع الأحمر. وهو مبتهج وسعيد. الشيطان يحيي عرس الإنسانية المفصودة.. النازفة المنزوح دمها.. ويخضب يده بالحناء. ملعونة الحناء حين تتفجر من جسد الإنسان وتغدو عهداً يبرمه مع قدره ومصيره. «بدمي سوف أغسل العالم»..

---

(٤٧٦) منذ أكثر من نصف ساعة وأنا أنتظره، قل إن كان مريضاً فسأذهب للبيت إليه.

(٤٧٧) ويحك.. حدث ما كنت أخشاه.. ارتكبت الخزعبلة؟!.. وسعيت إلى حتفي؟!.

(٤٧٨) لن تراني بعد...

ـ لَكْ إبْنِ الْـ. . غْغَفْتَ أشْ سِوّيت؟! . مَ كِفّاك أشّ مَ قَتْسَوّي، لَمّنْ غِغّقِتنا بالدَّم؟[٤٧٩] عميت!. . قصوري، عائمة في دجلة، مناراتي غائرة في جوف الأرض. عقلي كان يتنفس من خلف مصفاة. . العطر والنتن سيان!عجباً!. . هل يختنق الرأس، عوض الصدر؟!. . تماماً!. . بالتأكيد توجد في العقل رئتان. . وتوقفنا. . رأسي يختنق بالفعل. . عيناي!. . أذناي!. . أجل. . الشاي. . إني أكمكش[٤٨٠]. . لحتفي أسعى. . لم يحدث هذا حين شاهدت دوريس تمرق كالمقلاة السوداء عبر الباب المشبوه. . تمام انْهَدّ حيلي[٤٨١]، لكنني سلّمت أمري إليك. . قلت: «لم تخرب الدنيا بهذا» ثم اعتدته. ظل النذل الشيطان يلح علي. . لم يتركني حتى. . الشاي يابن الپاشا المدير. . طوق الحمقى محكم حول المائدة الملعونة. . كان هنا في منتصف الليل. . يلهث ويخضب جسد العالم بالحناء البشرية. . يلتذ بقتلي. . قنبلته الفتاكة ينزعها من صدره ويلقيها على «الميز». .

ـ شْلون چاي هذا؟!. . تْگول ماي غْسالَه؟!. . هَمَ أحْسَن[٤٨٢]

يدفره. . أحمر كالفوّة. . فوّة كالدم. . يجري فوق الطاولة. . والكف عليها، تسخر منهم، وتقول لهم «موتوا» فتصفعهم، ويبقون «مصفوعين». . منشدهين. . خرساً. . معتقلي الألسن والفكر والحركة، والأرواح. . .

---

(٤٧٩) أعرفت ما فعلته؟ ألم يكفك ما تفعله حتى أغرقتنا بالدم.

(٤٨٠) أكمكش، أتلمس دربي وأتحسسه بالأصابع.

(٤٨١) صحيح أن قواي قد تهدمت. . .

(٤٨٢) أي شاي هذا، لو قلت إنه ماء غسالة (وهو ماء غسل الفناجين بعد شربها) فماء الغسالة أفضل.

١٩

أحمر كالفوة. . فوة كالدم. . ويسيل فوق كف دموية مبسوطة. في يوم أحد الخلق. . يوم أحد التدمير. . قرون شياطين قانية سيالة على أفخاذ صبيحة. . أفخاذ آثورية. الهمسات كانت آثورية. في الحلم. . في اليقظة. . في الموت. . في البعث. بفرار صوابه، وبأوبة عقلة، يعرفها. .

ـ وينو سَفاني؟!. . خَلّي يجي بَقى. .

يوم أحد مشهود. . يوم ذو أجنحة سود وحمر. مبسوطة فوق الماضي والمستقبل. . تحصر الكون. . وتخيم فوق الدهر. . والدم يسيح ويفور. . والميت ينطق من خلف ستارة. .

ـ وينَه سَفاني؟!. .

لاَ!. . لا!. . هذا يكفي!. . أفحيثما أذهب يمسك المسلخ بخناقي؟!. . يلحقني المد الدموي؟!. . إني عرفت ذاتي. . ميت!. . عند الباب سقطت. . وأدركتُ ووعيت. ضاعت خاتون. . الجمرة حياتي. . «ملعونة الوالدين» سحبتني من أحضان المرحومة أمي. . قادتني لمصيري. . المسلخ. . «ومخاضة الدم». . «يعني بِالْقُوّة قَتُغيد تُسيغ آذمي؟!». . قال لي. . «ازجَع بِالْمِرْجوع». .

رجعت ثم تقدمت.. أين أيمم شطر وجهي؟!.. سقطت على عتبة الباب. عزرائيل أبي.. وسفاني.. سفاني!.. هل ثمة أمل؟!.. أَوَيَرجع الميت من قبره؟!..

ـ يا مْعِوْدين.. وينو سفاني؟!..

قال سفاني

ـ بَعَد مَ تْعايني.. قَدَقِلّك بَعَد مَ تْعايِنّي!..

ومضى.. وكان مكلوماً.. شيطاناً ويلعق جراح ذاته.. في منتصف الليل. وجلست لا أفعل شيئاً. أتمرغ بدهشتي وذهولي.. منزوعة مني حركاتي.. نسيت كل الكلمات.. أرقتها كالسم القاتل. زعاف فتاك، الكلمات.. كلماتي.. كلماته!.. الدم!.. امتص دمي!.. أفحقاً؟!.. أنت حمارا.. حتى متى؟!.. وعلى الفور «ساغْ عِندكْ فَوُران دَمْ»[٤٨٣].. رأيت سيل نزيفه يتدفق من حلق العالم مثل طوفان.. يغطي العمر القادم.. يغرق المستقبل.. يغمر كل الناس. لا ينجو منه إلاّ حزاقيل.. ليعربد فوق الجثث الغرقى المحمرّة..

ـ لَكْ شْلون نَمونَه إنْتَه؟!.. اللّه ايْچرِم.. جايِبْلي چاي مَال گبور.. عَبالي أحسن مَنْ اخْوه.. أثارِي الْخرا أخو الْبول.. بَلاكِت ذاك الملعون يْسَوّي چاي بيرنْجي. وِينَه؟!.. روح صِيح عَليه.. خَلّي يْسَوْيلْنا چاي مال أوادم.. أشُو واگف؟!.. لَكْ مو وِيّاك؟!.. آني مَ حّدْ يِگدر يْغِشْني.. تَمام لُولا مسعود أخويا؟!.. مَ تْگله لْهَلِخْمار.. دروح.. روح.. صِيح على اخوك.. خَلّي يُسّويلْنا

---

(٤٨٣) أصبت بضغط الدم العالي.

چاي. . إصْطِبر مسعود. . آني مُو مِقِرْباز. . هَسّه تْشوف آني شْلون خوش ولد(٤٨٤):

ـ تْحِبّينو السَفاني؟!. . (٤٨٥)

قالت بعد تأن

ـ اخوك خُوش ولَد.

من منا لا يعشق الشيطان أحياناً؟!. . ما دامت النار لم تعلق بقدميك. . «مِنْ هَالجِّهَة لا تْخاف»(٤٨٦). . أفحقاً كان عفيفاً الشيطان؟!. . «قَتْقوله؟!. . مِخّو كان ليفِت على غِيغ خْكِيّات»(٤٨٧). . أكبر أعظم. . أدهى!. . تحلم في تحطيم الدنيا. . ماذا تفعل؟!. . هذه كمية تكفي عشرة «قُورِيّات». . لا ضير. . ليشبع حزاقيل. ما دام وحده الباقي، وغدا ليس بعداد الأيام والمستقبل يرسو في قاع البحر الأحمر. إني سعيت وراءه في منتصف الليل:

ـ وِين السّعه أغوح أدَوِّغ؟. . ليش اغْغفْ وينو؟(٤٨٨).

ساقتني قدماي إلى هذا الدكان «الْمِهْجوم»(٤٨٩). . نصف

---

(٤٨٤) ويحك. . من أي طراز أنت؟. . كرم اللّه (سخرية واستهزاء) جاء بشاي (ينفع) للقبور (أي ليس بشاي، أو أنه شاي رديء). ظننته أحسن من أخيه، فإذا بالقذارتين صنوين، إلا أن ذاك الوغد يعد شاياً ممتازاً. أين هو؟ إمضَ وناده. ليعد لنا شاياً معتبراً. لماذا تقف؟ ألست أخاطبك؟ أنا لن يخدعني أحد. قل لهذا الحمار يا مسعود هيا اذهب ونادِ أخاك. . صبراً يا مسعود. لست ممن يأكلون حقوق الناس، وسترى أي إنسان طيب أنا. .

(٤٨٥) اتحبين سفاني؟

(٤٨٦) لا تقلق من هذه الناحية (يعني أنه لم يخنه مع دوريس).

(٤٨٧) أوَثَمة ما يقال في هذا؟!. . كان رأسه متجهاً نحو أمور. . .

(٤٨٨) أين أمضي الآن لأبحث عنه، وهل أعرف مكانه؟

(٤٨٩) المهدم والخراب، وهو مجرد دعاء يعبّر عن برمه بالمكان.

«كپنگه»[٤٩٠] مفتوح. وداخله يتقيأ نوراً. لصوص؟!.. يا للصدفة!.. ولكن، ماذا في الدكان غير بعض أوان صدئة وكؤوس مثلومة وطاولة عرجاء؟!.. حمقى!.. حمقى!.. ماذا سيسرقون إذن؟!.. هل لي في الدكان قمر بدر لا أدري بوجوده، فجاءوا لسرقته؟!..

أحمق.. أحمق.. من يبغي سرقة أعمار الناس، والدنيا، فهو ليس بحاجة إلى أن يرفع رأسه نحو البدر.. حتى الشمس غرقت وانطفأت في طوفان الموت الأحمر!..

ـ لَك يلّله.. وِين صار الچاي.. دَاأريد أصَفّي دَماغي حَتى أگدَرْ أفكر. آني مُو مِقِرْباز.. شْلون مُخَلّيني وِيّا هَالدّماغسزّيَة؟!.. لَكْ دكانك مْعَفّن.. امْوخَمْ من حَچي أخوك الجّايِف.. هاي وين صار أخوك الجّايف.. لَكْ آني مُو حَزاقيل إذا بَعَد أعَتّبْ بْهالدّكان.. بَس آخُذ حَقّي وَاتْكَسَّح..[٤٩١].

لم لا؟.. هنيئاً لك.. أفليس على السكران حرج؟!.. اللّٰه وعباده، يدينون لأشرار الدنيا.. ومجانين العالم..

ـ اِشْ بَكْ طول عِمْغَك، يِطْلَع ضَوْ مِنْ حَلْقَك؟ عَبالَك مْدايِنو اللّٰه مليون دينار؟[٤٩٢].

تضحك في فمه النار الموقدة:

---

(٤٩٠) الكپنگ، خصاص الدكان المعدني.

(٤٩١) ... كيف تضعني مع هؤلاء الأغبياء.. دكانك منتن، وثقيل الجو بسبب كلام أخيك العفن. لست بحزاقيل لو دخلت هذا الدكان مرة أخرى، بمجرد أن آخذ حقي وأترككم للجحيم.

(٤٩٢) ما بك، وأنت لا تفتأ تبصق ناراً (أي أن أحاديثه ملتهبة) جهماً، كان اللّٰه مديناً لك بـ...

ـ ظِلّ قِشْمِرا التّفْسَك.. ليش هايي هَمْ دوريس؟![٤٩٣].

الشاي تخدّر[٤٩٤].. يتفقع مثل طوفان الدم الفوار المزبد. أسود غامق. ثوب حداد تلبسه الدنيا. حين رأيته خيم ليل غير الليل الضارب أطنابه فوق قلبي وعيوني.. ليل المحنة.. ليل الشر.. ليل إبليس..

ـ لَكْ طاحْ حَظّك على هَالچاي السَّوِيّته.. مَ تْعِرْفون تْسَوّون شِي عَاللأصول؟!.. يَعْني لُو عِتْميهْ لُو بِسْراجين.. لُو ماي غْسالَة، لُو كنكِينَة؟![٤٩٤].

لن يرضى بشيء حزاقيل. وهذه دفرة أخرى.. كم يشرب هذا «الميز» المسكين؟!.. ولماذا لا يبقع الشاي بخلاف دم الإنسان رغم أن الشاي أكثر سواداً منه؟.. وثلاثة مشدوهين مصعوقين ملجومي الأفواه. فجأة، لا تعنيهم الأشياء.. فجاة، غير موجودين. وقال:

ـ بَعَد مَ تْعايِنّي!..

وسرقهم ومضى في حلكة الليل. شد كتفه بقميصه. لبس كنزته فوق الفانيلة.. ثم، سترته الرئة العطنة، و«بغِتْرَة»[٤٩٥] لثم وجهه.. مَمَ؟!..

حزاقيل يعربد. وفي رأسي جوق الندابات. يلطمن. يندبن الطعنة.. ما عدت أعرف شيئاً.. أأصابني؟!.. أأصبته؟! أأصاب نفسه بنفسه؟! أذاك «المأجور» أصابه؟!.. أهو أصاب

---

(٤٩٣) تماد بخداع نفسك.. أفهذا أيضاً دوريس؟!...

(٤٩٤) ليصبك النحس بسبب هذا الشاي الرديء الذي أعددته. أنتم لا تعرفون إعداد شيء كما يجب. فأما بسراجين أو بالعتمة (أي على طرفي نقيض) أما ماء غسل الفناجين، أو ثقيل ومر كأنه الكينا.

(٤٩٥) الغترة: الكوفية.

«المأجور»؟!.. أم كلاهما أصاب الآخر؟!.. الدم أعماني. لكأني لم أرَ بحياتي قطرة دم سائلة من أصبع:

ـ شافو الوچك؟!..[٤٩٦]

ـ ما اغْغِف!

ـ شافك وين جِيت؟!..

ـ ما اغْغِف..

ـ ساغ بِينو شين؟[٤٩٧]

ـ ما اغغف:

ـ مات؟!..

ـ كان لازم يْموت.. لكن ما اغغف..

ـ اشْ تِغْغِف لَكان؟!.. مَ تِخْكي[٤٩٨].

وتطلع بالخنجر، ومسح على الشفرة القاتلة بحب العاشق لعشيقه.

الخنجر.. كان مخضباً بالدم.. مجرم بين يدي مجرم. كل حبي وحناني له، ينقلب جريمة في طرفة عين. وبطرفة عين أمسيت بدوري جريمة. فجأة أصبحت وإياه «قابيل وهابيل». في الواقع، كان «هابيل» ميتاً، و«قابيل» وحده حياً يرزق. وكانا مع ذلك يتجاذب بعضهما البعض. والواحد فرح بجريمته، لا ترقى إلى قلبه ذرة ندم ولا يبدو عليه تأنيب ضمير، والآخر بالندم المهلك يسعى إلى قتل جريمته الملعونة:

---

(٤٩٦) وهل رأى وجهك؟

(٤٩٧) أحدث له مكروه؟.. أي هل أصيب.

(٤٩٨) ماذا تعرف إذن؟!.. تكلم.

ـ قَدَطْعيك فلوس، حِتّى تِشْتَغي خْنيجِـغْ وْتِقْتِل أوادِم؟[٤٩٩]

ـ ليش انْتَه تِعْغِفْ مَني الأوادِم وْمَني مَ الأوادِم؟ . . اسْمَع دَقِلَّكْ. لا تْعبّغْني بِفْلوسك. . هذا حَدْنا! . . قَدَغوح وْبَعَد مَ تْعايِنّي[٥٠٠].

الكف الملعونة انطبعت. . ميثاق الشيطان. . «كان لازم تقْشِطو لِلْميز» وتتخلص من قسَم الشيطان. . ما الفائدة؟! . . مهما فعلت فينابيع الفوة تجري في طوفان آخر. . طوفان عدو اللّه فتقه بعيونهم البلهاء ومضى. . وليس لتطهر العالم من رجسه بل لتضمخه بدنس الآثام. . طوفان اللّه، ماء رقراق يغسل ويطهر، طوفان عدوه دماء تلطخ وتخضب. . ويجذبهم نحوه. . مغناطيس. مسروقون مصعوقون. . ثلاثة حمقى. . والرابع، حزاقيل ويعربد. . ليس منهم ابن الحاخام. . ليس منهم. . ليس مع اللّه، ولا الشيطان. فهدِّم! . . لا يردعك شيء. . إنزع حقك المشروع وغير المشروع. . فمسعود شرطي، ويحميك. . ساو بين الأشياء، فالكل سيان. . عندك. . عند سفاني. . «لا . . لا تِطْغي إسْمو قِدّامي»[٥٠١]

إني أريدك عوناً لي. . لا فرعوناً. . مخيف فرعون. . أفتذكر كيف بفعاله، أرغم موسى أن يجري الأنهار دماء؟! . . كلمات. . لم تكفه كلماته المسنونة، فجاء بمدية:

ـ هذا شِنو عَالْميز؟! . . دم؟! . . دم مِنو هذا؟!.. مسعود أخويا! . . انتَه مَ دَتْشوفَه وِيّايا؟! . . لَكْ شَكو عندك مِنْ دَگ الِعَزا، وْخايِف مْنِ عِيونّا وْدَتِلْطش دَمْ عَالْميز؟! . . لَك أشو كُلْكُم

---

(٤٩٩) أأعطيك النقود لتشتري بها الخناجر وتقتل الناس؟

(٥٠٠) أَوَتَعرف أنت من الناس ومن سواهم؟! اسمع. لا تعيرني بمالك. سأذهب ولن تراني بعد.

(٥٠١) لا تذكر اسمه أمامي.

مَلْجومين؟!.. إنْتوا!.. نايْمين لُو گاعْدين؟!.. طَيْبين لُو مَيْتين؟!.. عِقّال لُو مَجانين؟!.. أشُو واحد دَيِبْچي، وِاللاّخ مَسْطول.. والثّالث دَيِخْچي بالأصابع.. وِخْليف مِتْحَرْوِل.. واخوه، إبْن الزَّفْرَة، ماكو.. مسعود.. وْداعْتَك إني مُو مِقِرْباز.. تاخُذ حَقّك وَازُود.. لازم يِجي.. آني گاعِدْلَه هْنايا لِلصُّبُح يعني خُوب مُو راح روحَه بَلا رَدّة؟!(٥٠٢).

بين معدات الشاي المتسخة والأوجار، تختبئ الأسرار. تصطرع الرعدة والرهبة. فوق الطاولة القذرة الموسومة المبتلة بسوائل حمر وسود، وبثن الشاي(٥٠٣) ورروال الثمل المزمن، ودموع متانة سپير، ورذاذ مخاط النزاح، ورشح عرق يتفتق من جلد حمزة العاقول، من دون حر يرغمه على الجريان، وبلا تعب يفجره من مساماته، مثل عاصفة أمطار تأتي في تموز، يتهامس الخرسان حول الموضع الشاهد على إهدار إخوتنا في طقس فصد دم الإنسان.. «الناس اخوة».. «أتصدق هذا؟!».. «نعم. قابيل وهابيل».. «هابيل مات».. «قابيل وقابيل».. وقال حزاقيل:

ـ هذا أبويا أكْبر سَخْتَچي. هِتْلي ماكو تَكّه.. دَيْلِفّ النّاس بالِحَچي.. واشُو الناس يْصَدْگونَه(٥٠٤).

---

(٥٠٢) ما هذا على الطاولة؟.. أي شيء تملكه فتخشى أن تصيبك عيوننا وتلطخ المائدة بكف الدم (وهي تميمة من الحسد). ملجومين، أي غير قادرين على النطق متحرول، مضطرب وقلق ومرتبك. ماكو، غير موجود. خوب مو.. لا يعقل أنه ذهب ولن يعدو.

(٥٠٣) البثن: التفل، وأوراق الشاي المسلوقة.

(٥٠٤) أبي أكبر محتال. ماكو لا نظير له. يغرر بالناس بكلامه، والناس تصدقه ويا للعجب.

هنالك أصوات، لا شك تلعلع حول الميز. فماذا يُقال ولماذا لا أسمع إلاّ صوت حزاقيل. وأرى كلماته تفلت من فمه مثل ديدان حية ذات رؤوس بشرية، تخرج من أفواهها ألسنة متناهية الطول كأشرعة منشورة، تلقي ظلها على هذا الكون، وتردد أقواله. كلمات ذات حد كالسيف. متضاربة، تخلط بين الحق والبهتان. الصدق فيها يصارع الباطل. الآن فقط أدركت أن الصدق والكذب ندان لا يفترقان. في كل عبارة موجودان.. في كل كلمة متفقان..

ـ خوب مُو راح رُوحَه بَلاَ رَدّة؟!..

وقال بعزم الباطل المنتصر على الحق المتهافت:

ـ بَعَد مَ تْعايِنّي.. بَعَد مَ تْعايِني!..

ـ لَكْ خايِف مِنْ غيونّا؟!. لِيش شَكو عِنْدك؟..

لصوص؟!.. وتوقفتُ لا أفقه شيئاً. كان همي أن أجده، فوجدت لصوصاً، في موضع ليس فيه شيء يسرق. أما قلت لك إن الأشياء تصْدق وهي تكذب في آن؟!.. أو تكذب وهي صادقة متمادية بسذاجتها الخرقاء؟!.. حزاقيل.. إنك كاذب.. حزاقيل، أنت محق!.. أنت تكذب يا حزاقيل.. الحق معك يا حزاقيل!.. كاذب!.. حزاقيل، معك الحق!.. وأنا؟!.. منذا سيقول لي أخطأت؟!.. منذا سيقول لي، أنك صادق؟!.. ترى ماذا يقولون؟! لا شيء مهماً فيما يقولونه.. ثمة شيء لا ثاني له، يصدق دون كذب، وسيبلغ عما قليل، السماء السابعة لتعوم جثث البشرية على سطح البحر الفاقع الأحمر..

ـ إنْتَه؟!.. وْلَك أشْ قيعد قَتْسَوّي هُوني؟!.. وْلَك مَ أنا وْدوريس انْقَطَّع قَلْبنا عْليك.. ساغْلي ساعة قَدَفْتَر.. قَدَدَوّغ.. واللَّه خَلّى بْقلبي أمشي مِنْ عَالدُّكان.. وْلك مَني هذا يِجي أبّالو تِفْتَحو

للدّكان بْهيكذْ وَقْت وْتِكْرِسْ بينو؟!.. لَكْ ليش؟.. سِوّينالِك شين؟!.. غِثّيناك؟!.. زِعِّلْناك؟!..(٥٠٥).

كان يلهث. كأنما دهمه طارق. يرتعد.. إما خوفاً أو غضباً. وأنا، ألقى اللّه في روعي.. أو إبليس. كنت حتى الأمس يخيل لي أن إبليس واحد، لا يوجد غيره.. ثم فجأة تعلمت أشياء كثيرة.. في لحظة، تكسر في رأسي كل «قحوف»(٥٠٦) المعمورة وبدقيقة أدركت ما لم أدركه في عمر..

ـ أشو هذا خليف گام دَيِتْفلسف على غَفْلَه.. عَبالُه مِنْ سِكَت صار فيلسوف.. لَكْ هَمْ جاب أبوكم وْما خاب؟!.. شْلون ثْنين؟ ذهب أبو الْعِيبَة.. واحِد يسْكِت وِاللاّخ مگطوع لسانه.. مسعود أخويا.. تَرى بَعَد مَ داأتْحمل.. زْهَكِتْ.. إلْعَرَگ راح يْطير مِنْ راسي.. كل هالْگاعدين مَ بِيهُم فَدْ واحِد يْگول وين صار ذاك إبْنِ الزَّفْرَة.. شِنو اليوم كُلْهُم مِتْواتين عَلَيّا؟!.. إلاّ يْريدوني أطْلَع مِقِرْباز.. يْريدوني ازْهَكْ؟!.. إسِمْعو.. تَرى إذا مَ تْگولون وينَه.. هَسّه اسْتَبْدي.. وإذا اسْتَبْدي الْعوذ باللّه..(٥٠٧)

---

(٥٠٥) أنت؟ ماذا تفعل هنا. تقطعت قلوبنا أنا ودوريس قلقاً عليك. منذ ساعة وأنا أدور. أبحث. وألقى اللّه في روعي أن أمر بالدكان. منذا يخطر له أنك ستفتح الدكان بهذا الوقت المتأخر وتنسى نفسك فيه؟ لماذا؟ أفعلنا لك ما يسيئك؟

(٥٠٦) القحف: عظم الجمجمة، وقطعة الفخار والمعنى أنه مجرب متمرس.

(٥٠٧) أصبح خليف يتفلسف فجأة. يظن أنه لو صمت، سيصبح فيلسوفاً. خاب أبوكم إذ أنجبكم. كأنكما من الذهب الطاهر. أحدكما يثرثر والآخر لا لسان له. ضقت ذرعاً وستطير الخمرة من رأسي. ليس في الجالسين من يخبرني أين ابن المومس ذاك. فهل تآمر الجميع عليّ اليوم؟.. يريدونني أن أصبح آكل حق الناس بالقوة.. إذا لم تقولوا أين هو فسأبدأ وإذا بدأت فالعياذ باللّه.

أياديهم فوق الطاولة تعربد.. خرسان أم إني أطرش؟!.. يحاورهم من مخبئه أخي إبليس.. يجرون وراءه عبر الكف المبسوطة. «يتناهجون.. وأتناهج»[508].. كان هنا يجلس بالأمس ويتناهج.. وتناهجنا.. حين رآني هب فزعاً.. «أنا لست ملك الموت.. لست بعزرائيل».. وصاح: «ما الذي جاء بك؟!» فصحت: «أنا أم أنت؟!». قال الخياط:

ـ كان قَيْغدي وْيِتْلَفْت، عَبالَك وِيحِد امْسَوّي مَكْسورَة.. كَنّي قِيتِلْ دَمّ..

ـ ظَل بَالْنا غْليك.. دوريس جَنِّت.

وأنا؟!.. لم يبقَ برأسي صواب لأضيعه.. لكني كحمار الحجي، كحمار بابا ليوي، كحمار متانة سپير، جئت. بالغفلة جئت.. وكالسائر في نومه وصلت.. أم ألهمني ألف مارد وساق قدمي إلى حتف الدنيا السادرة في نوم عذب أحمق، تحت شمس تبزغ حمراء، في منتصف الليل.

ـ أنذال!.. أنذال!..

ـ ليش أخويَّ؟!.. سِوّينالَك شِين دوني؟![509]

ـ آخ!.. كان لازم اخِلِصو.. أشْلون مَ خِلَّصتونو؟!.. وِيحد ناقِص عَالاقّل[510].

ـ مَني هذا؟!.. أشْ قَتِّحْكي؟!.. قَدَغيد أفْتَهِم على مَني قَتَّحْكي؟![511].

---

(٥٠٨) أي يلهث.

(٥٠٩) آلسأنا إليك؟

(٥١٠) كان يجب أن أقضي عليه. كيف لم أفعل؟!

(٥١١) من هو وعمن تتحدث؟!

كان مجنوناً.. مرتعشاً.. مرعوباً.. ويبتلعه الغضب الجبار:

ـ غوح إنْتَه وِخْضَنا لِلْگَحْبة مالَك وْنام، وْمَ يْخِصّك مِنّي[٥١٢].

حتى وأنت لا تملك عقلاً في رأسك، تغشاك الظلمة ويدور بك العالم إذ يضعونك، وبخبث ماكر وقذر، بمجابهة كرامتك المسحوقة بالأقدام.. أقدام الحمالين والوزراء. بالسر غضبت، وبدون علمه لعنته.. بالصمت سببته، وبدون لسان سألته «تْظِلّ تْقِغّْعْني؟!.. أشّ قَتْغيد.. أغوح اَذْبَحا وْاذْبح نفسي؟!»[٥١٣]. لكني بالصوت قلت له: «لا ضير».. والباقي أكملته في قلبي.. كلانا يحبه. حقاً.. اللعنة على قلبينا، وإلا لكنت الآن هناك بجانبها.. فما لي أتسكع الآن في هذا الوقت من الليل، لأرى سحنتك الأبليسية هذه؟!.. ولأشهد الأدهى من كل الأشياء:

ـ أخ بَسْ لُو أتأكد..

ـ أشْ تِتْأكد؟!..

كان يخاطب نفسه. مجنون!.. يخاطب الحمقى أنفسهم. أخاطب نفسي في السر. وحزاقيل يخاطبني ويخاطب مسعوداً ويخاطب الحمقى.. لا يسمع إلاّ صوت حزاقيل..

ـ خَلّي يجي، وِنْفِضْها عاد. تَرى إزْهَكِتْ. لا أخويا مسعود.. يْبَيِّن هذي الْحَسْبَة مَ راح تِخْلَص. يَعْني قابِل اسْجِن نفسي هْنايا واعَطْلَك وِيّايا، على مُود هَالْجِراب إبِنْ الْجِراب؟!.. آني مُو مِقِرْباز. هَسّه اخُذْلَك مِن أخوه.. وْهُوّه وِيّاه يِنْجاز. مْنِ غيونَه اجِزْها وْداعْتَك. يگدَر يْگول لا؟!.. هَسّه تْشوف.. وْلُك خْليف. جِيب

---

(٥١٢) أمضِ أنت عانق المومس زوجتك ولا يهمك أمري.

(٥١٣) أتظل تعيرني، أفأقتل نفسي وأقتلها؟

چمْ دينار وْخلّينا نِخْلَص مِنْ بِچمَك(٥١٤).

ـ اِشْ قَتْقول أخويي؟!.. يَعْني أشْكون «مأجور»؟!..

ـ يعني مْأجَّر. بِعْطونو كم دِينار وِيْبِعْثونو يِقتِل..

ـ جيب چم دينار، خَلّينا نِخْلص مِنْ بچمَك..

عجباً!.. أنا لست بقاتل.. لن أستأجر هذا الوغد، ليقتلني!..

ـ إرهابيون.. قتلة.. مأجورون!..

ـ يعني اشْكون؟!..

ـ لازِم يْموتون.. هذا العالم لازم يْموت!..

كان يحادث نفسه.. الشيطان المعتوه.. يخاطبني الآن الشيطان الثمل العربيد.. لكني لست منهم.. إني رفضت «رفض العالم».. لن استأجر أحداً كي يقتلني.. لن أعطيه دنانير.. لن أغمس يدي في الدم..

الدم.. خمرة إبليس الحاذقة ذات النشوة المجنونة. كان يعاقرها.. في منتصف الليل بدكاني. ثملاً بالذعر. بالثورة. بالرغبة الجامحة بالقتل. لم أفهم. أضعتُ أمامه كل مقاييس حياتي المكتفية بالماء وبالزاد. إنه يدخلني معه طريقاً لم أعهده. في الليل يسحبني.. مثله يجعلني ألهث. حزاقيل يطلب مني دنانير. لماذا؟!.. سفاني يجعل مني جريمة.. لماذا؟!.. «رأيته.. المأجور.. يتربص في العتمة.. يبحث عن روح قابلة للإزهاق».. «أرواحنا قابلة للإزهاق».. «أشو مَ حَدْ تْعَرَضّ بِيّي؟!.. اخويي

(٥١٤) ليأتِ وينه الأمر. فقد برمت. يبدو أن هذا الأمر لن ينتهي. أفيعقل أن أحبس ذاتي هنا وأؤخرك معي بسبب هذا التافه؟!.. سأحصل لك من أخيه، ويفتصلان. أفيستطيع أن يرفض؟ سترى. بچمك: طلعتك..

الْمَعِنْدو شِغِل ويَا أحَذْ، مَ حَذْ عِنْدو شِغِل ويَانو»[٥١٥].

- غوح إنْتَه إحْضَنا لِلْگحْبة مالك وْنام و..

- جيب چِمْ دينار وْلَكْ.. جيب چِمْ دينار!..

أخي وحزاقيل.. «بعض الأرواح قابلة للإزهاق هدراً!»..

حزاقيل، لم أسئ إليه، وأخي.. ربيت نغلاً، كي يسعى إلى حتفي..

«كل الأرواح قابلة للإزهاق»!..

حاد عن دربه كي يلحق به.. لم تكفه الكلمات، فجاء بالخنجر. لم أفهم!..

قال.. «ياسين باشا السفاح.. لماذا يقتلنا ياسين باشا في دمس الليل؟!»..

«حقاً.. ماذا فعلنا لياسين باشا، فيقتلنا في هدأة الليل؟!».. لم أفهم!.

«تال بَقَى قِلّو الشَّط مَني خفَغو، والنَّغِل مَني بْزَغو؟!»[٥١٦]..

- إني أقسم على أن أمه كانت طاهرة المحتد.. لكني لم أفهم.. «أخويي الدم مَ يغْسِلو الدم».. «ماذا يغسله إذن؟».. «الماء وحده يغسل الدم».

عجباً!.. لماذا إذن، فنجانا شاي أراقهما حزاقيل على الميز، والكف الدموية ما انغسلت؟!.. الشاي ماء.. والدم فُوة.. مصبغة، هذا العالم.. مصبغة ليس فيها إلاّ الفوة والنيل. والفوّة للأجساد،

---

(٥١٥) وأنا، لماذا لم يعترضني أحد. من لا شأن له بأحد، لا شأن لأحد به.

(٥١٦) تعال وأفهمه من حفر النهر ومن أنجب النغل (أي رد على أسئلته التي لا رد لها).

والنيل لأثواب المفجوعين.. جذور الفوة خناجر.. حبات عرقي، قلادة حمراء بيديه.. حبات دمي خنجر بيد الصباغ.. لماذا يا سفاني؟!.. هل كان في آبائك وأجدادك حامل خنجر؟!.. «ضاع من لم يأت من رحم أمه وهو يمسك بالخنجر».. تلاشت أماني كلها في لحظة.. ورهبته.. كل شيء فيها يوحي بالقتل.. أفكاره.. ولسانه.. ومديته المسمومة، وفعاله.. حتى خوفه ولهاثه كانا يشيان بجريمة قتل:

ـ ليش أخويي.. ليش؟!

ـ كان قَيَمْشي على نِيّتو.. لا بْبالو وَلاَ بْخِيالو.. لا صُوجِ وَلاَ ذَنْب.. أشو مَ قَتْسايِل ليش جا غْلينو وْقَيْقْتِلو؟[517].

ـ وِانْتَه هَيّي مالَك؟!.. اسْتحِزيت مِنْ عِندَك؟![518].

ـ لكان أخِلّينو يِقْتِلو هيكِذْ عَالْبْلاش؟!

ـ لكان إنْتَه تِقْتل؟!.. أشْلون تاخِذ إيدَك؟!.. ليش اِكو بِينا قِتّال ذموم؟!.. وْمَ تِحْسِب تالِيها؟!.. لَكْ غْغَفْت اِشْ سِوّيت؟![519].

ـ طبعاً غْغَفْتو.. أوضاع مَ مِغْقولة وْلازم تِتْغَير..

ـ بِالْقَتِل تِتْغَيّر؟!.. بِالدّم؟!.. وْلَك مَ طْلَعْت مِنْ حَقّي.. اِقْتِلَك السّعَه أنا هَمْ وَاخَلّصْ؟!.. مصيدة تسحب الأقدام. الصبغة السحرية المستخلصة من روح الدنيا. بنفوري منها أسرتني. بفزعي

---

(٥١٧) يقول، إن الرجل كان ماضياً في طريقه، لا يعلم ماذا يتربص به، ولا يتخيله، لا ذنب ولا جريرة له، فلماذا لا تسأل لماذا قصده (الماجور) ليقتله؟!

(٥١٨) وما شأنك أنت، تحمست من تلقائك.

(٥١٩) وأنت، أتقتل؟!.. كيف تطاوعك يدك؟! وهل ثمة فينا من يقتل؟! أَوَلا تفكر بالنتيجة، ويحك، أعلمت بما فعلت؟

العارم وجنوني، أغوتني.. صرت جريمة.. لم أدر أينا كان القاتل.. هابيل مات.. والدنيا كلها قابيل!..

ـ اقْتِلْني.. أشْ قَتّصْطَنْدِغْ؟![٥٢٠].

ـ أنا مَ قِتّال مِثلك..

لكن قابيل قتل قابيل. وانطبعت الكف على الميز ثابتة لا تبهت..

ـ بَعَد مَ تْعايني.. مَ تْعايني.

الشادروان على الطاولة الملعونة. الوردة الحمراء. واشية بجريمة الخلق. تسحب معها أقدام الحمقى. تكشفها عربدة سكيرة لماذا يطلب مني «خاوَة»؟![٥٢١].

ـ لك مو زَهَّكِتْني عاد.. داأريد أنْطي الرِجّال حَقّه وأروح أشْرَبْ.. دَتِّنْطيني لو أگول؟![٥٢٢].. وهذا صوت النزاح كذلك.. يأتيني كالسهم المنبعث من العالم الآخر:

ـ أنا هَمْ زَهَكْتو.. وينو سَفاني بَقى؟!

والحجي:

ـ خْليف. إشْ بِيك اليوم!.. أخوك وِينَه؟!.. مَ تِحْچي.. صار بيه شِي؟!

ومتانة سپير الأبله:

ـ أغيدو السّفاني.. أغيدو السّفاني!..

قد قامت القيامة.. قامت.. يابن الطاهرة المومس!.

---

(٥٢٠) ماذا تنتظر؟

(٥٢١) الخاوة هي الرشوة.

(٥٢٢) ويحك. قد أنفدت صبري. أريد إعطاء الرجل حقه لأمضي وأشرب.. فهل ستعطيني أم أبوح؟

٢٠

انفردوا بي. .

وكان يصغر كي يدخل في سم إبرة مشكوكة في ذاته وينحشر معها في ثقب ضائع في حائط الدكان. لو يدري فقط من حفر النهر، ومن أودع في رحم الدنيا بذرة الشيطان، ومن وضع بعروق الإنسان هذا السائل الحار اللزج الأحمر!. . ولماذا فيه تكمن الأرواح؟!. . ولماذا الأرواح قابلة للإزهاق؟!. . ولماذا تسيل بمجرد طعنة خنجر أو إطلاق عيار ناري أو حتى من وخزة دبوس؟!. . ولماذا الإنسان يتعطش لدمائه؟!. . يهرقها أنهاراً جارية. . فوة؟!. . ولماذا الأخوة تسفك دماء الأخوة؟!. . ولماذا ما زال يحدث هذا بمجرد أن وجد على الأرض شقيقان؟!. .

أين سفاني؟!. . أين سفاني؟!. .

هابيل قد مات، فنحن جميعاً قابيل. . واحتضرت أفكاره وهي معتصرة في قبضة الفكرة اللامدروكة هذه. سفاني وحده يعرف، أما حزاقيل فلا. سفاني أباح سفك دمي. فها أنذا ملقى في قفر تتناهش فيه جسدي غربان ونسور. فلماذا يتعالى الصوت ويسألني: «أين أخوك؟!». . أفيعني هذا إني أنا المقتول، القاتل، وسفاني القاتل

أيضاً والمقتول؟!.. أكلانا حقاً هابيل وقابيل معاً؟!..

وارتفعت الأصوات تسأله مرة أخرى:

- وينو سَفاني؟!.. وينه سَفاني؟!إنها لحظة الصدق تتهادى وتأتيه.. ماذا سيقول؟!.. هذا صدق العالم وليس بصدقه هو. أبداً لم يبغ أن يدفع في أحضان شقيقه بحقيقة بشعة لا يعرف شيئاً عنها. حقيقة بشعة كهذا الدم ومعقدة كالإنسان ومبهمة كالأحداث الواقعة اللامفهومة. كان قد اختار حياة سهلة، وسعادته شيّدها أبراجاً في ماء النهر. حتى دوريس كانت إحدى حصونه الرملية. وحتى بعد أن هدم سفاني حصونه، عكف هو فوق الأشلاء يجمعها ويرممها مرة أخرى. دوريس. صحن مكسور أعيد لحمه. كان «خياط فرفوري»[٥٢٣] ماهراً. من أجل بقاء حياته سهلة وبعيدة عن التعقيدات. رغم بقاء الشرخ على طول الصحن الملصوق. كان يبني، وسفاني يهدم وهو يعود ويرمم الأنقاض. «تحمّل»!.. كان يقول. ومن أجل أن يمضي العمر بطريق سوي وغير متعرج، ولا يفضي لشعاب مشتبكة أو لمفازات، شيّد هذا البرج الآخر. «مَ يْخالف مِكْسوغَة.. تِنْلَحِم وْمَ تّبَيِّنْ. تِطْلع كنيّ جْديدي»[٥٢٤].. حصن آخر شامخ أقوى من كل حصونه المقامة على أمواج النهر. حتى جاء الأمس. وكان يوم أحد ملعوناً.. يوم أحد الشيطان.. أحد هدم الأبراج الرملية برمتها. أحد القتل والتدمير وطوفان الفوّة.. وكان أخرس. خيطاً منظوماً في خرم إبرة ذاته.. ملتصقاً في الحائط مثل بقعة فاقعة مبتلعة غائرة السُمك. كفاً دموية

---

(٥٢٣) خياط الفرفوري، هو مصلح أواني الصيني المكسورة بالصمغ والمسامير.

(٥٢٤) لا يهم أنها مكسورة.. فإذا لُحمت فلن يبدو كسرها وتلوح وكأنها جديدة.

غائرة في سمك طاولة مهزوزة قذرة، يتحلقها حمقى ثلاثة وسكير مع رجل سلطة ساهم. القوة العليا هناك.. عمياء تتلمسه في الظلمة كي تصطاده وتدينه. أعمى يتستر بعماه عن أبصار ثاقبة تكشفه في الصمت وتعريه في صخب يعلو فيغدو كصرير تحطم الكون وتهاويه على دكان الشاي. القيامة قامت.. يابن الطاهرة الفاجرة المنجبة للضدين.. تماديت حتى قضيت علي. قلبت الدنيا ومضيت. فتعال وانظر نتيجة أفعالك.. هوذا بوق اللعنة ينفخ في جسد الثمل العربيد. الجسد المخمور المتسيب لكي يحظى بـ «حقه».. لا استخفاف بالريح فهي تهب وتزوبع. تهتز الطاولة المحصورة من كل جوانبها. السوءة تظهر. أنظار حزاقيل اللامنضبطة تعدي الموجودات الثابتة وتحررها. الكف تتسيب ثم تنمو. خيوط دخان، أفكاره وتتشكل في حرية. أضغاث كوابيس، الدنيا وتسقط فوق حقائق وأوهام الخلق. اللّٰه يدخل في ألسِنة الحمقى ويسأله «وينو سفاني.. وينه سفاني.. أين سفاني؟!».. الرب ينسل إلى الخمرة المنسابة في رأس حزاقيل.. اللّٰه من يطلب حقه.. ويتهمه:

ـ لَك مَ تْجيب عاد.. مَ يْكفّي كْتَلِت أخوك، تْريد فوگاها تْصير مِقِرْباز وْتاكُل حَقّي؟! كان في عاموراء. في غفلة من أمره سرقوه وألقوه بين منازلها الملعونة. كانت خاوية من أهلها مهجورة. وهو وحيد ضائع بين أزقتها يستقبل اللعنة. النار والكبريت والدم.

ـ واللّٰه مَ قْتِلْتونو.. واللّٰه مَ قْتِلْتونو..

ـ أشو خايِف لَعَاد؟!.. يا جَماعة.. شوفو وَجْهَه.. هُوّه هذا وجه واحد مَ مْسَوّي صوج؟!.. دَتْشوفون شْلون دَيِّرْعَد؟!.. لَك إلْمابِيه شوكة مَ يِتْشَوَّك.. دَخلّي يْگول لَعَد وينَه؟!.. إذا صدُگ اخوه

موجود خَلّي يْدِلْنا عليه.. أشو ملجوم؟!.. مَ تِحْچي.. لو عبالك أكو شَي المايِنْعُرف؟![525].

قتلني.. أو إني قتلته.. أو أنه قتل المأجور.. أو أن المأجور قتله.. أو قتل الكل الكل.. أنّى له أن يعرف؟!

ـ لك تِغْغفو؟ تِسْتِغْغِفو..؟

ـ كان وِچو مُلچگ.. لكن ما المهم وِچو[526].

ـ عايَنو الْوِچك؟[527]

ـ ما اغْغِف.

وتلثم ثم ابتلعته الأرض. وتلثم خليف بغلالة من رهبة وتمنى أن تبتلعه الأرض. وأراد النطق فتلعثم. كان لسانه مقطوعاً وكان وحده في عاموراء الخاطية الملعونة يتلقى قصاص آثامها وجرائمها ويحاسَب على كل دماء البشرية المسفوحة. والأحجار الحمر والكبريت الناري ينهال عليه ويدمره تدميراً.

ـ ها لَكْ؟!.. اشْ گلْتِلْكُم؟!.. مَ گلْتِلْكُم كِتَل أخوه؟!.. دشوفوه شْلون خانِس عَبالك جْريدي بالْمَصيدة.. وْمَ كَفّاه ذِبَحه، چمَاله يبْصم چف دم عَالْميز. مِنْ دم أخوه.. إي لَكْ قابل ذابِح دِيچ لو خروف؟ إي لك مَ تِحْچون.. أشو كُلْكُم ساكْتين.. قابل كلكم تْعِرفون وْساكْتين؟ ليش لا؟.. مُو بِعيد كُلكم مِتْواتين وياه..[527أ].

---

(٥٢٥) الصوج: الذنب، من ليس في لحمه شوكة لا يتشوك، أي من لم يرتكب ذنباً لا يشعر بالذنب.. تكلم أم أنك تظن بأن ثمة خافية تخفى.

(٥٢٦) ملجگ، ملثم.

(٥٢٧) أرأى وجهك؟

(٥٢٧أ) وإذن؟ ألم أقل لكم. قتل أخاه. أترون كيف يبدو كجرذ بالمصيدة ولم يكفه

كانوا جميعاً غرقى في البحر الدموي. ملتصقين في يوم أحد ظالم مشهود. خالد ملعون. مدقوق كوتد في حنجرة الدنيا. يوم أحد يبتلع الدهر والعقل.. أحد الأسطورة.. أحد الدم.. أحد العمر المسروق الضائع.. أحد قرون شياطين حمر تجري على أفخاذ بضة.. أفخاذ كشف العورة وهمسات آثورية شريرة، لم يقدر على حلّ ألغازها أحد غير الدم. وصاح الضفدع:

ـ هذا أشْ قَيْقول؟.. مَ تْجاوِب خْليف.. سَفاني وينو؟

أحد الديك الأسود المذبوح، والدم يبعث الموتى، والرجل الأحمر الوجه الأعور العين، نبي اللّه.. ثم.. هل حقاً ينطق الموتى؟!..

ـ مَ تِحْچي خْليف.. وين صار.. ترى آني مْنِ الْبارْحَة دا أحْچي بالأصابيع.

أحد الكشف الصاعق.. الجمرة الحسناء النطاطة.. الخادعة الوهمية.. ومخاضات الدم، تجنح فيها حياته النكتة.. حياته الكذبة السمجة مثل بقية أيام عمره.. يطفو موته في فيضان دماء خَثِرة لملايين خراف منحورة.. في يوم الأحد المُغرب، الصادق وحده بين الأيام.

ـ أنا ابْدالو السّفاني.. أنا إبّخْت اللّه وببّخْتَك، جيبو، أنا مَيّت وْمَ حَد يِحْييني غِيغو.. تَغَى إذا صِدِق غاح، مَ لني كل تقومه بَعَد[(٥٢٨)].

أنه ذبحه فبصم فوق ذلك الكف.. أفقتلت خروفاً أم ديكاً. تكلموا. لعلكم تعرفون وتسكتون. لعلكم جميعاً متآمرون معه.

(٥٢٨) أنا فداه سفاني. أتوسل إليك (أي أتشفع ببختك) أن تأتي به. أنا ميت وليس من يحييني سواه. فلو ذهب حقاً (مات) فلن تقوم لي قيامة أبداً.

يوم أحد العنف والإرهاب. أحد جريمة الإنسان الأزلية.. أحد قابيل وقابيل.. قاتل وقتيل. جلاد وضحية.. «لَكْ ليش هِيكِذ أخويي؟!» لماذا يابن الطاهرة المنجبة.. قابيل وقابيل.. يكفي. فيوم الأحد هذا، مفتضح مهتوك.. يعلن عن نفسه وينادي من فوق الأكوان.. يبيع الدم.. وصاح مرتعد الصوت المتحطم.

ـ قْتِلْتونو، مَ قْتِلتونو.. ما اعغِف.. بَعَد ماكو سَفاني(٥٢٩).

انفجرت القنبلة الأعتى. لاك حزاقيل صوته المطاطي وسحبه:

ـ ها أخويا مسعود، اشْ گلِتْلَك؟!.. شِفِت شْلون إبِن كلب آني؟!.. إجاك كَلامي؟!.. مَ گتْلَك آني مو مِقِرْباز. دُخُذ مِنّه الدنانير وْخل نْولّي مناه(٥٣٠).

بيد أن ثلاثة كانوا هناك. مشنوقين على أعواد نابتة في يوم أحد لا يتزحزح. مرتمين دون حراك على خط وهمي يرسم حدود هذا العالم، والعالم الثاني المجهول. ليسوا أحياء، ليسوا موتى. ليسوا نياماً ليسوا يقظين. ليسوا عقلاء وليسوا مجانين. وكانوا ينتظرونه كي يدفع بهم لهنا أو يقذفهم لهناك. لكنه لم يأتِ..

ونق الضفدع في هلع وفزع:

ـ وين تْوَلّون؟!.. يعني شِنو ماكو سفاني بَعَد؟!(٥٣١).. لعاد إخْنا وين نْروح؟!..

وولول متانة سپير:

---

(٥٢٩) لا أدري إن كنت قتلته أم لا. المهم لا يوجد سفاني بعد.

(٥٣٠) أرأيت، ماذا قلت لك؟ أرأيت أي ابن كلب (يعني ذكي وعالم بخفايا الأمور) أنا....

(٥٣١) إلى أين تذهبون، وما معنى «لا يوجد سفاني بعد؟» إذ إلى أين نذهب نحن (أي ماذا نفعل بدونه).

ـ أغيدو الْسفاني. . أغيدو السْفاني! . .

وصاح الحجي حمزة العاقول:

ـ مسعود. . انته لِويش شرطي؟! . . شْلون سفاني يْضيع وتسْكُت؟! . . يللّه شوف شُغلك ويّا خْليف هذا كتّال الدموم(٥٣٢).

وكانت الساعة بالضبط، الرابعة إلاّ ثلاث دقائق. . ولكن. .

لا أهمية للزمن بعد الآن! . .

(٥٣٢) ما معنى كونك شرطياً إن كان سفاني يضيع وأنت ساكت.

٢١

واتهموا خليف الچايچي بتهمة غريبة. اتهموه بمسؤوليته عن ضياع العالم. وأرادوا منه سفاني.

وأصر خليف على أنه لا يعرف شيئاً عنه. وأخفى عن الشرطة لقاءه به في الدكان، في منتصف الليلة المشؤومة تلك. واستغرب إذ شاهد دوريس، رغم تعلقها بأخيه، قد وقفت في صفه بقوة لا تتزعزع. وقالت للشرطة:

ـ أخوه ومِرَبيه عِندَه، ويموت عَليه. أخوه شْلون يكتله؟!..

وأضافت، أنه ليلة اختفاء سفاني، خرج زوجها يبحث عنه، لكنه عاد بالخيبة بعد أن لم يعثر عليه. وسألوها:

ـ وْشمِدْريچ انتي؟!.. مُو قابِل...(٥٣٣).

فقالت مقاطعة في إصرار:

ـ ماكو قابل.. هذا زوجي واعُرْفَه. آدمي ذَهَب. ورِجِل دِجاجَه مَ يْحِلّ.. وِيحِبّه مِثِلْ نفسه.. وْلَمّن سَفاني مَ رِجَع للبيت، اتْخَبّلْ عليه، وَطِلع يَدوِّر عليه راسه گبل رِجْليه.. فَشْلون يِئْذيه؟!

وجاء عابد الخياط وأدلى بشهادة كادت تودي بخليف. إذ قال

---

(٥٣٣) وما أدراك أنت، أفلا يعقل...

إنه في منتصف تلك الليلة، وهو يغلق دكانه بمحاذاة دكان الشاي، وإذا بسفاني يعدو نحو چايخانة أخيه ويتلفت، وكان كأنه هارب من خطر داهم. . أو يبدو كمن كان له ضلع بحدث جلل. وأضاف أن خليف في اليوم التالي «چانْ خايِف وعصبي وْمو على بَغْضه»، فقال خليف بعناد، بعد أن تشجع بشهادة زوجته:

ـ صَحيح. خَلّو نَفِسْكم ابْمُكاني. واحِد أخوه تاه وْمَدَيّعْرُف وينَه. واشْ راح يْواجْهَه. . مَ يْصير عَصَبي؟!. .

ـ زين وْمِنْ سِألوك الجّماعة عَليه، ليش ما حِچيت الصّدْگ. . اِشو نْثِوَلِت وْمَ عْرَفِت اتْجاوِب. . هذي شِتْگول عليها؟![٥٣٤]

فخفق قلبه، لكنه قال برباطة جأش:

ـ هذولَه، فَدْ جماعه لَغْوَچيّه. چانو مَلْزوگين بْأخويا لَزْگَةِ الجّير. عَبالَك ساحِرِلْهم. مَ رِدِت أدخل وِيّاهم بْإيراد وْمَصْرَف. چِنِتْ زَهْكان وْعصبي عَليه[٥٣٥].

وأطل ثلاثتهم من حضيضهم ببخار الدم، وصرخوا محتجين:

ـ لا. . يِكذب. . چفّ الدَّم على مِيز الدكان يِشْهد. .

تدلى حبل المشنقة مرة أخرى وتأرجح حذو عينيه. قال لنفسه محتضراً كذبابة مضغوطة في قبضة عدوانية همجية، قبضة الرعب «بْكِلّتَه اللّه ساعدني وِطْلَعْتو مِنْ چِرْخَه، بلاكِت هايي أشْلون اطلع

(٥٣٤) حسناً، فلماذا لم تقل الحقيقة إذ سألوك عنه، لماذا أرتبكت. . ما رأيك في هذا؟.

(٥٣٥) هؤلاء أناس ثرثارون وكانوا ملتصقين بسفاني كالقير وكأنه سحرهم ولم أشأ أن أدخل معهم بحوار (إيراد ومصرف) أي أخذ وعطاء. كنت برماً وعصبياً بسببه.

مِنّا؟!»[٥٣٦] فحتى لو رجع بكلامه وأفضى بالقصة كما وقعت، فستثبت التهمة عليه، وسيقولون له: «أنت القاتل إذن. . فلماذا أخفيت هذا كله، وهل يعقل أن تتستر على أخيك، وتعرض نفسك أنت للموت»؟!

عاينت الشرطة الميز، لكنها لم تعثر على الكف الدموية. . اختفت الكف بظروف غامضة. . وتلاشت في قدرة قادر. وتنفس خليف الصعداء، وقال: «اللّه وِيّا الحق. . يِعْغِفْني مِسْتوغ وما آآدي أحّد وْغَحَمْ على حالي». بيد أن أفكاره ارتبكت وعجزت عن إعطاء الظاهرة اللامفهومة، تفسيراً ما. وبهرته فكرة مستبعدة ألقته عند سفاني. . أفيعقل أن سفاني قريب لكنه يتخفى عن الأنظار؟!. . أيكون هو من جاء خلسة إلى دكان الشاي، ومحا كفه الدموية ليكفر عن آثامه ولكي ينقذه من الإعدام في آخر لحظة؟!. .

ونق صوت الضفدع معترضاً بعذاب:

ـ مَعْقولة ماكو چِفْ دم؟!. . ليش أصلاً دَتْروح مِنْ بالي؟!. . مِثْل گرون حَمْرَة وْدَتِّسْعي على رْجول إبْنيّة حِلْوة، وِتْخَبِّلْني[٥٣٧].

وصرخ الحجي وهو يلوح بأصابعه المعوجة:

ـ آني ما أكذب. . دَماغي هَمْ طار مِن راسي. . دِيج أسود. . بَسْ ساح دَمّه گام الميّت يِحْچي ويايا. . مَعْقولة ماكو دم؟. . شْلون ماكو دم؟!

وولول متانة سبير، كغراب البين:

---

(٥٣٦) أعانني اللّه بكل الأمور فتغلبت عليها، لكن هذه الداهية كيف أخرج منها؟

(٥٣٧) أيعقل أن ليس ثمة كف دم؟ وهل بوسعي أن أنساها أصلاً؟ إنها كقرون حمر وتدب على سيقان صبية حلوة وتفقدني رشدي.

ـ أبْدالْكِم. . أشْلون أنساها. . شُطوط دم، وَانا قَدَغَرِّف بيها. . وْمَ قَدَطْلَع مِنّا. حِتّى التَّخْتَة الْكائِتِ بْغاسي هَمْ طاغِتْ أنا ميت. . مِن ساعتا، تْأكَذْتو أنا ميت. .

وثبت للشرطة، أنها بإزاء ثلاثة معتوهين، ولم تفلح في إثبات تجريم خليف بقتل أخيه، فأخلي سبيله، إلاّ أن سفاني ظل مفقوداً ودارت حول اختفائه إشاعات شتى وأساطير. قيل إنه فرّ إلى بلد ما، ليواصل فيه بناء عالمه اللاموجود، على أنقاض العالم الموجود. وقِيل، بل اغتيل ودفنت جثته في موضع، هو سر مكنون في قلب القاتل. وقيل كذلك، إن سفاني موجود رغم إخفائه ذاته عن أعين المخلوقات، وأنه ماض في رفضه هذا العالم، ولا يتوقف عن غسل الدم بالدم!. .

قالوا أشياء كثيرة، وصدقوا ما قالوه، ثم عادوا ونقضوه ليقولوا أشياء أخرى، إلاّ أن سفاني لم يره أحد منذئذ، رؤية العين. .

ويوماً، في الصبح الباكر، في سوق الصاغة بخان جْغان، عثر الناس على جثة «عبّودي منشي» الجوهرچي، ملقاة بجوار دكانه، غارقة في بركة من الدم. .

ولم تمضِ أيام حتى وجدوا «ناحوم الشماس»، خادم «صْلاة الِكْبيغي»(٥٣٨) متكئاً على باب كنيسه من غير حياة، وفي أعلى ظهره تلمع قبضة خنجر. .

حاول الناس الربط بين مصرع الصائغ، وخادم الكنيس، وعجزوا. وكان خليف الچايچي من بين من حاول ذلك. . بيد أن أفكاره ارتبكت وعجزت عن إعطاء الظاهرة اللامفهومة تفسيراً ما إلاّ

(٥٣٨) أي، الكنيس الكبير، ببغداد القديمة، يقال إنه قديم قدم الجالوت.

أن فكرة مستبعدة غمرته بالروعة والذعر وألقته عند سفاني.. أفيعقل أن سفاني قريب، وأنه من يفعل هذا؟!.. وقال لنفسه بهلع الغرقى في طوفان أحمر.. دموي:

ـ هُوّي.. ماكو غِيغو.. وِيجِد زَنْگين، والْلاخ إمْدَيّن.. وْسفاني كان يكره أهل الفْلوس والِمْدينين(٥٣٩).

أخفى ظنونه الفظيعة هذه حتى عن دوريس. ولجأ إلى الچايخانة، يعمل فيها بهمة، يقصدها قبل غياب النجمة، ويتركها بعد منتصف الليل. وكان ينشد في هذا، السلوان، ويدفن في الشاي الأحمر لوعته ومخاوفه من طغيان الدم القاني.. ولم تتضح الأشياء. وكان كل يوم يمضي، يضيف غلافاً آخر على أغلفة اللغز المستحكم.. وفي خاطر خليف الچايچي يتردد الكابوس والحلم الوردي، وتبهت في أفكاره الطيبة المسكينة أعقاب الكابوس، ليبقى حنين حائر ملتاع يخفق في قلب خليف المفعم بالحب. ومكث، مثل بابا ليوي النزاح، والحجي حمزة العاقول، ومتانة سپير، يتساءل سراً في باحة صمته التائه «أين سفاني؟!» وفي العتمة، في جنبات دكانه المهجور، بين الأوجار، وخصاص المعدن نصف المفتوح، يضحك منه سؤاله، ثم يتلاشى..

وكان شتاء ظالم.. ليل عابس وحزين خارج الدكان.. الأمطار تهطل «زعجاً»(٥٤٠) وبضراوة من أفواه سماوات مفتوحة لا تنطق إلا بالرعد. تصل الأمطار إلى الأرض قطرات صافية بيضاء، ثم حين

---

(٥٣٩) هو.. لا يوجد غيره.. أحدهما غني والآخر متدين وكان سفاني يكره هؤلاء وأولئك...

(٥٤٠) المطر المزعج: الهتان الذي يهطل بغزارة وبقوة.

تلامسها تتكدر. وفي الدكان يقبع لوحده صاحب الدكان، ويفرغ شايه في جوفه بشبه غيبوبة. الدكان مهجور. غاب رواده عنه مذ غاب عنه سفاني. كانوا من أجله يأتون. يجيئون من أجله. وتساءل مع خفقة قلب تتضمن شوقاً عرماً «ترى أين هو الآن» ثم انفغرت عيناه وتسمرتا في باب الدكان..

سفاني!.. لا.. ليس سفاني!.. بل سفاني بعينه وبرأسه.. لكن كيف عرفت؟!.. الوجه ملثم، والمعطف الرث مبتل.. سفاني قال «بَعَد مَ تْعايني».. ولثم وجهه، ثم «هَذيك هِيّي غوحتو»(٥٤١).. قال سفاني: «كان وِچو مَلَچگ» «المأجور.. كان ملثم الوجه».. أيهما هذا؟!.. سفاني؟!.. أم المأجور؟!..

سفاني!.. المأجور!.. دفقة مشتاقة مرتابة.. يتقدم ببطء نحوه.. هذا طوله.. لكنه منتفخ بدثاره.. لا.. هو ليس سفاني.. فسفاني أنحف.. وعيون هذا مخيفة.. هل يمكن أن ينسى المرء حجم أخيه؟!.. عينيه؟!.. سفاني!.. أخوك الملعون امتلأ جسمه.. الدم أنعشه وقوّاه.. ملأ عينيه شراً. لا ليس سفاني.. أبداً ليس سفاني.. يتقدم بتوجس.. يتلفت خلفه.. الدفقة مرتعشة وغريبة.. الحب والريبة.. الحب والخوف.. لماذا لا يكشف عن وجهه؟!.. سفاني، جمد عينيه القتل المزمن.. مخيفة نظراته.. خطوة أخرى نحوي.. دفقة أخرى باردة حارة في صدري.. الشيطان الدموي أخي.. أهو سفاني أخي؟!.. أهو حبيبي سفاني؟!.. لم يعرف لكنه قام على قدميه.. الخفقة في صدره موقد يدفئ رعدة الدنيا المقوورة. قد سامحتك!.. سامحتك!.. ودوريس

---

(٥٤١) أي ذهب ولم يعد.

ستفرح، وسيبتهج كل محبيك. وفتح أحضانه له.. قلبي أمامك، مكشوف مفتوح. إني أفتحه في الصمت على مصراعيه لك.. في الليل العابس المعتم الساخط، نحن أخوة فادخله!.. منذ الآن ماتت أسطورة قابيل وهابيل!.. فادخله أخي!..

ودخله.. في صمت الليل الحندس الساخط، دخله.. وبالخنجر الملتمع الظامئ حتى الموت..

وتهاوى خليف أمامه وهو يبتسم بسمة الصفح.. والحب..

٢٢

قال مسعود الشرطي لحزاقيل، بتأسف:

ـ مسكين هذا خْليف الچايچي.. شِفِتْ شْلون لِگوه مَگتول بْدُكّانه؟!..

حزاقيل يغضن وجهه. حزاقيل يحك رأسه. حزاقيل يفكّر بالأشياء الأخرى. إنها إنذارات الصحو القادم قد بدأت تأتيه كطلائع الشؤم. وتماسك وهو يغمغم:

ـ واني اشْ عِنْدي بيها؟!.. عسى ما واحِد ياكُل اللاّخ.. لَكْ مِنْ قامَت الْقيامة، والأخ يكتل أخوه.. واشُو هذا أبويا مَ دَيْغجَزْ.. يْظِلّ يقَشْمِر الْعالم بالجنَّة.. دگوم اخويا مسعود.. روخْلَه.. إبْنِد الحَسبة زين.. مِثِل كل مرّة.. گله جيب الجنسية ابنك حزاقيل قَرر يروح يْصير مِسلم، وْلَتْهِدّه لمّن يِنْطيك خْمِضْطاعِش دينار. فلس أحمر أقل لَتِرْضى. تَرى آني ميت مْنِ العطش. أريد اشرب، وانتَه هَمْ صاحب أطفال، تْفيدك.. نص بالنّص وْداعتك، ليش مَ تِعْرِفْني آني شِنو؟.. مَ تِدري آني مو مِقِرْباز؟![(٥٤١أ)]

(٥٤١أ)وما شأني أنا بهذا؟ فليأكل أحدهم الآخر. منذ بدء الخليقة والأخ يقتل أخاه، وأعجب كيف أن أبي لا يمل ولا يكل وما زال يخدع الناس بالجنة.

وكان ثلاثة حمقى يرسون في أعماق وحل يوم أحد، خالد، مشهود، مصنوع من دم، لا ينفكون يحيونه دون هوادة.

أحياناً، في خطرات خاطفة وبعيدة، يطلون منه على الدنيا، متسائلين:

ـ وينو سفاني؟!.. وينَه سفاني؟!.. أين سفاني؟!..

ثم حين لا يتلقون الرد.. يعودون..

هيا يا أخي مسعود. امض إليه، وأحكم تدبير المكيدة. قل له هات جنسية ابنك فقد قرر أن يسلم، ولا تتركه ما لن تأخذ منه ١٥ ديناراً، لا ترض بأقل من ذلك فلساً واجداً. فأنا أكاد أموت عطشاً للخمرة وأريد أن أشرب وأنت كذلك لك أطفال، وستفيدك النقود. مناصفة أقسم بحقك عندي أفلست تعرف ماذا أنا. ألا تدري أني لا آكل حق الناس؟!

هذا الكتاب

«فُوّة يا دم!» . . استعارة صيغت على شكل نداء من نداءات الباعة. والفوّة نبات أحمر السيقان، يستعمل في الصباغة، أما الدم فسلعة يُنادى عليها في الأسواق تشبيهاً بهذه النبتة الحمراء للترغيب به وعليه!

تدور أحداث هذه القصة في بغداد أواخر ثلاثينات القرن العشرين حول ثلاثة رجال من عامة الشعب البسطاء، يجابه كل منهم ذات صباح يوم أحد مشهود تجربة غيبية رهيبة مروعة، فيأتي الثلاثة إلى دكان شاي خليف ليستفتوا أخاه سَفاني، الثائر المتمرد على أخطاء الكون، عرّافهم الأكبر وكاهنهم الأعظم، فيما عانوه وشاهدوه، لكنهم عوضاً عن أن يلتقوا بسفاني، تطالعهم كف دموية مبصومة على طاولة الدكان، فيتوقف بهم الزمن عند يوم الأحد ذاك.